علاء اللامي

المستطرف الممتع



دار التيار للدراسات والنشر ـ بغداد

علاء اللامي

المستطرف الممتع

طرائف ونكات من التراث ومقالات خفيفة معاصرة

دار التيار للدراسات والنشر - بغداد

علاء اللامي
المستطرف الممتع ــ طرائف ومقالات
الطبعة الأولى ٢٠٠٤

دار التيار للدراسات والنشر / بغداد- العراق
توزيع دار الكنوز الأدبية
ص. ب. ٧٢٢٦ــ ١١
هاتف / فاكس ٧٣٩٦٩٦ ٠١
بيروت ــ لبنان

١ - بنو هاشم في الجزائر

بث التلفزيون الجزائري مساء الخميس ٢٠٠١/٨/٢٤ حلقة من برنامج "معالم تاريخية" خصصها لبعض معالم ولاية "الجلفة" الجغرافية والتاريخية والسكانية. والجزائريون يلقبون هذه الولاية بعاصمة السهوب لأنها تتوسط السهوب الشاسعة الزاخرة بآثار الإنسان القديم منذ العصور الحجرية القديمة. وفي وقفة جميلة استحوذت على ثلثي الحلقة، يتعرف المشاهد على قبيلة عربية جزائرية عريقة تسكن بعض جهات ولاية "الجلفة" تدعي "أولاد نايل" أي بني نايل. ومعروف أن القبيلة والعشيرة تسميان في المغرب العربي "عرش".

يقول شيوخ أولاد نايل إنهم يعودون بنسبهم إلى السيد الشيخ "نايل" أحد أحفاد كريمة النبي العربي الكريم فاطمة الزهراء. ولديهم إثباتاتهم وشجرة نسبهم التي تصل بجذورها إلى الدوحة النبوية الهاشمية.

أولاد نايل معروفون بكرم خارق، فالمضيف النايلي لا يقري ضيفه بأقل من "العلاليش = الحملان" المشوية على السفود. وهم شجعان كانت لهم وقفات مزلزلة مع الغزاة الفرنجة المدعومين بالأطالسة أيام حرب تحرير الجزائر، ويمتازون بحكمة بالغة تسهل لهم حياتهم وتحل مشكلاتهم، وقد نقل التلفزيون مباشرة بجلس حكماء

عقدته القبيلة مصادفة للحكم في قضية "حل تراب" أي خلاف على أرض زراعية بين شخصين. وانتهى المجلس إلى إحقاق الحق واعتذار المخطئ وطبق "كسكسي" شهي ينبغي أن يتناول جميع الحاضرين منه لقمة على الأقل كاعتراف علني بالموافقة على الحكم.

والنايلية هي القشابية (ملبوس) التي يصنعها هؤلاء السادة، والنايلي هو البرنوص (ملبوس) المعمول من وبر الجذع أي صغير الجمال أو "الفعو" كما يسميه بدو العراق، وتشتهر نساء أو بنات نايل (العلويات) بنسج هذا البرنوص المعروف في الجزائر بنعومته ومتانته وأناقة شكله.

أما السجاد النايلي فهو غاية في الوثارة والرقة ويطغي عليه لونان يعتبرهما أولاد نايل لوني رايتهم الهاشمية وهما الأحمر والأخضر. ومن بينهم مغنون وعازفون جيدون لهم أنماطهم الخاصة في الغناء وغير البعيدة عن عموم الغناء الشاوي "المغاربي" تمييزا له عن "الشاوي" المشرقي ومركزه منطقة "الجزيرة" بين العراق وسورية، واللافت هو أن "العود" حاضر في أغانيهم دوما.

بقي أن نقول إن "عرشا" صغيرا يحمل الاسم ذاته "أولاد نايل" موجود في الجمهورية التونسية ويبدو أن ذلك يأتي ضمن عملية التشكل والتناثر الديموغرافي القبلي في عموم العالم العربي ولكن السؤالين المهمين اللذين نختم بهما هما :

ما الحكمة في بث هذا البرنامج في ساعة متأخرة من الليل (الثانية والنصف ليلا) هل هي في الخوف على بني هاشم الجزائريين من الحسد أم إنها محاولة لعدم استفزاز الهامش الفرانكوفوني؟

أيهما أقرب إلى الحقيقة فالتصديق: طاغية سياسي ينتحل الانتماء إلى النسب النبوي الشريف ليستمر في الحكم والاستبداد كما حاول أن يفعل الملك فاروق وغيره أم قبيلة عربية كريمة كأولاد نايل تعيش حرة على أرضها ولا تحتاج إلى شجرة أنساب؟

طرائف ونوادر من التراث

سنختم كل مقالة من هذه السلسة من المقالات الخفيفة والمرقمة الأرقام المائلة بعدد من الطرائف والنوادر المنـــتقاة من التراث العربي القديم وستكون مرقمة بالأرقام العادية، ولم نشأ جمعها كلها في ملحق خاص للمحافظة على الحيوية والمتعة في القراءة.

١- بدوي شجاع :

كان الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك يشكو من حول خفيف في عينيه وكان جالسا ذات يوم وحوله حاشيته فقال: من يسبني ولا يفحش فله هذا المِطْرَف[1]، وكان بين الحضور رجل بدوي فنهض وصاح بالخليفة:

ألقه يا أحول!

فقال له هشام وهو يلقي له بالمطرف:

خذه قاتلك الله!

٢-الحجاج التقي جداً :

قال الحجاج يوما لرجل: اقرأ لنا شيئا من القرآن. فقرأ الرجل الآية (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجا..) فقاطعه الحجاج مصححاً وقال له: بل يدخلون في دين الله أفواجا. فقال الرجل: كان ذلك قبل ولايتك أيها الأمير!

---

١ ــ المطرف : رداء من الخز أو الحرير المطرز.

٣-معجزة متنبي:

تنبأ رجل في زمن الخليفة المتوكل فسأله الخليفة عن معجزته فقال المتنبي : ائتوني بامرأة عاقر أنكحها وتحمل بولد يتكلم في مهده ويؤمن بي. فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى :

يا حسن أعطه زوجتك لينكحها وسنرى إن كان صادقا أم لا. فرد الحسن على الخليفة: أما أنا فأشهد أنه نبي الله وإنما يعطيه زوجته من لا يؤمن به يا مولاي!

٤- قبيح في جهنم :

شاهد رجل جاره يستغفر الله ويدعوه أن يدخله الجنة. وكان الجار قبيح الوجه بشع السحنة فقال له الرجل: ليس من حقك يا جار أن تبخل بوجهك هذا على جهنم!

٢- ممنوعات طالبانية[٢]

يحتفظ المفكر والشاعر الباكستاني التنويري إقبال أحمد بعلاقات متينة مع حركات تحرر ومقاومة بعضها قديم كجبهة التحرير الوطني الجزائرية التي قاتل إلى جانبها ضد الاحتلال الفرنسي، وبعضها الآخر حديث مازال

---

٢ ـــ ملحوظة: كتبت هذه المقالة ونشرت قبل العدوان الأمريكي الأخير على أفغانستان وفي عدد ١٨/٩/ ٢٠٠١.

يخوض معها الكفاح ضد الأشكال الجديدة من الاستعمار. ومع جذرية أفكاره التقدمية كان لإقبال علاقات تضامنية جيدة مع العديد من الحركات الإسلامية. وضمن هذا الإطار تعرض هذا المفكر الشريف إلى امتحان عسير أو صدمة حقيقية،كما يبدو من تصريحاته، في علاقته مع حركة "طالبان" التي تسيطر على أغلب مساحة أفغانستان تؤسس وتقود حكماً شديد التزمت والسلفية يعادي المرأة ويكبت المجتمع كبتا شديدا. وقد قام إقبال أحمد بزيارة إلى معقل حركة طالبان في مدينة "قندهار" وقدم الشهادة التالية التي تصدم أشد الناس تدينا ومناداة بالحكم الديني والأفكار السلفية:

[ذات يوم سمعت طبولا وأصواتا خارج المترل الذي كنت أنزل فيه في "قندهار". ركضت خارجا لأستطلع ما يحدث في ذلك البازار المهدم الذي دمرته القذائف والمعارك أثناء الحرب. كان ثمة صبي لا يمكن أن يكون قد تعدى الثانية عشرة من عمره. كان رأسه حليقا وثمة حبل حول عنقه كانوا يجرونه به في البازار. وهناك رجل خلفه يحمل طبلا، ويقرعه ببطء: دام، دام، دام. والولد يجر في الطريق. سألت: (ماذا فعل؟) قال الناس إنه قبض عليه متلبسا بجريمة. وفكرت: (هذا غلام في الثانية عشرة، فماذا يمكن أن يكون قد فعل؟) قالوا: (ضبط متلبسا بجريمة لعب الكرة.) فقلت: (أي كرة؟) قالوا (كرة التنس) (وما الضرر في ذلك؟) (إنه ممنوع.) ذهبت لأحد قادة الطالبان. قال: (لقد منعنا الصبيان من لعب الكرة.) سألت: لماذا قال: (لأن الصبيان حين يلعبون الكرة فذلك يشكل إغراءً غير مناسب للرجال!). إن المنطق الذي يدفعهم – الطالبان – إلى ستر النساء من خلف الحجاب وسجنهن دخل البيوت هو الذي يجعلهم أيضا يمنعون الصبيان من لعب الألعاب. إنه ذلك النوع من الجنون! من الفصل الأول من كتاب

"إقبال أحمد في مواجهة الإمبراطورية" مقابلات مع دافيد برسميان /مجلة الآداب ٧/٨ /٢٠٠١)

بغض النظر عن الخلاصة التي ينتهي إليها إقبال أحمد والتي تفسر تطرف حركة طالبان في خنق الحياة بالممنوعات بسبب الكبت الذي يعانون هم منه بعد أن دفنوا نصف المجتمع وهو حي، يمكن القول بأن الطالبان ليسوا الوحيدين في النظر إلى الدنيا وما فيها بنظارتين جنسيتين. فقبل سنين قليلة طالب إسلاميون متشددون في مصر بإزالة برج القاهرة الدولي من الوجود لأنه كما قالوا يشكل إغراءً غير مناسب لنساء المؤمنين. وقد علق يومها كاتب من الكويت لا يحضرني اسمه الآن متهكما على دعوة أولئك "الإسلاميين المصريين" إلى تدمير برج القاهرة الدولي بأن قال ما معناه (إذا كان برج القاهرة قد أصبح مشكلة اجتماعية وأخلاقية في أذهان هؤلاء الناس فماذا نقول نحن في الكويت حين ننظر إلى برج الإذاعة والتلفزيون في الكويت بشكله الكروي المثير؟!) ولكن: هل هبطت حركة الطالبان من المريخ أم إنها ثمرة لتاريخ طويل من الكبت وسوء القراءة وسوء الفهم وسوء العيش؟ وهل يمكن تبرير ما تقوم به من عملية "تبشيع" للإسلام الحنيف كدين حي وحضارة زاهرة غابت بل وحتى كبرنامج سياسي وفكر أدلوجي ينادي به تيار سياسي عريض؟ إن خطورة النظر إلى الحياة بالنظارات الجنسية فقط والبناء من ثم على أسس ونتائج ذلك النظر هو ما سيقلب الأسوياء ويجعلهم شاذين والدليل يكمن في السؤال التالي الذي نقترح على القارئ أن يجيب عليه بصراحة بينه وبين نفسه: هل يمكن اعتبار الرجال الذين يشكل طفل يلعب كرة التنس إغراءً جنسياً رجالاً أسوياء وطبيعيين؟ وهل يمكن الثقة بهم واستئمانهم على حياة ومستقبل؟

٥ – نبي السفلة :

تنبأ رجل في زمن المنصور فجئ به إليه فقال له: أنت نبي السفلة. فقال الرجل: جعلت فداك يا مولاي كل نبي يبعث إلى أمثاله!

٦– عاشق لا مدير عام :

قال أبو العيناء، وهو من الشعراء البغداديين الظرفاء: تعشقتني امرأة قبل أن تراني فلما رأتني استقبحتني فأنشدتها :

وفاتنةٌ لما رأتـــــني تنـــكرت وقالت دميمٌ أحولٌ ما له جسمُ

فإن تنكري مني احولالا فإنني أديبٌ أريبٌ لا عييٌ ولا فدمُ[٣]

فقالت المرأة: يا هذا، أنا لم أردك لتولية ديوان الزمام بل عاشقا..

٧– نبي البطيخ :

ادعى رجل في أيام المأمون النبوة فجئ به إلى البلاط وسأله الخليفة: أنت نبي؟ فقال الرجل: نعم. فسأله الخليفة: وما معجزتك؟ قال الرجل: أطلب ما شئت أحققه لك. فقال الخليفة: أخرج لنا من الأرض بطيخة! قال الرجل: أمهلني يا أمير المؤمنين ثلاثة أيام فقال المأمون: بل أريدها

٣ ـــ عيي = عاجز عن الكلام بلباقة / فدم = ثقيل الفهم والكلام .

الساعة. فقال الرجل: أنصفني يا أمير المؤمنين، إن الله ينبتها في ثلاثة أشهر أفلا تقبلها مني بثلاثة أيام؟

٨- لذة الجديد :

كان صاعد بن مخلد نصرانياً فأسلم فجاء أبو العيناء لزيارته فقيل له إنه مشغول يصلي فهذب وعاد ثانية في المساء فقيل له إنه مشغول يصلي فقال أبو العيناء: دعوه يصلي فلكل جديد لذة.

٣- المعذبان في الأرض :

جمع مرض السرطان الخبيث بين المفكر الثوري الأفريقي الذي قاتل إلى جانب الجزائريين في ثورتهم التحررية ضد الغزاة الفرنسيين "فرانتس فانون" صاحب الكتاب الأشهر "المعذبون في الأرض" وبين الكاتب المسرحي العربي السوري المقاوم سعد الله ونوس. كان فرانتس مصابا بسرطان الدم "اللوكيميا" منذ زمن بعيد ولكن مرضه لم يشخص طبيا خلال فترة عمله في جريدة "المجاهد" لسان حال الثورة الجزائرية وحين شخص المرض كان قد تقدم مراحل عديدة وخطيرة في جسده النحيل والذاوي. كـــزَّ فرانتس على أسنانه وبدأ صراعاً رهيباً مع المرض وكتب أهم وأروع كتاباته ومنها كتابه "المعذبون في الأرض".

سعد الله ونوس ابن الفلاح الفقير من قرية "حصين البحر" شمال سورية كان يتمتع بجسد متين ووسامة محيا، ولكنه اعتزل الكتابة لفترات طويلة بسبب الخيبات القومية المتواصلة، وخصوصا بعد كارثة الخامس

من حزيران ١٩٦٧. وقد فكر مرة بالانتحار كما قال هو في شهادة ثمينة سجلت قبل رحيله وبثتها إحدى القنوات الفضائية العربية قبل عدة أسابيع. ومع بداية حرب تدمير العراق وخلال قصف وإحراق بغداد شعر سعد الله بأنه مريض وأثبت الفحص الطبي بأنه مصاب بالسرطان أيضا.

في تلك الشهادة التلفزية يعرب ونوس عن اعتقاد عجيب مفاده أنه من ضحايا تلك الحرب ولكن بشكل غير مباشر. وكما فعل فانون كــزَّ سعد الله على أسنانه وبدأ عملاً بطولياً على جبهتين: مقاومة المرض اللعين الذي راح ينهش جسده والثانية كتابة أهم وأخطر مسرحيات كتبت باللغة العربية وبسرعة وشجاعة خارقتين ومن تلك المسرحيات: "منمنمات تاريخية" و"طقوس الإشارات والتحولات" و"ملحمة السراب" و "أحلام شقية" .

ومات البطلان: فرانتس فانون وسعد الله ونوس، غير أنهما قدما لنا نحن الأحياء السائرين إلى موتنا "العادي" المحقق شهادة حقيقية مغزاها: أن الروح المبدع المسلح بحب الإنسان أقوى وبالدليل الونوسي والفانوني من الجسد الزائل وعلله وأمراضه القاسية. صحيح أن الموت هو المنتصر في النهاية على الجسد ولكن هذا الاستدراك خارج سياق الرهان لأنه يشمل جميع الأحياء بيولوجياً وليس مختصاً بفرد أو جماعة.. لقد قال فانون ورفيقه ونوس ما أرادا قوله في الهنيهات الأخيرة وفي خضم حشرجات الموت فانتصرا على المفهوم الفيزياوي للزمن كما يعرفه ديكارت كفضاء للموجودات وحولاه إلى زمن أبدي مفتوح على الخلود الحقيقي المنتصر للإنسان ضد الشر و تمظهراته الملموسة. و من تمظهرات و تجليات الشر التي فضحها البطلان الحكام الظلمة الجهلة والدول الشيطانية التي تزهق

روح الإنسان بالعبودية والتصفيق القسري السمج لتفاهات الزعماء الأميين والثقافات والآداب العقيمة التي يفبركها وينتجها مثقفون أوباش ليس فيهم ما هو حي غير أجسادهم السمينة، أما ضمائرهم وأرواحهم فقد أكلها الأسد النرجسي في غابة الدراهم والشهرة والفقاعات الملونة.

فرانتس وسعد الله وسامان مستفزان بمقدار ما هما نبيلان على صدور الأحياء جسداً وروحاً لأنهما كانا صديقين للإنسان المعذب على هذه الأرض يحرضانه على المقاومة لبناء أو استعادة الكرامة الإنسانية.

٩-العندليب المبسوط :

سمع رجل سكران مؤذناً رديء الصوت فصعد إليه وجلد به الأرض ثم جعل يدوس على بطنه فاجتمع إليه الناس وسألوه عن سبب فعلته فقال:

والله ما ضربته لرداءة صوته فقط ولكن لشماتة اليهود والنصارى بنا!

١٠- والعكس صحيح :

قال أبو دحية القاص لتلامذته ذات يوم: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف هملاج.

فقال له أحدهم: ولكن الذئب لم يأكل يوسف يا مولانا بل ألقى به أخوته في البئر!

فقال أبو دحية: إذن فـ"هملاج" هو اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.

١١- قصة مرض :

مرض الأعمش فأبرمه " أزعجه" الناس بكثرة السؤال عن حاله ومرضه فكتب قصة مرضه وأعراضه بالتفصيل في قرطاس وعلقه على الجدار فوق رأسه فإذا زاره أحد وسأله عن مرضه أشار الأعمش إلى القرطاس وقال للزائر اقرأ التفاصيل هناك!

١٢- تسحر بإصبع :

روى الشعبي أن النبي قال تسحروا ولو بأن يضع أحدكم إصبعه في التراب ويضعه في فمه. فسأل رجل من الحاضرين: أي إصبع من الأصابع. فقفز إليه الشعبي وأمسك بإبهام قدمه وقال له: بهذه!

٤- خرافات ساراماغو الجميلة!

صانع أقفال وحداد برتغالي يدعى خوسيه ساراماغو ولد سنة ١٩٢٢ وقرر، حين بلغ الخامسة والعشرين من عمره، أن يكون كاتباً روائياً. أصدر رواية "أرض الخطيئة" سنة ١٩٤٧ واستمر يبدع أعمالاً متميزة وفريدة مفعمة بالسخرية والتهكم حتى نال جائزة نوبل للآداب لسنة ١٩٩٨. من أشهر أعماله الروائية : "الإله الأقطع "و" الطوف

البحري" و "الإنجيل بحسب يسوع المسيح" و"العمى" أما أحدث رواياته فتحمل عنوان "المغارة". ذاع صيته في المكسيك أكثر من بلده البرتغال حين أعلن عن تضامنه الشجاع مع "الهنود الحمر" أو مع بقيتهم التي نجت من سيوف العنصريين الأوروبيين وبنادقهم سريعة الطلقات، وكان لساراماغو دوره الكبير في الدفاع عن الهنود والتبليغ بمأساتهم قبل وحين أعلنوا الثورة المسلحة في منطقة التشياباس بقيادة الحركة الزاباتية.

فنان السخرية السوداء هذا أصبح له جمهور واسع مأسور بكتاباته وبطريقته الحياتية حتى أطلق عليه المعجبون بفنه وأدبه " الغاز الروحي" و"منشئ السراماغية". ومع أن روايات سراماغو تصنف ضمن أدب السيرة الذاتية ولكنه لا يتكلم كثيراً عن حياته الخاصة فيها وحين أراد أن يوضح هذا اللبس ذات مرة قال بطريقته الساحرة (لأنني أكون من أكون وكما أكون، رواياتي تكون كما تكون). ساماراغو صاحب خرافات جميلة أخرى فهو مازال اشتراكياً متحمساً ومعادياً للعولمة الإمبريالية المتوحشة رغم الانهيارات الكبرى، ولكنه يأتي إلى الاشتراكية من بوابة الأخلاق ومفازات الروح وليس من خنادق الأدلوجة والتعالم البيروقراطي. إنه يقول حرفيا "أن تكون اشتراكيا فهذه حالة روحية" ويمكننا تمديد هذه الفكرة وصولا إلى التمييز الذي أقامه المفكر العراقي هادي العلوي والذي آمن أيضا بأن الاشتراكية المساواتية أو "المشاعية" كما كان يسميها، شأن أخلاقي يمت بصلة للقلبية الإنسانية أولا وأخيرا.

إنه الحافر على الحافر كما يقال! ولكن العلوي يصل بمقدماته تلك إلى خواتيمها التي تستفز بلادة المناضل المتكرش، فقد كرر العلوي مراراً بأننا قد نجد رجل دين أو شخصاً ثرياً وسليل أسرة أرستقراطية ينطوي

على إنسان اشتراكي مساواتي حقيقي وبالمقابل قد ينطوي الكادر المتقدم في حزب مساواتي اشتراكي"ما" على نذل مادي همه الأول والأخير جمع المال والمتاجرة بكل ما هو جميل حتى ولو كان الثقافة والإبداع. إذن الشرط هنا لا يتعلق بأدلوجة ما بل بحالة روحية تجعل القلبية الإنسانية أقوى من الكلبية البرجوازية في الذات والموضوع.

ومن خرافات ساراماغو الجميلة أنه يعلن في كل مناسبة: أن الشعوب متساوية ولكنها ليست متماثلة. وهذا "اللا تماثل" هو الذي نعني به الخصوصيات الثقافية والحضارية لشعوب الأرض التي تريد العولمة المتوحشة القضاء عليها تمهيداً لفرض نمط الحياة الأمريكي التافه بديلاً عنها. في آخر لقاء صحفي أجراه الصحافي الفرنسي بيرنار بيفوت مع خوسيه ساراماغو طرح عليه السؤال التالي: كيف يمكنك أن تستمر شيوعياً ضمن كل هذه المنعرجات؟ فأجاب ساراماغو قائلا: أنظر.. مثلما لدي هرمونات ذكورية تحدد لي نمو الشعر في ذقني لدي أيضا هرمونات شيوعية تمنعني من أن أكون غير ذلك. الأكيد هو أن هرمونات سراماغو ليست من ذلك الصنف الذي ينتج نمماً كلبياً وأنانية تفتك بأرواح أكثر الشعراء زعيقاً حول الإنسان والمآسي الإنسانية، فإذا كان من السهل على هذا النوع من البشر كتابة قصيدة عصماء عن الإنسان لا تكلفه شيئاً بل قد تجلب له تصفيقاً حاداً من لدن بعض السذج، فإن من الصعب عليه أن يقدم لذلك "الإنسان" موضوع شعره رغيف خبز أو جرعة ماء.. ولكن سيكون سهلاً عليه أن يغمز من قناة "ما بعد الحداثة" الرائجة خرافات هذا الديناصور المدعو ساراماغو، والذي قد يبدو في عيون البعض وكأنه قادم من كوكب آخر.. كوكب قصي وحزين وجميل الخرافات!

١٣- حداثة عقلية :

تغدى رجل عند الأمير الأموي سليمان بن عبد الملك وكان يومها ولياً للعهد وكان على المائدة جديٌ مشويٌّ فقال سليمان لضيفه :

كُلْ من كليتي الجدي فإنهما تزيدان في حجم الدماغ.

فقال له الرجل :

لو كان ما تقوله صحيحا لصار دماغ أمير المؤمنين "يقصد الخليفة الأموي" مثل دماغ البغل!

١٤-المخازي بلا نقاط :

قال الجاحظ أنشدني بعض الحمقى :

إن داء الحب سـقـم ليس يهنيه القرار

ونجا من كان لا يعشق من تلك المخازي

فقلت له إن القافية الأولى بالراء والثانية بالزاي وهذا غير صحيح! فقال لا تنقط شيئاً. فقلت ولكن الأولى مرفوعة والثانية مكسورة فقال: أقول له لا تنقط وهو يشكل!!

١٥- خوخ في طبق :

جاء غلام إلى خالد بن صفوان بطبق فيه خوخ من البستان فلما وضعه بين يديه قال له خالد :

لولا إني أعلم إنك أكلت منه لأطعمتك واحدة!

١٦- هجائيات جرير:

قال جرير يهجو بني تغلب :

والتغلبي إذا تنحنح للقرى[٤]   حك استه وتمثل الأمثالا

٥- أخلاقلوجيا

علم الأخلاق أو الإيطيقيا كما سماها بعض العلماء من أجدادنا صناع المجد العربي الإسلامي الزاهر والغابر وفق طريقتهم "الخاصة" في تعريب بعض العلوم ومنها ما ذكره أستاذي حسين قاسم العزيز الذي كان يحاضر في كليتنا (كلية الآداب/جامعة بغداد) خلال نهاية السبعينات في درس "الحضارة العربية الإسلامية" ومن تلك المفردات المعربة: الإرثماطيقا أي الحساب العددي والماطيماطيقا أي الرياضيات والبلاطيقا أي علم السياسة ومازالت كلمة "البلاطيقة" حية في اللهجة العراقية المعاصرة يعنون بها التسويف والاحتيال والخداع ولا أعتقد إنهم جاوزوا الصواب في هذا الابتكار، أليس السياسة علم احتيال وخداع وتسويف بهدف الوصول إلى السلطة؟ وبالمناسبة فلم تنتشر تلك الكلمات المعربة عن الأعجمي بل ظلت حكراً على حوارات العلماء البينية وبخاصة بين المتحذلقين منهم. لنعد إلى ما سميناها على سبيل "فلفلة" الكلام

---

٤ ـــ القرى = الطعام / استه = مؤخرته

الأخلاقلوجيا لنعرف إنها العلم الفلسفي المتخصص بدراسة قيمة الخير. وهذه القيمة بدورها واحدة من القيم الثلاث (الحق والخير والجمال) التي يسمونها القيم المطلقة، التي تندرج تحت عنوان مبحث القيم إلى جانب شقيقتها القيم النسبية. ومبحث القيم هو ثالث مباحث الفلسفة إلى جانب مبحث المعرفة ومبحث الوجود.. وبهذا المعنى الأكاديمي تكون الأخلاق علماً محايداً كسائر العلوم أي إنها لا تحتمل التصديق أو التكذيب بعبارات البلاغيين. أما إذا كان المقصود بالأخلاق مدارها في الممارسة الحياتية فإنها تفقد حيادها العلمي وتغدو قيمة معيارية بحد ذاتها فتقول هذا رجل لا أخلاق له وتلك امرأة طيبة الأخلاق وهذا وزير بلا أخلاق وتلك راقصة ذات أخلاقيات خاصة.. الخ. وثمة فصيلة من البشر احترفت التبشير بالأخلاق الفاضلة وهي نقيض قيمه الإيجابية كلها فانطبق عليها قول أبو الأسود الدوءلي :

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصفُ الدواءَ لذي السقامِ وذي الضنى أبداً وأنت سقيم

وقد يُذكّر هذا الأمر البعض منا بالمروية التي تتحدث عن دعيٍّ كان يتقنع بقناع الورع والتقوى والأخلاق الفاضلة رأى ذات يوم جاره يمر على مقربة من مبغى فهجم عليه وأوسعه مواعظ ونصائح ومحاضرات في وجوب مقاطعة هذا المبغى كرمز للشر المطلق. وذات يوم قرر الجار المسكين أن يغامر فيدخل إلى المبغى ليرى بأم عينيه رمز الشر المطلق على حقيقته ليتفاداه مستقبلا. وحين دخل صعق لهول ما رأى! فماذا رأى يا ترى؟ لقد كان شيخنا الورع المتخصص بالأخلاق الفاضلة يمسك بالدف

وينقر عليه طرِباً مفتوناً وقد تعتعه السكر آخر تعتعة فيما ركبت واحدة من "موظفات" الماخور على كتفيه المقدستين!!

تذكرت هذه المروية وأنا أشاهد قبل عدة أسابيع أحد المتخصصين بالأخلاقلوجيا وهو يفترش صفحة كاملة في جريدة يومية أجرت معه حوارا والتقطت له صورة تذكرنا بالممثل الهندي شامي كابور وهو نفسه الذي كان يشنع على أحد زملائه ويتهمه بأنه باع نفسه للشيطان وبدأ ينشر مقالاته في تلك الجريدة "العميلة لنظام الكسور العشرية" نفسها بعد أن أغلقت إحدى الصحف "الشريفة جداً" التيّ كان ينشر فيها فقط الأبواب بوجهه.. ها هو شيخ الأخلاقلوجيا يصل، ناولوه الدف رجاء..!

١٧- دعاء إبليسي :

سمع أبو يعقوبُ الخريمي منصورَ بن عمار صاحب المجالس يقول في دعائه :

اللهم اغفر لأعظمنا ذنبا ،
وأقسانا قلبا ،
وأقربنا بالخطيئة عهدا ،
وأشدنا على الدنيا حرصا.

فغضب أبو يعقوب وقال له :
امرأتي طالق إن لم تكن قد دعوت لإبليس!

١٨- بصر وبصيرة :

دخل عقيل بن أبي طالب على معاوية وكان عقيل كفيف البصر فقال له معاوية مواسياً:

انتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم.

فرد عليه عقيل :

وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم[٥]!

١٩- هجائيات أخرى له :

وقال جرير أيضا :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النارِ

ولا تبولين كل البول مســـرفة بل بولي مقدارا بمقدارِ

٢٠- ابن الرومي يهجو :

قال ابن الرومي يهجو أوفى بن منصور :

ما كنت أعلم أن الخبز فاكهة حتى مررت بأوفى بن منصور

يبس اليدين فما يسطيع بسطهما كأن كفيه شدا بالمسامير

الحابس الروث في أعجاف بغلته خوفا على الحب من نقر العصافير

---

٥ ــ البصائر = العقول.

٦ - الشاعر المتفرغ !

يعشق الحمام المشوي، ويذوب في شرائح لحم الحصان المقلية على الطريقة الرومانية "بفتيك"، ويموت على محشو العصافير والقبرات، ولكنه لا يتذكر أنه اشترى مرة في عمره الطويل كالدودة الوحيدة، باقة ورد وقدمها لذكر أو أنثى من مخلوقات الله في مناسبة أو دون مناسبة. ويندر أن يكون قد داعب طفلاً من أطفاله أو تغزل بزوجته أو خطيبته علماً بأن مساحة عينيه الدبقتين تتضاعف مرتين إذا نظر إلى زوجة صديقه أو قريبه.. ومع ذلك فهو يصر على أنه شاعر ملتزم بقضايا الإنسان: تجده في الصباح "شامخا" على منصة أقصى اليسار يطالب مزمجراً بتدمير العروش والأعراش والعرائش ، وهو الذي لم يلوث مرة يده بتبرع مهما ضؤلت قيمته لجمعية خيرية أو منظمة إنسانية أو عابر سبيل حاف قلباً وقالباً. وفي الظهيرة يتسلل بلباقة إلى هذه السفارة "الرجعية" أو تلك ليقبض حصته من نفط "العرب للعرب". أما في المساء فسيكون في منتهى اللبرالية ينظر ويفلسف لضرورات حوار الحضارات والاعتراف بالآخر الذي يهدم بيوتنا على رؤوسنا بطريقة "متحضرنة" جداً، ويختم بسيل جارف من الشتائم للمتطرفين من أعداء الديموقراطية والتطبيع وعملاء حزب الله! وبصدد التهمة الأخيرة فلن ينفع المتهم في شيء أن يكون أرثوذوكسياً أو صابئياً، زنديقاً أو وجودياً، بلانكياً أو ماركسياً طالما كان يرفض "أبا عن جد" الاستعباد الغربي وحضارة السفاحين والنخاسين أعداء البشر والطبيعة وزقورة أور ولكن.. قيل قديماً سبق السيف العذل!

وتسأل الشاعر المتفرغ عن رأيه في الجواهري فيقول: متخلف ومداح. وماذا عن البياتي؟ أمي وشتام. وماذا عن النواب؟ مهرج وشعاراتي (كاد يقول شعيراتي)! وسعدي يوسف؟ شاخ وانتهى زمانه! وأنت؟ كيف تنظر إلى نفسك وإبداعك أيها المتفرغ؟ وهناك جاء صوت العندليب الأسمر من المذياع يغني: كامل الأوصاف!

مناسبة هذا الكلام لقاء عابر برجل يستحق شيئاً يشبه الاحترام لأنه يعترف بعظمة لسانه إنه "عميل" من الناحية النضالية. ولكنه لا يطيق، وهذا من حقه، أن يتشامخ ويتعنطز عليه – والعبارة الأخيرة من قاموسه الشخصي – بعض العملاء المغلفين وخاصة المثقفين ممن يصفون أنفسهم بالشعراء أو الفنانين المتفرغين للإبداع وهم في الحقيقة – وهنا قدم الرجل أدلة لا تدحض من كعوب شيكات ووصولات استلام وتسليم – أكثر كسلاً من أن يكونوا عكس ذلك فيأكلوا خبزهم ويشربوا بيرهم "بشرف" وعرق جبين!

أدهشني الرجل مزيداً من الإدهاش حين قال: هل تعرف الشاعر فلان؟ قلت نعم، فهو مشهور ببياناته وبلاغاته ومقالاته التي تهاجم جماعتكم وتصفها بأشنع النعوت. قال: ولكن الذي لا تعرفه هو أنه كان يفعل ذلك لأننا رفضنا أن نعينه عندنا كنائب لرئيس تحرير جريدتنا، أما سياسياً فهاك اقرأ هذا السطر من هذه الرسالة غير القديمة وهي بخط يده. وقرأت: إنني نادم على كل كلمة نقد أو هجم قلتها بحقكم شخصياً وبحق مؤتمركم وقيادتكم.. فإلى الأمام والله الموفق! وهنا سكت كل شيء حتى المرحوم عبد الحليم حافظ!

٢١- حلال وحرام :

وجد رجلٌ يهودي رجلاً مسلماً يأكل لحماً مشوياً في شهر رمضان نهاراً والناس صائمون فجلس وأخذ يأكل معه فقال له المسلم :

وكيف تأكل معي وذبيحتنا نحن المسلمين لا تحل لليهود؟

فقال له اليهودي :

أنا في اليهود مثلك أنت في المسلمين!

٢٢- محتويات رأس الوزير :

عن علي التنوخي عن أبيه قال: اجتمعت ببغداد مع أبي علي الجصاص "ظريف بغدادي مشهور" فرأيته شيخاً طيب المحاضرة. فسألته عن الحكاية التي تنسب إلى أبيه والتي تقول بأنه قبَّلَ رأس الوزير. فقال الجصاص: نعم قبلها فسأله الناس: وهل كان في رأس الوزير ذهب "حلية ذهبية"؟ فقال لهم :

والله لو كان في رأسه " خر..." لقبلته.

٢٣- ولابن الرومي أيضا :

وقال أيضا يهجو بخيلاً معروفاً :

فلو يستطيعُ لتقتيرهِ تنفسَ من منخرٍ واحدِ

٢٤ – بداهة الطفيلي :

دخل طفيلي على قوم يأكلون فسألهم: ماذا تأكلون؟ فقالوا له: نأكل سما!

فجلس ومد يده إلى الطعام وهو يقول: الحياة حرام بعدكم يا أكرم الناس!

٧ – اللاسامية واللاإسلامية..!

قبل أن تسرق الحركة الصهيونية من العرب قلبهم الجغرافي والتاريخي فلسطين، سرقت منهم الانتماء السامي واحتكرته لها ولمحازبيها. لقد نجحت هذه الحركة ومن ثم الدولة التي أنجبتها بتحويل الانتماء السامي إلى سلاح فتاك بوجه أعدائها وهم الأوروبيون حصراً بعد الحرب العالمية الثانية والمآسي ذات الدوافع العنصرية التي ارتكبتها النازية بحق الأعراق والشعوب الأخرى غير الآرية ومنها يهود أوروبا. صحيح أن موضوعة التصنيف التوراتي لشعوب العالم (سام وحام ويافث) أثارت وتثير اعتراضات علمية في علم الإناسة "الانثربولوجيا" لأنها تستند إلى تفسير خرافي للتاريخ ولكنها ظلت مستعملة في هذا العلم رغم إنها أصبحت مختلفة الدلالات عما كانت تعنيه توراتيا. والطريف، أن الغربيين والعامة خصوصاً يجهلون تماما أن العرب ساميون أيضا بل هم، إذا سايرنا التفسيرات العنصرية الرجعية أكثر سامية من اليهود لأن العرب لم يهاجروا ويتشردوا لألفي عام ويختلطوا ويتمازجوا بالشعوب الأخرى بل ظلوا يعيشون على أرضهم التاريخية.. وهكذا أصبح العداء للحركة

الصهيونية وهي حركة سياسية أصولية سلفية عداء للعرق السامي بأسره وبكل مكوناته الآرامية والآشورية والعربية والمصرية، هذه المكونات التي انصهرت بعد الفتح الإسلامي في الواقع العربي القائم اليوم والمتجانس خلا بعض الاستثناءات القليلة هنا وهناك. وقد صار لهذا العداء اسم معجمي يدل عليه هو "اللاسامية" وهي ترجمة غير دقيقة ولكن سائدة لكلمة "إنتي ساميست" أي "ضد سامية" لأن "اللاسامية" قد لا تعني العداء والضدية بل المغايرة والمخالفة. وحين بدأ الصراع بين الصهاينة والعرب على أرض فلسطين جرب الصهاينة استعمال هذا السلاح فصرنا نرى ونسمع مناحيم بيغن المولود في بولونيا مثلا يتهم الملك الراحل الحسين بن طلال الهاشمي بأنه لاسامي!! أو نسمع أن فكتور ليبيرمان القادم من مولدافيا و لم يجف وحل السفر على حذائه بعد يتهم الرئيس بشار الأسد المنسوب إلى قبيلة تنوخ اليمانية بأنه لا سامي!! الأكيد هو أن الصهاينة لن يتورعوا عن اتهام سام بن نوح نفسه باللاسامية إذا قدر له أن يعود إلى الحياة ويقول لهم أنا سام يا خواجات! وسيتعجب سام من هؤلاء الذين يحتكرون الانتماء إليه وهم غير قادرين على لفظ حرف "الحاء " الموجود في اللغة العبرية بل يقلبونه خاء فلا يقولون "حماس" بل "خماس" ما عدا اليهود الشرقيين "العرب" طبعا.

يبدو إننا في خضم حرب جديدة هذه الأيام وتحديدا بعد تاريخ ١١ من أيلول الأمريكي، حرب ضد كل ماله علاقة بالإسلام كدين تؤمن به مئات الملايين من الناس في جميع قارات العالم. حرب غبية وطائفية الطابع ضد بشر لا علاقة لهم من قريب أو بعد بإرهاب أو عنف أعمى تمارسه جماعات طائفية عدمية بنتها أمريكا نفسها حجراً فوق حجر، ومولتها

وسلحتها حتى إذا ارتد السهم إلى نحرها السياسي والاقتصادي والأمني صاح إعلامها المحكور للصهاينة: إنه الإسلام عدو الحضارة المعاصرة!! ومما يساعد على تسهيل مهمة أعداء المسلمين الصمت أو الكلام المتلعثم والمهمات التي يطلقها بعض رموز الحركة الإسلامية المعتدلة ورجال الدين المتنورين والذين لا يجرأون على إدانة العنف الأعمى الذي تقوم به العصابات السلفية ضد المدنيين الأبرياء منتهكة تعاليم القرآن الكريم الذي يقول حرفيا (ولا تزروا وازرة وزر أخرى)..

ومن الأمثلة المثيرة للاشمئزاز على هذه الحرب ضد الإسلام والمسلمين: إجبار الركاب ذوي الملامح العربية والشرق أوسطية على مغادرة الطائرات والقطارات والباصات. وفي اليابان المتغربنة ابتاعت فتاة نسخة من المصحف القرآني وذهبت ومزقته أمام محل لتصليح السيارات يملكه شخص مسلم وفي أمريكا اعتقل رجل عربي مسلم لأنه متزوج من أمريكية عسكرية وفي ألمانيا اعتقل مسلم كان يسوق سيارته في شارع بالقرب من مفاعل نووي. إنها حرب غبية أخرى يروح ضحيتها المدنيين المسلمين الأبرياء وهذا أغبى علاج يمكن التفكير به لمكافحة الإرهاب والعنف السياسي الأعمى.. فأيهما أكثر واقعية إذن: الكلام عن لاسامية تتشدق بها الحركة الصهيونية أم اللاإسلامية كحملة حقيقية آخذة بالاتساع والنمو ضد المدنيين المسلمين الأبرياء في الغرب؟

٢٥- تصحيح الصحيح :

نظر أحد المغفلين إلى منارة جامع شاهقة الارتفاع فقال: يا الله!! ما كان أطول الناس الذين بنوا هذه العمارة!!

فقال له صاحبه الأحمق: اسكت ما أجهلك، أيوجد في الدنيا أحد بطول هذه المنارة؟ إنما بنوها على الأرض ثم رفعوها.

٢٦- البصري ومعاوية:

دخل عقيل بن ربيعة اليربوعي البصري على معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين أعني على بناء دار. فسأله معاوية: وأين دارك؟ فقال: بالبصرة وهي أكثر من فرسخين طولا وفرسخين عرضا (الفرسخ = ١٢٠٠ ذراعا) فقال له معاوية:

- أدارك في البصرة أم البصرة في دارك؟

٢٧- رياضيات :

سئل طفيلي أعراس: اثنان في اثنين كم؟ فقال: أربعة أرغفة!

٢٨- دخل طفيلي على قوم يشربون ويغنون فقيل له اختر أي صوت "طور في الغناء" شئت فقال: اقترح صوت نشيش القلي!

٢٩- قواد بسند متصل :

قال بعضهم: دخلت مدينة فرأيت بها غلاماً حسناً فراودته فأجاب فلما خلونا تذكرت الله وانصرفت عما هممت به وأمرته بالخروج فقال لي: ادفع لي شيئا، فقلت له: ما جرى بيننا ما يوجب العطاء فتنازعنا

وطال اللجاج بيننا ومر بنا رجل فتحاكمنا إليه فقال: حدثني أبي عن جدي عن المزني عن الشافي انه قال: إذا أغلق الباب وأرخي الستر فقد وجب المهر، فأعطه حقه. فأعطيت الأمرد درهمين وقلت للرجل: أعيذك بالله من قواد! فما رأيت من يقود على مذهب الشافعي بسند متصل غيرك.

٨- دفاعا عن الدكتاتورية!!

الدكتاتورية، في نسختها الرومانية الأصلية ليست بالسوء الذي يظنه الناس لكثرة ما شُتمت وأُهينت وتغيرت دلالاتها ومعانيها، بل إنها – وهذا ما سنحاول إقامة الدليل عليه – أفضل وأرحم من ديموقراطيات التسعات الأربع العالمثالثية (نسبة إلى الفوز الانتخابي والرئاسي بـ ٩٩،٩٩%) فقد ولدت الدكتاتورية اصطلاحيا وسياسيا سنة ٥٠١ قبل الميلاد خلال الحروب الرومانية الإتروسكية اللاتينية وتكرست كنظام حكم متميز خلال فترة الحروب الرومانية الفينيقية "القرطاجنية" والتي هَزَمَ خلالها القائدُ الكنعانيُّ الفينيقيُّ "حنى بعل" الجيوشَ الرومانيةَ في جميع المعارك التي خاضها على أرض إيطالية الحالية وبعد آخر هزيمة لهم في مدينة "كانو" اجتمع مجلس الشيوخ الروماني واختار وعين "دكتاتورا" جديدا في سنة ٢١٦ ق.م لقيادة الدولة في ظروف الهزيمة العسكرية والتهديد القرطاجني الخطير، ولكن لفترة محددة لا تتجاوز الستة أشهر فقط وليس مدى الحياة! وهذه المدة المحددة لحكم الدكتاتور قابلة للتمديد لستة أشهر أخرى إذا وافق مجلس الشيوخ الروماني.كما يُشترط على

الدكتاتور أن "يشاور" أعضاء المجلس وغيرهم من كوادر الدولة والمجتمع قبل اتخاذ قرار ما. وقد استثنيت الأمور المالية من نشاطات وقرارات الدكتاتور فلا حق له في التدخل فيها. وعلى فكرة فوجود مجلس الشيوخ الروماني في القرن الخامس قبل الميلاد لا يعني أن ديموقراطيتهم أعرق من ديموقراطيتنا فقبل الرومان بخمسة عشر قرنا كما تخبرنا ملحمة جلكامش ملك الوركاء وجد في العراق القديم مجلسان للتشريع، أول مجلس للشيوخ، والثاني للشباب. وقد اعتاد الملك جلكامش على استشارة المجلسين قبل اتخاذ القرارات الخطيرة كقرارات الحرب. ويبدو أن قوانين التطور التاريخي تسري على العراقيين ولكن بالمقلوب إذ أنهم وبعد خمسة ثلاثين قرنا على "المرحوم جلكامش" نراهم يرضون ويحنون إلى حكم العصابة والعشيرة والطائفة وصار من يتحدث عن "المجلس" يعني بالكلمة شيئا آخر له مذاق الفضيحة المغمسة بزيت العار! إذن، فالدكتاتورية "بالمعنى الروماني للكلمة" حكم استثنائي لمدة ستة أشهر، يقوده رجل يختاره ويعينه مجلس الشيوخ هو الدكتاتور ولا يحق له التدخل في الشؤون المالية للدولة! هذه هي الدكتاتورية يا عزيزي القارئ.. فأيهما أفضل – بحق السماوات – ديموقراطية التسعات الأربع أم الدكتاتورية؟ أليس النظام الدكتاتوري أكثر شبها بما يتضمنه من "شورى" وقيود تنفيذية بالشورى العربية الإسلامية والتي ظلمها بعض المزايدين والمقلدين فاعتبروها ترجمة للنظام الديموقراطي الحديث وهي أبعد ما تكون عنه؟

نظلم الدكتاتورية ونهين "إنسانيتها" حين نصف بها اليوم بعض الطغاة الذين لا علاقة لهم لا بالديموقراطية ولا بالدكتاتورية ولا بالشورى بل هم

أقرب إلى "المتغلبين العلوج" في التراث العربي الإسلامي، والذين صار اسمهم فيما بعد "المماليك". إنهم مرتزقة وأسرى حروب وغلمان أرقاء من أقوام شتى كانوا يتدرجون في جيش الدولة العربية الإسلامية ويشكلون عصابتهم الخاصة (نسميها اليوم أحزاب حاكمة) ثم ينقضون على السلطة فيسملون عيني الخليفة أو يقتلونه، ويفرضون طاغيتهم على الدولة والمجتمع والتاريخ والجغرافية والمالية والصحة والرياضة ومدفع الإفطار، ليس لمدة ستة أشهر رومانية بل لستة قرون شرقية.. رحم الله الدكتاتورية "الرومانية" وجدتها "البابلية "ومَنَّ علينا بما هو قريب منهما، إنه سميع، مجيب، قاصم أعمار الدكتاتوريين جميعا!!

٣٠- باجه ومسقوف :

كان أحد المغفلين يأكل مع ابنه رأسا "باجة" في مطعم ببغداد فقال الابن: يا أبت إن خرج معك الكعب فاعطني إياه لألعب به.

فقال له الأب: سخنت عينك! أهو سمك مشوي ليخرج منه عظم الكعب؟!

٣١- متاع أمير المؤمنين :

قال الخليفة المأمون لمحمد بن عباس: ما حال غلتنا "محاصيل مزارعنا" بالبصرة والأحواز وما حال أسعارها؟ فأجابه محمد:

أما متاع "بتاع" أمير المؤمنين فقائم على سوقه وأما متاع أم جعفر "زوجة الخليفة" فمسترخي!! فصاح به المأمون:

- اغرب عليك اللعنة!

٣٢- ذكاء رياضي :

قالت امرأة لرجل: إذا كان مكوك دقيق بدرهم ودانق فكم يكون بأربعة دراهم؟ فلم يعرف الجواب فقال: ممن اشتريت الدقيق؟ فقالت المرأة من فلان فقال الرجل: اقنعي بما أعطاك فإنه ثقة.

٣٣- لا تدعوه ينحدر :

روى الجاحظ أن والياً أتي إليه برجل جنى جناية فأمر بضرب رأسه فلما مد قال للوالي: بحق رأس أمك إلا عفوت عني فقال الوالي للجلاد: أوجع. فقال الجاني: بحق خديها ونحرها. فقال الوالي: اضربه. فقال الجاني: بحق ثدييها فقال الوالي اضربه. فقال الجاني: بحق سرتها فصاح الوالي: ويحكم لا تدعوه ينحدر أكثر!

٩- محمد الفاتح.

في روايته المعنونة (بوغاز كسن، رواية محمد الفاتح..) والتي قدم من خلالها رؤية جمالية معاصرة ذات أسس تأريخية لشخصية السلطان العثماني محمد بن السلطان مراد، يتحفنا الروائي التركي "نديم غورسيل" بالعديد

من اللوحات النثرية الفنية الراقية عن سيرة هذا السلطان العثماني الذي دخل التاريخ لكونه فاتح العاصمة البيزنطية القسطنطينية. وقد نجح الزميل الكاتب والمترجم "نصرت مردان" في تقديم ترجمة عربية سلسلة ومسبوكة جيدا لهذه الرواية ومباشرة عن اللغة التركية. ترجمة تدل على ذائقة جمالية حساسة لمبدع جمع بين لغتين هما لغتاه الأم العربية والتركية، لدرجة يشعر القارئ معها وكأنه يقرأ رواية كتبت بلغة الضاد أصلا. ولِمَ العجب؟ فالترك آسيويون وشرقيون ومسلمون وأقرب لنا نحن العرب من حبل الوريد رغم رماد التاريخ وشجن السياسة. وبالمناسبة فقد صدرت من هذه الرواية في تركيا ست طبعات خلال ثلاثة أعوام وترجمت إلى العديد من اللغات الحية. وقد توقفتُ عند حادثتين مهمتين في حياة السلطان التركي العثماني "محمد الفاتح" لما لهما من دلالات معاصرة وشديدة الراهنية:

أسس السلطان مدرسة عالية للعلوم الدينية وغير الدينية هي مدرسة السلطان محمد الفاتح، ولما كان السلطان محبا للعلوم والعلماء، كثير القراءة والاطلاع فقد طلب من رئيس المدرسين أن يخصص له غرفة في المدرسة:

– مولاي أطلب رأسي ولكن لا تطلب مني غرفة خاصة. قال له رئيس المدرسين. وبعد حوار طويل تم الاتفاق أن تخصص غرفة ولكن ليس للسلطان محمد الفاتح بل للملا محمد الفاتح! ولكي ينال السلطان "درجة الملا" يجب عليه اجتياز امتحان علمي. واجتاز التلميذُ/ السلطانُ الامتحانَ ولكن بجهوده الخاصة وبكفاءته العلمية، وهكذا قدم له رئيس المدرسين مفتاح الغرفة الخاصة به. هذه الحادثة تحسب للسلطان محمد

الفاتح بعد أن سحق أسلافه السلاطين كل ما تحقق من تقدم فكري هائل وحاربوا جميع الفرق والمذاهب الفلسفية والسياسية العربية الإسلامية ولم تسلم من قمعهم حتى فرقة "الأشاعرة" وهم سلفيون مثل العثمانيين ولكنهم يستخدمون الحجج العقلية والجدلية لإثبات آرائهم، أما السلطان أو الملا محمد الفاتح فقد كان يحضر المناقشات والسجالات المضنية والمعقدة بين المتنورين والرجعيين حول كتابات ابن رشد وخصمه العلمي الغزالي..لكن هذه الحادثة تظل فردية وشخصية ولم تتحول إلى ثقافة سائدة فحافظ السلطان على طبعه الاستبدادي، ومن هنا ننتقل إلى الحادثة الثانية:

كلف السلطان محمد الفاتح المعماري العظيم "يوسف سنان" ببناء جامع فخم يخلد اسمه. وحين انتهى سنان من عمله بعد عشرة أعوام أمر السلطان بقطع يديه ورميه في السجن! لماذا؟ لقد كانت قبة كنيسة "أيا صوفيا" في مدينة القسطنطينية أعلى من قبة الجامع السلطاني. وسوف يعذب هذا المعماري العظيم حتى الموت في السجن. نعم، السيف قد يبني إمبراطورية شاسعة ولكنه لن يسمو إلى ما تفعله العبقرية الفنية وهاكم الدليل: لقد ذهبت إمبراطورية محمد بن مراد أدراج الرياح وظلت أعمال يوسف سنان خالدة تزين فضاء المدن التركية.

نديم غورسيل لم يقدم رواية عن السلطان محمد الفاتح فقط بل قدم نشيداً فنياً مجيداً ضد الحروب ووحشيتها وخرابها والحرب ذات الجذور الدينية خصوصا ولهذا حارب الأصوليون المتعصبون في تركيا هذه الرواية الجميلة ولكنهم لم يتمكنوا من قتلها لأنها دخلت قلوب الناس.

٣٤ - أبو عبد الله الجصاص :

أ- كان أبو عبد الله الجصاص يكسر ذات يوم لوزاً ، فطارت لوزة من يده فقال متعجباً:

لا إله إلا الله كل شيء يهرب من الموت حتى البهائم.

ب- وأتاه غلامه يوما بفروج فقال لمن حوله: انظروا إلى هذا الفروج ما أشبهه بأمه.. ثم سألهم فجأة :

أمه ذكر أم أنثى؟

ج- وأصابته الحمى يوما فقيل له "كيف أنت ياأبا عبد الله الجصاص؟ فقال:

الدنيا كلها محمومة!

د- ونظر يوما في المرآة فقال :

اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه وسودها يوم تسود وجوه..!

هـ ـــ وقال ذات يوم : أشتهي أن تكون عندي بغلة مثل بغلة النبي "ص" فقيل له لماذا؟ فقال : لكي أسميها دلدل!

٣٥- فتوى فأرية :

سأل أحدهم شيخا مغفلا: ما تقول في فأرة ميتة مشت على رغيف خبز فهل ينجس؟

أجاب الشيخ : لا ينجس والله أعلم!

٣٦ - ورقة وقلم :

مر طبيب بأب واسع فشكا إليه ريحا في بطنه فقال له الطبيب: خذ الصعتر. فطلب أبو واسع من غلامه أن يأتيه بقرطاس ودواه ثم سأل الطبيب: ماذا قلت أصلحك الله: فقال الطبيب: قلت خذ كف صعتر ومكوك شعير. فقال أبو واسع: ولماذا لم تذكر الشعر من قبل؟ فقال الطبيب لأني ما علمت أنك حمار إلا الساعة.

١٠- حماقات تلفزيونية

تدخل القنوات التلفزيونية العربية خلال شهر رمضان في حالة تنافس غريب أشبه بالحروب الصغيرة والتي تستعمل فيها جميع الأسلحة من أزياء حديثة وطرق تجميل ملائمة لكافة أصناف "اللحم الأبيض المتوسط" وعنعنات قطرية ومزايدات طائفية وقشور طقوسية ومسلسلات يأكل سوء أغلبها جمال وذكاء أقلها فهذا يروج لتعدد الزوجات في بلد يعيش أغلب سكانه على حافة المجاعة، وذاك ينهش التراث العربي الإسلامي بطريقة استعراضية وفجة تروج للعنصرية وكره النساء وتحبيذ الحروب والقتل. وقبل أيام شاهدنا على قناة فضائية عربية تمثيلية تاريخية تسخر من المسلسلات التاريخية الراقية والجديدة المنتجة في سورية والتي بلغت مستويات فنية عالمية في محاولة، من صاحب التمثيلية البائسة، لتصوير الممثلين السوريين وكأنهم لا يحسنون الكلام باللغة العربية فيجهد نفسه لتصويب أخطائهم النحوية! وبعد هذه التمثيلية بساعات قليلة نشاهد على هذه القناة نفسها لقاء مع مفكر من هذا البلد " العربي" يصر

على تسمية اللغة العربية بلغة الضاد لا لجمال هذا الاسم بل، كما يلمح المفكر، للهرب من المشاكل مع الفرانكوفونيين الذين لا يطيقون كلمة "عرب" ومشتقاهما!! وثمة برامج يشرف عليها أو يعدها من الناحية العلمية أشخاص أدعياء وجهلة، ومن أقبح ما شاهدت خلال هذا "الموسم" حلقة من برنامج خفيف يبث من إحدى القنوات العربية الحكومية يبحث في أسماء العلم للأشخاص. صحيح أن البرنامج مفيد وشديد الجاذبية ولكن يفترض بمن يشرف عليه أن يكون عارفا بهذا الميدان ملما بالجانب المعجمي من اللغة خصوصا وهو يتعامل مع أشد الأمور حميمية وشخصية للإنسان. للأسف، فقد أزعج هذا البرنامج وأساء لعدد من المشاهدين. فقد اتصل بالبرنامج مشاهد اسمه "وائل" يسأل عن معنى اسمه فقالت له المقدمة الجواب الذي زودها به المعد أو المشرف على البرنامج وهو: وائل تعني لاجئ أو مبادر للنجاة. وهنا شعر المشاهد بالإحباط والحرج خصوصا وقد رزق بطفل اسماه عبد الله! فاقترحت مقدمة البرنامج على المشاهد أن يحمل الطفل اسم العائلة لا اسم الأب. علما بأن المعنى الأول لاسم وائل في معاجم اللغة العربية هو "المبادر" وهذه كلمة جميلة وذات معنى رفيع كما يلاحظ القارئ. واتصلت مشاهدة بهذا البرنامج لتسأل عن اسم أختها وهو "مي" فقالت لها المقدمة: لا تزعلي مني فكلمة "مي" تعني القردة الصغيرة!! والأكيد أن تلك الفتاة وجميع الفتيات والنساء العربيات اللواتي يحمل هذا الاسم شعرن بالمهانة والغضب، وربما بادر بعضهن إلى تغيير أسمائهن في حين أن "مي" اسم عربي وجد منذ عصر ما قبل الإسلام وهو كلمة صينية معناها "الجمال " ومن العربيات المشهورات اللائي تسمين بهذا الاسم حبيبة الشاعر العربي النابغة الذبياني

" مي" وقد قال نابغة ذبيان شعرا رائعا في حبيبته وأشار إلى أصل اسمها الصيني. ثمة برنامج خطير آخر موضوعه الأبراج وقراءة "البخت". يتصل المشاهد أو المشاهدة ويعطي تاريخ ميلاده فيبادر ضيف البرنامج وهو من المتخصصين في هذا " العلم التكنولوجي الخطير" الذي سيوصلنا- إنشاء الله- إلى الجوزاء والدلو والسرطان، ويدلي بتفاصيل مكررة وداخلية بل وتحريضية أحيانا تزرع الأحقاد وتجلب المشاكل للأسر البسيطة. فتارة يحذر العلامة "البرجاوي" المشاهدة من زوجها أو يقول لها بأنها (طيبة القلب زيادة وعليها أن تنتبه للشباك التي تنصب حولها وتراقب حركات زوجها) و ربما لن تتردد الزوجة المسكينة بطلب الطلاق والخلع من الزوج الخائن بدليل أن "الراجل في التلفيشن" قال الحقيقة!! وتتهدم أسرة وتتشرد أطفال والسبب في كل ذلك هو الغباء التلفزيوني واعتماد الواسطة والرشوة والمحسوبية وليس الكفاءة في تعين المسؤولين والمشرفين. أليس مثيرا للانتباه أن بعض التلفزيونات العربية أمست تضم أسرا بكاملها فالوالد مخرج والزوجة مقدمة والأخت مذيعة ربط والخال مؤلف مسلسلات والعم مدير الأرشيف والأطفال في مسلسلات الرسوم المتحركة وإسماعيل ياسين في السجن؟!

٣٧- أذن موسيقية:

عن محمد بن خلف قال: قيل لمؤذن ضعيف الصوت: ما يسمع أذانك فلو رفعت صوتك قليلا! فقال غاضبا: ما هذا الكلام؟ إنني لأسمع صوتي من مسافة ميل.

٣٨- باشا الحمير:

دخل أحمد بن محمد القزويني سوق النخاسين بالكوفة فقعد إلى نخاس وقال: يا نخاس أطلب لي حمارا لا بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر، إن أقللت علفه صبر وإن أكثرت علفه شكر، لا يدخل تحت البواري ولا يزاحم بي في السواري. إذا خلا الطريق تدفق "أسرع" وإذا كثر الزحام ترفق. فنظر إليه النخاس طويلا ثم قال له:

اصبر عليَّ أياما فإذا مسخ الله القاضي حمارا اشتريته لك.

٣٩- وقعة النبطي :

وقع نبطي من مكان عال فدخل عليه الناس يسألونه كيف وقع فلما أكثروا عليه أخذ جرة زيت وصعد سطح داره وألقى بها أرضا وهو يصيح: هكذا وقعت!

٤٠- صوم عاشوراء :

سمعت امرأة في الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة، فصامتْ إلى الظهر ثم أفطرت وقالت: يكفيني ستة أشهر منها شهر رمضان.

٤١- لعنة الحاج متولي

ينتمي المسلسل التلفزيوني "عائلة الحاج متولي" الذي عرض خلال شهر رمضان سنة ١٤٢٢ هـ وأثار ردود أفعال كثيرة إلى ذلك النوع

الوصفي والاستنساخي للواقع، فقد ابتعد مؤلفه ومخرجه عن أية مسارات تحليلية أو نقدية تستهدف التبشير بقيم ومثل تنويرية ترفع من السوية المجتمعية بل ظل المؤلف والمخرج ينهلان من المأثور والشائع من قصص الحي الشعبي وشخصية الرجل "المزواج". ومن الطبيعي أن يعمد المؤلف والمخرج إلى السير على خطين مهمين: يحرص الأول على إمتاع المشاهدين وتحقيق أكبر وأوسع إجماع جماهيري سطحي السمات يخاطب العاطفة الهشة والغريزة المشبوبة بالتلميحات والتصريحات الجنسية. ولقد بلغ الأمر في بعض الحلقات المسلسل درجة لا تحتمل من الإسفاف والإساءة للمرأة العربية عموما والمصرية خصوصا حين حولها مجرد جسد يقطر شبقا ومخلوقة لا تفكر بشيء آخر عدا الجنس وتمضي وقتها في مطاردات سرية بهدف الحصول على "حصة" أكبر من نشاطات الحاج متولي الليلية! إنها نظرة وعقلية تسيء بقصد أو بدونه إلى المرأة العربية والمصرية تحديداً حين تراها كمجرد وعاء غريزي وموضوع جنسي منفعل تماماً بما يقرره ويأمر به الرجل المزواج "سي السيد" صاحب القدرة الفريدة على الإقناع والقمع والحب والغيرة واستعمال العصا والجزرة بمهارة! أما الخط الثاني فيستخدم المأثور الشعبي في ميدان العرف والعقيدة لتقديم خلطة "درامية" لا تبتعد كثيرا عن استهدافات الخط الأول فهي خلطة فكهة وشعبية تمتع ذوي العقليات الذكورية من الرجال. إن موضوعاً حساساً ومهماً في مجتمعاتنا العربية الإسلامية كموضوع تعدد الزوجات لا ينبغي أن يطرح ويجمد بين حدي الحلال والحرام فهذان الحدان لا يختلف عاقل على محتواهما، والكل يعلم الموقف الديني من هذا الموضوع، وإنما ينبغي له أن يعالج ويحلل ويناقش من خلال سياقاته التاريخية والمجتمعية. بمعنى، أن الخلاف هنا ليس دينياً أو فقهياً بين محللين

ومحرمين لتعدد الزوجات، فحتى الطلاق حلال، ولكن الله يبغضه بنص الحديث الشريف القائل (إن أبغض الحلال عند الله الطلاق) بل هو خلاف اجتماعي وإنساني في مجتمع معاصر ومختلف كلياً عما كان عليه قبل أربعة عشر قرنا. إنه خلاف بين مروجين وغير مروجين ومحبذين وغير محبذين لظاهرة تلحق أفدح الضرر بمجتمعاتنا التي تختنق تحت وطأة التخلف والركود والقمع. ولكن المسلسل فضل أن يعبَّ من بحر "الإمتاع والمؤانسة" فلم يناقش مشكلاته وموضوعه الرئيس بإسهاب وعقل نقدي. لقد أثار هذا العمل التلفزيوني ردود أفعال كثيرة ليس لأنه نجح في تقديم معالجة درامية ناجحة لهذا الموضوع بل لأنه فشل في ذلك فأثار غضب النساء في مصر كما نقلت الصحف، ولأنه حاول بلوغ النجاح الهش عن طريق دغدغة مشاعر "الاسترجال" وعنعنات الفحولة لذوي الشخصيات الذكورية المعادين للمرأة. ولقد لخصت العبقرية الشعبية بلغة الأمثال وفي مصر العربية تحديداً موضوع تعدد الزوجات بشكل لا يتناقض مع ثوابت الدين ولكنها تفضح أيضا الطبع الذكوري الرجعي للرجل المزواج فقالت منذ مئات السنوات وباللهجة المصرية ذاتها: (زوج التنتين يا قادر يا فاجر!) بمعنى أن من يتزوج امرأتين إما أن يكون قادراً على العدل بينهما وهذا أقرب إلى المحال عملياً ومن الناحية العاطفية خصوصاً، وإما أن يكون فاجراً تدفعه لتعدد الزوجات شهوته البهيمية وغرائزه الحسية المفرطة. أما بخصوص الحاج متولي، القادر مالياً، والذي يحاول أن يكون عادلاً حتى في عواطفه مع زوجاته الثلاث فهو حالة شاذة ونادرة لا تعني مجتمعاتنا في شيء لأن أمثال الحاج متولي من "الأغنياء العادلين" والذين يزينون أسرهم بأربعة نساء لا تبلغ نسبتهم الواحد بالألف من المحيط إلى الخليج. فهل آن الأوان لفتح ملف النوع الآخر من الرجال المزواجين

وغير القادرين والذين يشكلون أغلبية الحالات في هذه الظاهرة؟ هل آن الأوان لفتح هذا الملف بشكل علمي وإنساني يحترم كرامة المرأة ويخاطب عقل الرجل وليس عضواً آخر فيه لكي لا يتحول الحاج متولي إلى لعنة وكارثة ديموغرافية إضافية؟

٤١- ولد ذكي جدا :

ضاع لرجل ولد، فجاءوا بالنوائح ولطموا عليه، وبقوا على ذلك أياماً ، فصعد أبوه ذات يوم إلى الغرفة الفوقانية ورآه جالسا في زاوية منها فقال له:

- يا بني أ أنت بالحياة؟ أما ترى ما نحن فيه؟ فقال الابن:

قد علمت ما أنتم فيه ولكن هاهنا بيض وقد قعدت عليه مثل القرقة، وما يمكنني أن أبرح عنه لأنني أريد فريخات من هذا البيض أنا أحبهم.

فأخرج الرجل رأسه من النافذة ونادى على أهله :

لقد وجدت ابني حياً، ولكن لا تقطعوا اللطم عليه!

٤٢- سؤال وجيه :

حضر مغفل مع قوم في جنازة رجل فنظر إلى أخ الميت وسأل صديقاً له:

هل هذا الميت أم أخوه؟

٤٣- النبي المقيد :

ادعى رجل النبوة في البصرة فأتي به إلى الوالي سليمان بن علي مقيداً فسأله: هل أنت نبي مرسل كما تزعم؟ فقال الرجل: أما الآن فإني نبي مقيد لا مرسل!

٤٤- عجيزة الخليفة :

قال الأوزاعي: دخل خريم الناعم على معاوية بن أبي سفيان فنظر معاوية إلى ساقيه وقال: أي ساقين لو أنهما على جارية. فقال خريم: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: واحدة بواحدة والبادئ أظلم.

١٢- خرافة التسامح .

كثيرة هي البديهيات المغشوشة والتي لو تمعنا فيها نقدياً لانكشفت على حقيقتها وظهرت كوهم أو باطل أو خواء. وفي مناسبة سابقة كنا قد عالجنا واحدة من هذه البديهيات الخرافية وهي خرافة "احترام الرأي الآخر" والتي يكررها بمناسبة ومن دون مناسبة زاعمو الديموقراطية والحداثة ..الخ. وقد تبين لنا أن الصحيح هو احترام حق الآخر في إبداء رأيه المخالف، وليس المطلوب هو احترام الرأي الآخر المختلف أو صاحبه. إن إجبار الناس على احترام آراء تعتبرها رجعية أو سلبية أمر ينطوي على إرغام وعدوان وعسف. الديموقراطية الحقيقية إذن لا تجبر

الناس على احترام ما لا تؤيد أو ما تستنكر، إنها لا تجبر الناس على احترام الرأي الآخر المختلف والمخالف بل إنها تعطي الحق للجميع بإبداء وطرح آرائهم بأسلوب سلمي متحضر، أما مسألة احترام أو عدم احترام صاحب الرأي فهو أمر شخصي بحت وقضية معيارية قيمية من جهة وعاطفية ضميرية من جهة أخرى. فأنا أحترم حق من يرى في المجرم شارون بطل سلام في إبداء رأيه مثلا، وسأرد عليه وأحاول تفنيد ما يرى، ولكن أية قوة على الأرض لن تجبرني على احترام هذا الرأي أو صاحبه. خرافة أخرى تحولت بفعل التكرار الببغاوي إلى بديهية تقول بأن من شروط وأصول الديموقراطية والمدنية الحديثة مبدأ التسامح بين أبناء الوطن الواحد. فلماذا نعتبر التسامح خرافة أو كذبة؟

إنهم يضعون التسامح بديلا عن التعصب والتشدد واضطهاد أبناء الأقليات القومية والطائفية الدينية وعن حسن نية غالبا. غير أن هذا الكلام سقيم وسطحي ولا علاقة له بالمثل الديموقراطية التاريخية مع احترامنا للنوايا الحسنة لأصحابه. لماذا هو كذلك؟ لأن التسامح كلمة لها مدلولات معاصرة مختلفة منها العفو والسماح للمعني بأن يرتكب ما هو خطأ أو معيب وهذا يعني عمليا: أنك حين تطالب بالتسامح مع العرب المسيحيين في العالم العربي، أو تطالب بالتسامح مع المسلمين في بريطانيا أو فرنسا، فكأنك تعترف ضمناً بأن هؤلاء أو أولئك يرتكبون خطأ أو جريمة ما في كونهم ينتمون ويؤمنون بهذا أو ذلك الدين، في حين أن الديموقراطية والحداثة تنظم العلاقة معهم على أساس مبدأ المواطنة وليس على أساس خرافة التسامح. المواطنة تساويهم بمواطنيهم من مختلف

الانتماءات القومية والدينية والجنسية فيصبح المسلم البريطاني مساوياً للمسيحي البريطاني والعربي المسيحي مساوياً للعربي المسلم أما التسامح فهو غض الطرف عنهم وكأنهم يمارسون رذيلة أو جريمة ما.

من ناحية أخرى يخبرنا المعجم، إن كلمة تسامح وجذرها اللغوي "س م ح" كانت تعني قديما الجود والكرم والسخاء (للمزيد راجع لسان العرب لابن منظور/ الجذر المذكور). وسامح أي وافق على المطلوب، وتسامح تساهل. ومعلوم للجميع أن جل هذه الدلالات والمعاني القديمة قد انقرض ولم يبق منها إلا التساهل مع مرتكب الخطأ والعيب، وهذا معنى مرفوض قطعاً في عصرنا الحاضر، عصر التمازج الشديد والتداخل بين سيادة العقل والمثل الديموقراطية الإنسانية وتحولها إلى قواعد حياتية عامة لجميع الشعوب وبين عنف وظلامية المهيمن الغربي والأمريكي على الكرة الأرضية بقوة الاقتصاد والسلاح والإعلام. ومن مشمولات هذا الموضوع الطريفة هو أن السلفيين المتطرفين من جميع الأديان يرفضون مبدأ المواطنة والتسامح معا ويعتبرون ذلك كفراً صريحاً يساوي الكافر أو الذمي بالسيد المؤمن، بل أن بعض الطائفيين المسعورين يمتنع حتى عن إلقاء تحية الصباح على جاره ومواطنه وابن قوميته لأسباب يدعي أنها دينية ولكن صاحبنا متى ما تطأ قدماه "أرض الكفر" الأوروبية حتى يتحول إلى واحد من أشد أنصار مبدأ المواطنة لأنه بموجبها سيعامل كبشر ومواطن متساو مع الآخرين في الحقوق والواجبات والمخصصات المالية.. هلموا بنا نبحث عن صفة أخرى غير "الانتهازي" لهذا المواطن سامحه الله!

٤٥- سارق المصحف :

عن أبي عبد الله بن عرفة قال قدَّم رجل ابنا له إلى القاضي وقال: أصلح الله القاضي هذا ابني يشرب الخمر ولا يصلي. فقال القاضي: ما تقول يا غلام فيما حكاه أبوك؟ فقال الابن: إنه يقول غير الصحيح، فأنا أصلي وأصوم. فقال الأب: أصلح الله القاضي وهل تكون صلاة بلا قراءة قرآن؟ فقال القاضي: يا غلام هل تقرأ شيئا من القرآن؟ فقال الغلام: نعم وأجيد القراءة. ثم أنشد:

علق القلبُ ربابا   بعد ما شابت وشابا
إن دينَ الله حقٌ   لا أرى فيه ارتيابا

فصاح أبوه : واللهَ يا حضرة القاضي ما تعلم هاتين الآيتين إلا البارحة حين سرق مصحفا من جيراننا.

٤٦- دعاء الكروان الجائع :

قال الجاحظ رأيت أبا سعيد البصري يدعو ربه ويقول: يا رباه.. يا سيداه.. يا مولاه.. يا جبريل.. يا إسرافيل.. يا كعب الأحبار.. يا أويس القرني.. بحق محمد وجرجيس عليك، أرخص على أمتك الدقيق.

٤٧- مدعي نبوة :

تنبأ رجل في أيام المأمون وادعى انه إبراهيم الخليل فقال له المأمون: كانت معجزة إبراهيم أن أضرمت له النار وألقي فيها فكانت عليه برداً

وسلاماً وسنفعل لك مثل ذلك فقال الرجل أريد واحدة أخف من هذه. فقال الخليفة: فألقي بعصاك لتكون حية تسعى. فقال الرجل هذه أصعب من سابقتها. فقال المأمون: فهل تحيي الموتى؟ فقال الرجل: مكانك قد وصلت، أضرب عنق وزيرك يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة. فصاح الوزير يحيى: أما أنا فقد آمنت بك وصدقت!

١٣- كلام قيشاني.

"حمام القيشاني" دراما تلفزيونية سورية تؤرخ لمرحلة مهمة من تاريخ سورية والعالم العربي هي مرحلة المد التحرري المعادي للاستعمار خلال العقود الوسيطة من القرن العشرين خصوصا. أخرج المسلسل، الذي امتد على أربعة أجزاء، الفنان هاني الروماني والذي عرفناه ممثلا له أداؤه الخاص والذي لم يكتف بصفة مخرج المسلسل بل شخص فيه أحد الأدوار الرئيسية.

في الحلقة الخامسة والثلاثين من الجزء الرابع بثت مساء " ١٢/٢٢/" تطرق المسلسل لبعض ما حدث في العراق خلال فترة الربيع الجمهوري بعد ثورة الرابع عشر من تموز الخالدة، ومن تلك الأحداث إعدام الطيارين الأربعة الذي شاركوا في انقلاب عسكري ضد النظام الجمهوري. ومع أن كاتب هذه السطور ضد عقوبة الإعدام جملة وتفصيلا، وقد سبق له في الثمانينات أن شارك في تأسيس تجمع تثقيفي مناوئ لعقوبة الموت اسمه "إتلاف الإتلاف " والإتلاف هو اسم عقوبة الإعدام في العراق في بدايات القرن الماضي، ولكنه يود أن يطرح السؤال التالي على أهل "حمام القيشاني" الذين لمحوا وصرحوا إلى ما يشين شعب

العراق بخصوص العنف والدموية.. الخ. يقول السؤال: ترى لو حدث تمرد أو انقلاب مسلح يقوده عسكريون ضد نظام ثوري جديد في أية دولة من دول العالم، ثم فشل التمرد وحوكم القائمون به فأية عقوبة يمكن لنا أن نتوقع صدورها ضدهم؟ كما أسلفت فأنا ضد عقوبة الموت لأسباب عديدة، أولها أن الحياة هي سر الوجود الخالد والممتنع، وليس من حق أي كان سلبها من الحي مهما كان السبب خصوصا وأن هناك العديد من العقوبات المادية والمعنوية الأخرى. غير أن هذا الرفض للإعدام لا ينطبق طبعا على القتال التحرري والدفاع المشروع عن النفس بل على ما كان يسميه العرب قديما "القتل صبرا" وهي ممارسة لم يكونوا يحبذونها أو ينظرون باحترام إلى من يقوم بها.

في "حمام القيشاني" أُشيرَ مرارا إلى دور الشيوعيين العراقيين في (حرف الثورة وتعليق الناس على عواميد الكهرباء) وسيطرتهم واحتكارهم للسلطة، والطريف أن المؤلف انتبه إلى واحدة من هذه الافتراءات وذلك حين ورد ذكر مطالبة الشيوعيين بمقعد وزاري في حكومة عبد الكريم قاسم فقال على لسان أحد الممثلين ما معناه (كيف يطالب الشيوعيون العراقيون بمقعد وزاري في السلطة التي يقول القوميون إنهم حرفوها ويحتكرون السيطرة عليها؟) وفي نفس السياق ورد نقد موضوعي وصحيح تاريخياً لتجربة الشيوعيين العراقيين الذين كما قيل في المسلسل: (يهونون عيوبهم ويكبرون عيوب غيرهم ويرفعون شعار ماكو زعيم إلا كريم والزعيم الأوحد.. الخ). إن التاريخ ليس ملكا لأحد، والنقد شرط ضروري من شروط التقدم الحضاري في حياة الأمم الحية، غير أن النقد شيء والنظرات والأحكام القطرية السيئة والمسبقة شيء

آخر. لقد تلاشت العديد من تلك النظرات والأحكام العتيقة مع مجيء أجيال جديدة من الشباب تتفهم حقيقة العلاقات الوثيقة والعميقة بين الشعبين الشقيقين العراقي والسوري، وسيختفي بمرور الزمن ذوو العقليات القطرية من عراقيين فات زمانهم ينظرون إلى السوريين كمجرد أتراك يتكلمون العربية، ومن سوريين انقضى عصرهم ينظرون إلى العراقيين كأكياس نقود وأصحاب "مصاري" دمويين. إشارة اعتزاز أخيرة إلى دور المرأة الشامية والعربية عموما هذا العمل الدرامي الطويل والتي كانت من صناع تاريخ الحركات الثورية والتحررية الرئيسيين في تلك الأيام قبل أن يعيدها (أمراء الظلام والتخلف) إلى السرير والمطبخ ومن ثم إلى القبر: النهاية!

٤٨ – مطعم " باجة الجنة " :

دخل منصور النعمان على أحمد أبي حاتم وهو يتغدى برؤوس خراف "باجة" فدعاه أحمد وقال :

هلم يا أبا سهل فإنها رؤوس الخراف الرضع.

فقال له منصور: هنيئا لكم، أطعمنا الله وإياكم من رؤوس أهل الجنة.

٤٩– بالإجماع :

جاء رجل إلى أحد الفقهاء وقال له: أنا عبد الله وعلى مذهب أبي حنيفة وإني توضأت وصليت فبينما أنا في الصلاة إذ أحسست ببلل في سروالي يتزلق وشممت رائحة كريهة خبيثة فما قولك؟

فقال له الفقيه: عافاك الله! لقد خريت بإجماع المذاهب!

٥٠-آية موسى :

ادعى رجل النبوة في عهد الخليفة المعتصم فجيء به إليه فسأله: ما آيتك؟ قال الرجل: آية موسى. فقال الخليفة : فألقي بعصاك تكن حية تسعى. فقال الرجل سأفعل ذلك إن قلت ما قاله فرعون (أنا ربكم الأعلى..)

٥١-تنازلات متنبئ :

ادعى رجل النبوة فطلب ودعي له بالنطع والسيف فقال لهم ما تفعلون قالوا له: نقتلك. قال و لم تقتلونني؟ قالوا لأنك ادعيت النبوة. قال فلست أدعيها فأنا صديق ولست نبي فجيء له بالسوط فقال: لم تضربوني؟ قالوا لأنك ادعيت انك صديق. قال فلست أدعي ذلك فأنا من التابعين لهم بإحسان فدعي له بالدرة قال: و لم ذلك؟ قالوا لأنك ادعيت ما ليس فيك. قال: ويحكم دخلت عليكم و أنا نبي وتريدونني أن أخرج منكم وأنا زنديق؟

١٤- المرابدة وصلوا..!

المرابدةُ جمع لصفة مستحدثة هي مربدي أو متمردب والمقصود به المساهم في عرس حكومي أدبي دسم المشمولات، براق الشعارات، تقيمه

الحكومة في العراق سنويا وتدعو إليه أدباء ومثقفين عرب وعراقيين.
وبمناسبة الدورة السابعة عشرة لمهرجان المربد التي أقيمت قبل عدة أسابيع وجهت الحكومة ٢٤٥ دعوة إلى من تعتقد أنهم أدباء عرب و٢٢٥ إلى زملائهم من العراقيين. غريب؟ لماذا؟ ما الغريب في الأمر؟ دولة "مثقفة" تدعو أبناء شعبها الأدباء بعد أن تشرد أغلبهم في أنحاء العالم أيدي سبأ كما يقول المثل المعجمي إلى مهرجان أدبي؟ ما الغريب في الأمر؟ ألم تسمعوا بدولة أخرى شردت الآلاف من أدبائها وفنانيها ومثقفيها لدرجة أصبح لديها عجز في سلك المؤذنين والعرضحالجية؟ ألم تسمعوا بحكومة "حكيمة" وجهت الدعوة لبعض ممن ظل منهم صامدا على قلب الشعب إلى المشاركة في مهرجان أدبي؟ بالمناسبة فالمهرجان العتيد أخذ اسمه من سوق المربد العربي القديم قرب مدينة البصرة. لقد نشأ هذا المهرجان أو السوق قبل أكثر من ألفي عام. نعم قبل الإسلام! وكان عفويا يتبارى ويتنافر ويتفاخر فيه الشعراء والخطباء العرب أمام رواد الفضاء. عفوا، رواد السوق من الرعاة وأرباب الشويهة والبعير وتجار الحرير والسيوف والعطور الثمينة والسمك المجفف..الخ! وقد سمعت من أديب عراقي خفيف الدم إلى درجة تثير الكآبة تخريجاً طريفاً لاسم مهرجان المربد حيث نسبه صاحبنا إلى فعل "رَبَدَ" في اللهجة العراقية ومعناه "حطم ودمر" تذكيرا بما صنعه النظام الشمولي بالعراق وشعبه. وربما كانت له علاقة بفعل "أَرْبَدَ" الفصيح ومعناه "أفسد المال والمتاع" ومن معاني هذه الكلمة كما يفيدنا ابن منظور في لسان العرب: تربد وجهه أي صار كلون الرماد، والمربد الموضع تحبسُ فيه الإبلُ، والربدة نوع من الحيات خبيث.

وبجمع هذه التعاريف المنتقاة سيتضخم تعريف الأديب المتمربد ليكون: هو الشاهد أو المشارك في تحطيم وتدمير العراق والذي أفسد مال النفط ومتاع الناس ثم وافق على البقاء حبيسا مع الإبل حتى تغير لون وجهه فصار بلون الرماد فوقف كالأفعى يصدر فحيحاً يظنه شعراً أو نثراً أدبياً.

ومن هؤلاء المرابدة اشتهر روائي بذّ جميع زملائه في الأدب وفنون النصب والرفع والفهلوة، فقد فاز هذا السيد الأنيق مناصفة بإحدى جوائز السيد الرئيس للمهرجان ولكنه احتج على قرار المناصفة، فقيل له: خذها كلها يا فالح! فأخذها كلها هنيئاً مريئاً وعروقه القومية والوطنية تنبض بالعرفان ومشاعر الحداثة. وبعد كارثة الثاني من آب ١٩٩٠ احتج أديبنا على "احتلال العراق لدولة الكويت" وقرر إعادة جائزة المربد إلى أصحابها. ولكن كيف وقد طار العصفور بخيط الفلوس؟ والتمعت في رأسه الخطير فكرة براقة: لماذا لا يكتب رسالة مفتوحة لأهل الكويت يعلن فيها عن تضامنه معهم عساهم يحلون كيسهم وينقذونه وينقذون شرفه الذي تلطخ بتلك الجائزة "الشائنة"؟ وفعلها صاحبنا ودبج مقالة عصماء جعلت الكيس الكويتي ينفتح على مصراعيه. وبعد أن قبض "الأديب المتمربد" مبلغ المائة ألف دولار للمرة الثانية أمضى وقتاً طويلاً ينتظر نتيجة المعركة العسكرية على الأرض فربما تنقلب الطاولة رأساً على عقب.. وحين انتهت الحرب ذهب صاحبنا إلى السفارة العراقية و هوب! قذف بوجه السفير جائزة المربد، فوا: للدقة، لقد قذف الشهادة المكتوبة الأنيقة للجائزة وذات الأختام المزركشة وخرج. وهنا صاح به السفير: ومبلغ الجائزة يا أستاذ؟

فرد عليه الأديب المتمربد سابقاً بقصيدة قصيرة جداً تقال في اللغتين العربية والتركية بنفس الحروف ولها نفس المعنى المربدي: طظ!

ملاحظة : يمكن أن تلفظ الظاء زايا دون أن يتغير المعنى المراد كما هي الحال في أفلام فؤاد المهندس وخطابات العقيد تأبط شرا.

٥٢- أبرد من الثلج :

جاز أحد الأمراء على بائع ثلج فقال له: أرني ما عندك.

فكسر له البائع قطعة وناوله إياها فقال الأمير: أريد أبرد من هذا. فكسر له البائع قطعة من الجانب الآخر فقال الأمير: آ.. أحسنت هذه أبرد، زن لي منها رطلين!

٥٣-فتح الفتوح :

اشترى الشاعر علي بن الجهم جارية على أساس إنها بكر فلما اكتشف أنها ثيب "ليست عذراء" قال لها: ما حسبتك إلا بكرا. فقالت له الجارية: يا سيدي لقد كثرت الفتوحات في زمن الخليفة الواثق!

٥٤- رأس أمي وأبي :

اشترى الظريف مزبِّد رأسين فوضعهما بين يدي امرأته وقال: اقعدي نأكل فأخذت رأساً فوضعته خلفها وقالت: هذا لأمي. فأخذ مزبد الرأس

الآخر ووضعه خلفه وقال: وهذا لأبي فقالت وماذا نأكل؟ قال: ضعي رأس أمك وأضع رأس أبي.

٥٥- بين معاوية وشريك :

دخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميماً فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من القبيح وإنك لشريك وما لله من شريك وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور فكيف سدت قومك. فقال له شريك: إنك لمعاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب. وإنك لصخر والسهل خير من الصخر وإنك لابن حرب والسلام خير من الحرب وإنك لابن أمية وما أُمية إلا أَمة صغرت فكيف صرت أمير المؤمنين؟ ثم خرج من عنده وهو يقول:

أيشتمني معاوية بن حرب وسيفي صارم ومعي لساني

وحولي من ذوي يزن ليوث ضراغمة تهش إلى الطعان

يعير بالدمامة من سفاه وربات الحجال من الغواني

٥٦- الكلبي وأحفاده.

وصل عبد الرحمن الداخل الذي لقبه أبو جعفر المنصور بـ "صقر قريش" إلى الأندلس هاربا من سيوف بني العباس واستطاع السيطرة على البلاد بمساعدة أخواله البربر من قبيلة "نفزة" ثم هزم جيشاً عباسياً أرسل ليقضي على تمرده. آنذاك كان شخص يدعى سليمان بن يقظان

الكلبي والياً على برشلونة شمال شرق الأندلس وعاصمة إقليم كاتالونيا حاليا. وكان للكلبي هذا حليف وصديق من طينته ذاتها هو والي مدينة سرقسطة واسمه الحسين بن يحيى الأنصاري. فاتفق الاثنان على إعلان الثورة على أميرهما العربي المسلم مثلهما. وبهدف جمع الحلفاء والمساعدات من أجل قضيته "العادلة" سافر الكلبي إلى فرنسا ليلتقي بملكها شارلمان وحين التقى به اقترح عليه أن يهاجم جيشه الفرنسي الأندلس ويقضي على حكم عبد الرحمن الداخل وتعهد هو وصديقه الأنصاري بتقديم كل دعم مطلوب ومساعدة ممكنة من أجل "تحرير البلاد والعباد من ذلك الحاكم الظالم" ولكن شارلمان كانت له حساباته الخاصة، فآثر أن يترك العرب يتذابحون فيما بينهم لينقض عليهم جميعا في النهاية وبعد أن يكونوا قد نزفوا غزيرا. وعاد الكلبي خائبا إلى برشلونة ثم صعَّد من تمرده على الحكم المركزي، فأرسل له الأمير الأموي جيشاً يقوده ثعلبة بن عبيد الجاني فسارع الكلبي ودبر خطة محكمة مع حليفه الأنصاري واجتمعا على قتال ثعلبة وفعلا نجحا في الانتصار على هذا الأخير وأسراه حيا. سؤال: ماذا يمكن لنا أن نتوقع من والى برشلونة العربي المسلم والمنتصر على أخيه في الدين والقومية؟ القتل؟ هذا محتمل وله سوابق كثيرة ولكنه لم يقتل الأسير بل لقد فعل ما هو أسوا من ذلك: لقد قدم أسيره ثعلبة حيا هدية إلى ملك فرنسا شارلمان ليكون بمثابة دليل على حسن نيته كحليف! ولكن شارلمان اصطحب "الهدية" معه وعبر جبال البارانس في جيش كبير في محاولة لاحتلال الأندلس كله، وبدأ بمهاجمة مدينة "سرقسطة" فتحصن الأنصاري في داخلها، وأبدى صمودا ملحوظا فيها،

وهنا قرر شارلمان التوقف عن اللعب مع "الصغار" والعودة إلى بلاده ليبدأ بالتعامل مع عبد الرحمن الداخل باحترام وندية. أما مصير الكلبي وحليفه الأنصاري فكان على الشكل التالي :

- غدر حسين الأنصاري بحليفه سليمان الكلبي وقتله غيلة.

- سحق جيش عبد الرحمن الداخل جيش "سرقسطة" المتمرد وقتل الأنصاري.

- صعد نجم عبد الرحمن الداخل وقاد عملية تحديث وتعمير هائلة أذهلت أعداءه الأوروبيين وخصومه العرب العباسيين فقد دوَّنَ الدواوين وجند الأجناد وعقد ألوية وبنى قصراً ملكياً ضخماً في عاصمته قرطبة وبنى فيها جامعاً كبيراً لم يسبقه أحد إليه وأحاط المدينة بسور منيع ووضع ركائز مملكة راسخة ومتقدمة وأدار شؤون الملك بذكاء وشجاعة وبعد بصيرة..

ومازلنا إلى يوم الناس هذا، وبمجرد أن نسمع عبارة "صقر قريش" حتى نعرف اسم البطل التاريخي المقصود بها أما الكلبي فربما لم يسمع به أحد قبل أن نكتب هذه الكلمة وربما ظن البعض إننا نتكلم عن "كلبي" آخر وهو واحد من أحفاد الكلبي القديم غير أن اسمه يلفظ في عصرنا الحاضر بما يسميه اللغويون كشكشة ربيعة العامية. سؤال أخير: أي لقب يليق بالحاكم المعاصر والذي سفك من دماء شعبه أكثر مما سفك الأعداء؟ "صقر قريش" أم "غراب البين"؟

٥٦- تطبيق الشريعة :

حكى أبو الخير الخياط عن بعض أصحابه قال: دخلت تاهرت (مدينة تيارت الجزائرية حاليا) فإذا فيها قاض من أهلها وقد أحضر أمامه رجل جنى جناية ليس لها حد منصوص عليه في القرآن ولا في السنة، فاحضر القاضي فقهاء المدينة وطلب مشورتهم، فقالوا بأجمعهم: الأمر متروك لك فاحكم بما ترى. فقال القاضي: أرى أن أضرب المصحف بعضه ثلاث مرات ثم أفتحه وأطبق ما خرج منه مصادفة. فقيل له: افعل وفقك الله. ففتح المصحف بعد أن ضربه ببعضه ثلاثاً فخرج قوله تعالى ((سنسمه على الخرطوم..)) فأمر القاضي بقطع أنف الرجل.

٥٧ – هاديا لا جابيا :

كتب حيان عامل مصر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول (إن الناس هنا قد أسلموا فليس عليهم جزية بعد الآن.) فكتب إليه عمر: (أبعد الله الجزية! ثم إن الله بعث محمداً هادياً لا جابياً للجزية)

٥٨ ـ شهوة :

قال رجل أشتهي أن أرى خلفي. فجاءه الحارث جميز بمرآة فجعلها تلقاء وجهه.

٥٩- ابن زهير والجبل:

صعد ابن زهير جبلا فأعيا وسقط كالمغشي عليه فقال يخاطب الجبل: يا جبل ما أصنع بك؟ أ أضربك؟ لا يوجعك؟ أ أشتمك؟ لا تبالي. يكفيك يوم تكون الجبال كالعهن المنفوش.

٦١- " ديغول " أيها العدو الرائع !

حين قرأت قبل عدة أعوام كتاب أندريه مارلو "سقوط السنديان" والذي خصصه لتأبين صديقه الرئيس الراحل شارل ديغول، شعرت بأن الكتاب معمول من نسيج المبالغة الفرنسية المعهودة ومقدود من صلب الفخار،كي لا نقول الغرور، الذي يسري مع الهيموغلوبين في دماء الفرنسيين من الطبقة الوسطى خصوصا. ثمة فقرة فظيعة قد توضح مقصودي غير العنصري وردت في رواية "المقامر" لدوستوفسكي يصف فيها برجوازيا صغيرا فرنسيا ويقول فيها عنه: ثمة غرور حتى في تواضعه الوقح! وقبل أيام قليلة شاهدت شريطا وثائقيا طويلا على إحدى القنوات الفرنسية عن شخصية ديغول فشعرت بأن "أندريه مارلو" بريء إلى حد بعيد من تهمتي المبالغة والغرور في ما كتب عن ذلك الرجل الكبير والتاريخي. فكيف ذلك؟

وصفت "ديغول" في العنوان بالعدو لسببين مهمين الأول: مسئوليته الشخصية عن استمرار الحرب الاستعمارية ضد الشعب الجزائري كل تلك السنوات وتلكؤه في حسمها. والسبب الثاني هو مسئوليته عن تزويد

الدولة الصهيونية الوليدة بالسلاح النووي. وأصفه بالرائع والتاريخي بسبب التفاصيل التي أفادني بها ذلك الشريط الوثائقي سالف الذكر ومنها مثلا: بعد تحرير فرنسا من الاحتلال النازي طرح ديغول مشروع دستور جديد ومعدل على الشعب الفرنسي وكانت نتيجة الاستفتاء أن أُقرت التعديلات بنسبة تقارب ٨٠% وهكذا تم الانتقال في التاريخ الفرنسي من الجمهورية الرابعة إلى الخامسة! هذا الخبر عن فوز ديغول بهذه النسبة سيجعل الحكام المستبدين الفائزين بديموقراطية التسعات الأربع يتلمظون ويهمسون (كلنا أولاد تسعة وتسعين!) ولكن ديغول وعلى فرادته سيفقد السلطة بذات الأسلوب. فبعد أن رفض الشعب الفرنسي مشروعه الخاص في أعقاب الثورة الطلابية سنة ١٩٦٨ خضع الزعيم لحكم الشعب واستقال من رئاسة الدولة وثم مضى لقضاء بقية أيامه في الريف الفرنسي الخلاب ويموت على مهل وبساطة. ثمة فرق هائل بين الرئيس الناجح والزعيم الرؤياوي وكان ديغول كليهما بجدارة، فقد فهم مبكرا أن عصر الاستعمار قد انتهي فبادر إلى الانحناء لثوار الجزائر واعترف بصين ماو سيتونغ ، وفهم طبيعة العدوان الصهيوني العنصري على العرب سنة ١٩٦٨ فبادر إلى قطع السلاح والدعم السياسي المطلق عن إسرائيل، وفهم النزوع الإمبريالي للولايات المتحدة فبادر إلى الانسحاب من الحلف الأطلسي سنة ١٩٦٦، وفهم أن ألمانيا هي قدر فرنسا التاريخي والجغرافي فتناسى مرارة هزيمة فرنسا واحتلالها من قبل النازيين الألمان الذين أقاموا دولة ألمانية في شمال فرنسا عاصمتها باريس وتركوا الجنوب

للماريشال بيتان يحكمه ولا يحكمه، وبعد التحرير ذهب ديغول إلى برلين المحررة وهتف باللغة الألمانية: تحيا برلين. تحيا العلاقات الألمانية الفرنسية!

أحيانا يضفي الزعيم التاريخي شيئا من مهابته وروح المبادهة الخلاقة لديه حتى على المحيطين به من الرجال والنساء وهذا أمر نجد دليلا عليه في مواقف وتصرفات "مالرو" ذاته يوم كان وزيرا للثقافة في جمهورية ديغول. روى عنه أحد الزملاء الصحافيين قبل أيام الحكاية التالية في عموده الأسبوعي: حدث وأن وصلت مجموعة من التحف والآثار النادرة من سورية في زيارة مشاركة إلى معرض فرنسي خاص بالآثار وكان من بين تلك المجموعة من الآثار تمثال بالحجم الطبيعي للملكة التدمرية "زنوبيا" قائدة أول نزوع استقلالي للعرب في التاريخ ضد الإمبراطورية الرومانية بقيادة أورليان. وحين علم وزير الثقافة أندريه مارلو بذلك أمر بأن يُستقبل تمثال زنوبيا التي ثارت على سلفه الروماني أورليان من أجل حرية العرب واستقلال "تدمر" استقبالاً رسمياً لائقاً، وأن تطلق المدفعية إحدى وعشرين إطلاقة تحية!! وهذا ما حدث. ثمة سؤال قد يخطر على البال هنا ويقول: ترى ألا يضفي الطاغية المستبد والمصاب بداء العظمة شيئا من تفاهته حتى على المحيطين به من الجلاوزة والمداحين الذين يقضون أعمارهم في تعليق وتلميع الآلاف من صور وأصنام سيدهم فيما هم يلعنون الساعة التي ولد فيها في سرائرهم؟ وسؤال أخير: ترى ألا يشعر المواطن الفلسطيني الذي أمر الرئيس الجنرال شارون بهدم بيته بالحاجة اليومية إلى الدعاء: اللهم ارزقنا عدوا رائعا كديغول وخذ إليك هذا السطل التافه شارون!

٦٠- الأحمق في النثر العربي:

كتب ابن الجوزي البغدادي : إذا كان الرأس صغيراً رديء الشكل دلّ على رداءة هيئة الدماغ. ومن طالت عنقه ورقت فهو صياح أحمق جبان. أما ذو العينين الجاحظتين فهو وقح مهذار وإن كانت العين ذاهبة في طول البدن فصاحبها لص مكار والعين الزرقاء التي في زرقتها صفرة كأنها الزعفران يدل على رداءة الأخلاق، وحسن الصوت دليل على الحمق. ويعرف الأحمق بمشيته وتردده. وقال أبو الدرداء: ثلاث خصال من علامات الجاهل العجب "الغرور" وكثرة المنطق "الجدل" فيما لا يعنيه وأن يجد " يحقد" على الناس فيما يأتي مثله. وقال عمر بن عبد العزيز: ما عدمت من الأحمق فلم تعدم حلتين، سرعة الجواب وكثرة الالتفاتات.

٦١- الأحمق شعرا :

وقال شاعر في الأحمق:

اتقِ الأحمـــق أن تصحبه	إنما الأحمق كالثوب الخلق
كلما رقعـــت منه جانبا	خرقته الريح وهنا فانخرق
كحمار السوق إن أقضمته[٦]	رمح الناس وإن جاع نهق
وإذا عاتبته كي يرعوي	أفسد المجلس منه بالخرق.

---

٦ ــ أقضمته = أطعمته

٦٢- بنو غرقان :

اختصمت قبيلة طفاوة مع بني راسب في رجل ادعى كل فريق منهم أنه في عرافتهم ومن قبيلتهم فاحتكموا إلى هنبقة (أحمق بغدادي ظريف) فقال لهم: ألقوه في نهر دجلة فإن طفا فهو من طفاوه وإن رسب في القاع فهو من بني راسب.

٦٣- ذكي بعلم المساحة :

راود إعرابي امرأة على نفسها فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة تذكر يوم القيامة وعذاب جهنم فاستعصم واستعاذ بالله من الشيطان وقام عنها وهو يقول:

- والله لن استبدل جنة عرضها السماوات والأرض بما مقداره فتر من اللحم بين ساقي امرأة .

١٧- الصهيل المعاكس.

للبيئة الاجتماعية والظرف التاريخي المعين دورهما البالغ الأثر في الظواهر والإنجازات والممارسات في جميع الميادين وخصوصا تلك الموجهة إلى ملايين الناس كوسائل الإعلام الحديثة. ولفهم هذه الخلاصة يمكن التذكير بصعود فنان أو شاعر يتخذ من جسد المرأة الملفوف بالأحاسيس الغرائزية المشبوبة موضوعاً وحيداً لفنه أو شعره وبشكل فضائحي ومثير في مجتمع محافظ راكد تسوده العقلية الخرافية ويعاني شبابه من الحرمان

والكبت الجنسي. ففي هذه الحالة تمنح البيئة الاجتماعية والظرف التاريخي الكثير من مواصفاهما السلبية للمنجز "الإبداعي" الذي يقدمه "المبدع"، لا بل الهما يشاركان في إعادة "خلق" وبناء عقلية ومزاج ذلك المبدع نفسه .بما يجعل منه مجرد مهرج مثير للازدراء و"تاجر شنطة" بضاعته القصائد والابتسامات الملونة. ومن الأمثلة التي تؤيد هذه الفرضية يمكن التذكير .بمسيرة برنامج حواري في إحدى الفضائيات العربية اكتسب شهرة واسعة لأسباب عديدة. من أول تلك الأسباب جرأة البرنامج في مناقشة محاور وقضايا تثير حرجاً بالغاً للأنظمة السائدة أو لمجموعة العادات والأعراف السلبية الراسخة. وقد زاد من تأثير هذا السبب مناخ الكتمان ودكتاتورية الرأي الواحد والمستويات المذهلة التي بلغها القمع الرسمي للمختلف والمخالف والخلافي وتعطش الناس إلى المعرفة والمعلومة الصحيحة إضافة إلى الأسلوب المثير الذي يُقدم به ذلك البرنامج والقائم على منهجية الاستفزاز والتحريض والسخرية والمبالغة والتهويل علماً بأن جلّ تلك الممارسات والأساليب بات مرفوضاً وبدائياً ومعيباً في الإعلام الحديث المحترم ذاته وجمهوره والمفارق للإعلام الفضائحي المرتكز على اللون والصوت والحركة أما العقل الإنساني فسيكون في إجازة إجبارية.

من المحاور التي اشتغل عليها هذا البرنامج "بحمية"، وخصص لها حلقات عديدة، محور المعارضة العراقية والنظام الحاكم. ولكن الانشغال الرئيسي للبرنامج، انصب على تقديم ذلك المحور كحالة ميئوس منها تماما، وتلك المعارضة كجسم سياسي موحد المواصفات والشكل والمضمون، عملها وواجبها الرئيسي هو خيانة بلدها وشعبها والتصفيق للاعتداءات الأجنبية عليه. ليس معنى هذا الكلام نفي وجود بعض النكرات والساعين

إلى الشهرة والقابضين الذين يعلنون تأييدهم للعدوان العسكري وللحصار على بلادهم، غير أن هؤلاء الذين لم ولن تخلو منهم معارضة أو مقاومة أو جيش في كل الأزمنة وفي جميع البلدان لا يمثلون إلا أقلية ضئيلة مهما علا ضجيجها وفاحت روائحها غير الزكية. المدهش والمثير للغضب هو أن البرنامج المذكور جعل من البحث عن هذه النفايات والمستحثات السياسية مهمته الوحيدة، فهو لم يستضف طوال عمره شخصية من النوع المعاكس "الوطني " إلا مرة واحدة أو مرتين ومن باب رفع العتب ربما. وقد بلغ السيل الزبى ذات "حلقة" حين فضح مقدم البرنامج أحد ضيوفه حين تحرج هذا الأخير من تأييد العدوان العسكري على بلاده علنا بأن قال له (ولكنك أيدت الضربات العسكرية في حوارنا قبل أن ندخل إلى الإستوديو فلماذا غيرت رأيك الآن؟!) وفي حلقة أخرى أفلح مقدم البرنامج في تحويل "الحوار المتحضر" إلى حفلة فظيعة من الردح والصهيل والصهيل المعاكس تناولت حتى أعراض الناس والشرف الشخصي للمشاركين فقدم بذلك نموذجاً قميئاً لا علاقة له بالسياسة والمعارضة العراقية الوطنية بل بأشياء أخرى نربأ بأنفسنا عن مجرد ذكرها. وهكذا أثبت مقدم هذا البرنامج كفاءته الوحيدة في تقديم أعلى مستويات الزعيق والصهيل ولكنه لم ينجح في إخفاء غربته عن مجتمعاتنا العربية، وكدليل، هاكم هذا المثال: حاول هذا المذيع ذات مرة إفحام أحد ضيوفه من دعاة إحلال اللهجة اللبنانية محل اللغة العربية بالقول أن كلمة (سبّاط) التي قالها ذلك الانعزالي اللبناني لا يعرف معناها المواطن الجزائري أو التونسي أو المغربي، والصحيح الذي يجهله السيد المذيع هو العكس تماما، إذ لا يعرف المواطن البسيط في المغرب العربي كلمة "حذاء" في لهجته العامية بل

كلمة "سباط "الشامية نفسها! وقس معارف صاحبنا السياسية والعلمية على مقاس" سبّاط"!

٦٤ - ابن الحرام :

غضب هارون الرشيد يوما على ابنه المأمون فشتمه بعبارة "يا بن الزانية" فرد عليه المأمون بنص الآية القرآنية التي تقول:

والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك!

٦٥- طبقيات عباسية :

سمع صبي فقير امرأة تندب عزيزاً لها في جنازة فتقول: ها هم يذهبون بك إلى بيت "قبر" ليس له غطاء ولا وطاء "فراش" و لا عشاء ولا غداء ولا سراج. فقال الصبي لأبيه: أبي، لماذا يذهبون بالميت إلى بيتنا؟

١٨- شهادات تاريخية

من الأمثال الشعبية العراقية المعبرة والمعادية للكذب والافتراء واحد يقول ما معناه (اجلس بشكل معوج ولكن تكلم بشكل مستقيم.) يقال هذا المثل للشخص الكذوب أو المبالِغ الذي يقول كلاما لا يُعقل ولا يمكن تصديقه. تذكرت هذا المثل وأنا أشاهد برنامجا تلفزيونيا متوازناً وموضوعياً بثته قناة "أبو ظبي" الفضائية وكان مخصصاً لشخصية مؤسس

الجمهورية العراقية وقائد ثورة ١٤ من تموز/ جويلية ١٩٥٨ عبد الكريم قاسم.

وقد استضاف البرنامج عددا من الشخصيات السياسية والعامة التي شهدت سنوات الربيع الجمهوري العراقي والذي انتهى بمذبحة رهيبة قام بها الانقلابيون القوميون بقيادة البعثيين ذهب ضحيتها الآلاف من أبناء العراق وفي مقدمتهم مؤسس الجمهورية نفسه، الذي قتل وهو صائم رميا بالرصاص، بعد محاكمة صورية. لقد قدم المشاركون في البرنامج صورة طيبة للاعتدال والإنصاف العراقيين اللذين عانيا طويلا من تخرصات وتطرف الجهلة والموتورين والساعين إلى الشهرة بأي ثمن. وحتى السادة الذين عرفوا بآرائهم السياسية المعادية لقاسم ونظامه الجمهوري بل وحتى بعض المسؤولين السابقين في حزب الانقلاب التزموا بأدب الحوار وطرحوا آراءهم وحججهم بكثير من الرصانة ودون تجريح مع وجود استثناءات قليلة لا تؤثر كثيرا على جوهر هذا التقييم ومنها مثلا وصف ملايين العراقيين المؤيدين للثورة بالرعاع من قبل اثنين من المشاركين الملكيين ذوي الميول المعروفة. وقد غاب أي صوت يمثل النظام الحاكم، والذي يتحمل عدد من رموزه مسؤولية النهاية المأساوية لقاسم ورفاقه، إذ مازال هؤلاء الحكام يعيشون في كهوفهم الانقلابية حتى يومنا هذا، ويعتبرون عبد الكريم قاسم "عدوا للشعب وشعوبيا ودكتاتوريا" وهو الذي لم يسبقه حاكم بعد الخليفة الرابع وإمام العراقيين بامتياز "علي بن أبي طالب" إلى الدخول عميقاً في قلب ووجدان الناس وبخاصة البسطاء والفقراء منهم. لقد حاول بعض حكام العراق احتلال قلوب العراقيين عنوة وبالطريقة التي احتلت بها دباباته القصر الجمهوري لكنه

فشل فشلاً ذريعاً، لأنها قلوب فيها الكثير من طِباع البعير الذي لا يحب إلا ما يحب ولا يكره إلا ما يكره! من الطبيعي إننا لا نؤيد "تصنيم" قاسم أو النظر إليه كملاك ناصع الجناحين، ولكننا نقترح أن يُنظر إليه كما هو في حقيقته وواقعه: زعيم تاريخي من غرار أخلاقي فريد له حسناته وله سيئاته، ورجل زاهد وجرئ جادت به أرض الرافدين فعاش العراقيون أيامه المعدودات المضطربات مواطنين أحرارا ومتساوين، ولاؤهم بدأ يمد جذوره إلى الوطن وليس إلى الطائفة الدينية، إلى الإنسان وليس إلى الجسر المعلق "العظيم"!

من الشهادات التي قدمت في البرنامج المذكور، والتي لا علاقة لها بالكلام "المستقيم" شهادتان. الأولى، قدمها سياسي عراقي كان من كوادر حزب البعث، ثم انشق على حزبه فيما بعد واتخذ موقفاً أكثر موضوعية من التجربة القاسمية ولكنه، ورغم موضوعيته التحليلية وإنصافه العراقي الأصيل، زعم أن قاسم كان يؤيد قتل الملك الشاب فيصل الثاني، وإنه سمع بذلك منه حين كان طفلاً صغيراً يتردد إلى داره. ونميل إلى رفض هذه الشهادة لعدة أسباب منها: أن قاسم جعل شعاره في تلك الفترة المضطربة (الرحمة فوق العدل) وطبق ذلك عملياً حين تنازل عن حقه الجنائي بعد محاولة اغتياله التي قام بها البعثيون. والثاني هو أن الشاهد لم يكن صادقاً حين قال إنه كان طفلا صغيرا آنذاك. فبحساب أعوام عمره اليوم وإنقاص ما مرَّ منها، سنجد أن عمره قد تجاوز العشرين "ربيعا" آنذاك ولم يكن طفلاً صغيراً يسرح ويمرح! الشهادة الثانية قدمها البرنامج، ومفادها أن قاسم كان دكتاتورا ذاتيا يحب نفسه ويعتقد أنه مبعوث العناية الإلهية إلى درجة أنه أمر بأن يكون عدد السنابل في شعار

الجمهورية العراقية بعدد الحروف التي تؤلف اسمه أي ثلاث عشرة سنبلة مع إنه نُصِحَ بأن هذا الرقم مشؤوم. والسؤال هو: إذا كان قاسم دكتاتوراً وذاتياً ومصاباً بداء العظمة إلى هذا الحد، فلماذا لم يمنح نفسه وظيفة ولقب رئيس الجمهورية أو يبني لنفسه قصرا بل اكتفى بصفة رئيس الوزراء وسرير الميدان العسكري و"سفرطاس" الطعام الفقير "الحلال"؟ لك المجد يا قاسم فمازلت تقاتل حتى وأنت في قبرك "المجهول" فكنت فعلا قاسم العراقي وليس كما نعتوك (قاسم العراق[7])!

٦٦- جبناء الحكومة :

قال المنصور لأحد مقاتلي الخوارج وقد أُتِيَ به أسيرا: أخبرني يا أسير عن أصحابي وجنودي من كان أشدهم إقداما في مبارزتكم؟ فقال له الأسير الخارجي: ما أعرف وجوه أصحابك مقبلين وإنما أعرف أقفاءهم مدبرين هاربين فمرهم أن يدبروا لأعرفك بأشدهم إدبارا وأسرعهم هربا.

٦٧- امرأة أم فرس؟

قال رجل لأشعب: إني تزوجت بامرأة فوجدتها عرجاء فهل لي أن أردها على أهلها وأطلقها؟

---

٧ ــ قاسم العراق، هو اللقب الذي أطلقه الإعلام في مصر الناصرية ، على عبد الكريم قاسم أيام العداء غير المبرر إطلاقا بين النظامين الوطنيين في العراق ومصر عهد ذاك .

فقال له أشعب : إن كنت تريد أن تسابق بها فوجدتها عرجاء فلك أن تردها!!

٦٨– فصاحة نبطية :

دخل إعرابي حماماً فضرط فسمعه رجل نبطي فقال – النبطي – صبهان الله!

فقال له الإعرابي: صه يا بن اللخناء ضرطتي أفصح من تسبيحك!

٦٩ – وشاية في المسجد :

كان الظريف مُزَبــّد نائما ذات مرة في المسجد فدخل رجل فصلى ثم قال: يا ربنا وإلهنا، أنا أصلي وهذا الرجل نائم. فهمس مزبد بالرجل: يا بارد، سل ربك حاجتك ولا تحرشه علينا.

١٩– وداعا مؤنس !

هكذا، وكما يرحل النور الباهر في لب سحابة معتمة، والضباب الشفيف في قلب غابة العرب الموحشة، رحل مؤنس الرزاز. قال ما عنده، بعض ما عنده، فآنس قوما وأغاظ آخرين، لكنه رحل وخلف في أفواهنا تلك اللوعة المغمسة بأسباب المقاومة والبقاء والفرح بالجميل القادم والأسى على ما فات.

أعدتُ قراءة آخر عمود له، زاملني فيه على الصفحة الأخيرة من "الزمان" عدد يوم الثلاثاء ٥/٢/٢٠٠٢. فوجدته يودعني شخصياً، يودعنا جميعا، ويضع النقاط على الحروف في قفزة غنية باتجاه ترسيخ الموت كمشمول صغير من مشمولات الحياة اللانهائية. يخطئ من يعتقد أن الموت والحياة يقتسمان الوجود مناصفة، الحياة،كما يقول الشاعر غريغوري كورسو (الحياة قرن من السنوات والموت لحظة..) غير أن المشكلة التي لا حل لها، وهنا مكمن جمالها وغموضها، هي أن لا شيء يأتي بعد تلك اللحظة.. إنها الخاتمة والمفازة التي تطل على العدم فلا يبقى سوى مذاق الأسئلة الحية التي قلناها.. كان مؤنس يرمي بأسئلته الحارقة في وجوهنا وهو يعلم أننا لا نريد معرفة الجواب، ولكنه يستمر في طرح التساؤلات والأسئلة. هاكم مثالا من مقالته الأخيرة: لماذا يدفع الجزائريون اليوم ثمن إخفاق دولتهم المستقلة في إنجاز المشروع التحديثي؟ وهاكم سؤالا آخر أكثر حرقة: ألا نستطيع أن نعتبر دماء المثقفين من الشهداء العرب ثمنا نستحق مقابله الديموقراطية؟

أتخيل الآن واحداً من طغاتنا وقد سمع السؤال الأخير فراح يقهقه بصخب ويصفع فخذيه السمينين لأنه يعلم أن دماء المثقفين العرب قاطبة لن تجعله يتزحزح عن عرشه الملطخ بالعار مليمترا واحدا. نعم! مؤنس وأمثاله من الصادقين وذوو الوجدان النشط منحازون إلى الحياة بقوة.. لماذا ننتبه دوماً بعد الموت لقوة التفاصيل؟ ثمن الديموقراطية..؟ أنها معركة العمر.. معركة الوجود.. ولكن مع من يا مؤنس؟ ليس في مكنتنا أن نختار خصومنا وأعدائنا ولهذا أسألك: مع من ينبغي أن نخوض معركة

الحياة والحرية والعدالة؟ أ مع رجال العصابات الذين سرقوا الحلم والوطن والقضية ولمن النفط وبهرجة البطولة الزائفة؟ أم مع أحفاد "يهوذا" الذين شطروا قلب الأمة نصفين: نصف مع هزائم الماضي والنصف الآخر يستعد لهزائم المستقبل.. وأنت تعرف البقية..

قلتَ في عنوان كلمتك الأخيرة أن "العرب يليقون بالديموقراطية" وأعرف أن هذا ليس عنوانا لعمود صحفي، أنه شعار جريء لهجوم فكري وسياسي أكبر من كل الصحف الصفراء والحمراء والخضراء والبيضاء. إنه خلاصة عادلة لملف الكارثة الذي يستغرق حياة الأمة طولا وعرضا.. وأنت تعرف أن السلسلة لم تبدأ مع حسين مروة الذي عدت إليه في آخر ما كتبت، ولن تنتهي معك، ولكن وفي لغة التفاصيل فقاتلك قلبك.

ذبحة قلبية ثم برد وسلام.
والقلب حين يقتل حامله يغري الشاعر بالقول :
نعْمَ القاتل أنت أيها القلب!
فِي زمن دبق مفعم بالمرارة والخيبة والهوان.
زمن راحت الخنازير البرية تنهش فيه ضمائر البشر ويجلل الرغام هامات الملائكة.. إنه زماننا ولا منجاة إلا بالاشتباك الشجاع مع سلاطينه المترهلين. لا أشك لحظة بأنك تعرف الفرق بين الصحفي المتحول إلى قواد وبين القواد المتحول إلى الصحفي وأزعم أنك تعرف أن لكليهما قلب أيضا ولكنه عضلة غبية من اللحم الأحمر وحسب.
غير أن الفرق سيظل كثيفاً وباهراً بين من يقتله قلبه حباً

ومن يقتل قلبه لقاء حفنة من الفضة..

وداعا مؤنس الرزاز..كلماتك وأسئلتك ستبقى حية إلى الأبد (وأما الزبد فيذهب جفاء).

٧٠- دعاء الإعرابية الحسناء

قال عقيل بن بلال سمعتني إعرابية حسناء أنشد بيتا يقول:

وكم ليلة قد بتها غير آثم

بمهضومة الكشحين ريانة القُلْبِ[٨]

فقالت الإعرابية :

هلا أثمت أخزاك الله!!

٧١- برجوازي عباسي :

شهد رجل غني عند أحد القضاة على رجل آخر فقال المشهود عليه للقاضي:

أيها القاضي لا تقبل شهادة هذا الرجل فعنده عشرون ألف دينار و لم يحج إلى بيت الله الحرام. فقال الشاهد بلى لقد حججت. فقال له

---

٨ ـــ مهضومة الكشحين = رقيقة الخاصرتين .

(القلب بضم القاف وتسكين اللام = الشفتين.)

القاضي: صف لنا بئر زمزم إن كنت صادقا. فقال الشاهد: لقد حججت قبل أن يحفروها!!

٧٢- جنازة ست :

ماتت قريبة لأبي منصور بن الفرج وكان رئيساً لحيه فاجتمع الناس على اختلاف طبقاتهم لقضاء حقه. وخرجت الجنازة وجعل النساء يلطمن ويقلن: واستاه! واستاه! على عادة أهل بغداد آنذاك فأنكر الزوج ذلك وصاح بالنساء: كفى! ما هذا الكلام؟ لا ست الله!

٢٠- الأمي ليس الجاهل!

الأمي هو من لا يحسن القراءة والكتابة فلا يفك الخط أو يستنطق المكتوب ولكنه قد يكون حكيماً مرموقاً أو نبياً مرسلا. أما الجاهل فكلمة لها معنيان: الأول: عادم العلم بالشيء وبحقيقته. وعلى هذا فقد تصادف جاهلا يحمل شهادة دكتوراه في الفيزياء أو تاريخ الفن ولكنه يعتبر الغزو البريطاني لبلاده نعمة ما مثلها نعمة، والحديث عن الطغيان السياسي مجرد تحزب مقيت للديناصورات! والمعنى الثاني لكلمة الجاهل هو من أفقده الغضب وعيه فصار جاهلا لا يتورع عن شيء، تقوده قوته الغضبية، والعبارة الأخيرة من مصطلحات العلماء العرب المسلمين القدماء، إلى أفعال شنيعة ما كان ليفكر بالقيام بها لو كان في حال طبيعية. وهذا هو المعنى الذي قصد به العربُ عصرَ ما قبل الإسلام فسموه العصر الجاهلي ليس لنقص العلم عندهم بل لطغيان العصبية والقوة الغضبية على السلوك

العام في مجتمع قائم على اقتصاد الحرب الدائمة والغزو والغزو المضاد، ويمكن لنا في ضوء هذا المعنى أن نقرأ بيت الشعر المنسوب لزهير بن أبي سُلمى والذي يقول فيه محذرا :

ألا لا يجهلنْ أحدُ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا!

بمعنى أن عرب ما قبل الإسلام، لم يكونوا عادمي العلم والمعرفة والمستوى المدني المناسب للأساس المادي لحياتهم البسيطة عهد ذاك. الدليل على ذلك نجده في الكثير من إنجازاتهم المعمارية والهندسية في تشييد السدود والمشاريع الإروائية وتشييد المدن والقلاع وصناعة الأسلحة والعطور والأدوية ومثال تلك الإنجازات يمثله سد مأرب ومدائن صالح ومن ذلك العصر "الجاهلي" كان طبيب العيون وكانوا يسمونه القداح (من قدح البصر قدحا) وهو الحارث بن حلزة إن لم تخذلني الذاكرة الذي استدعي لمعالجة أحد ملوك الفرس الساسانيين، هذا إذا قصرنا كلامنا على عرب الجزيرة فقط ولم نخض في شؤون عرب الشمال "الساميين" وحضاراتهم الشامخة والمرموقة في العراق والشام..

غير أن كلمة أُمي غدت رديفا ثقيل الظل لكلمة الجاهل وقد تعثر بها الفقير إلى الله فقط "كاتب هذه السطور" ذات مقالة فاستعملها نعتا للجهلة فعاتبه أصدقاء كانوا محقين تماما فاعتذر عما فعل. ومن مشاهد الجهل الثقافي المشهورة جعل الذات محور وجود الشخص يقيس الحقيقة من خلال اقتراب أو ابتعاد الآخرين منها، بل ثمة منهم من يجعل ذاته الوارمة ناموسا يحكم به ومن خلاله على ظواهر ثقافية وسياسية كبرى فيشطب على هذا الإنجاز أو ذاك المبدع لأن له – للمبدع - رأياً سلبياً به أو لأن لا رأي له به على الإطلاق. وسوف يجد الخائض في هذا

الموضوع حكمة عربية قديمة تكاد تكون علاجاً شافياً لجميع الأمراض النرجسية وتقول: رحم الله امرئ عرف قدر نفسه!

فالمرء حين يعرف قدر نفسه لا يضعها في مواضع تنحط بها أو ترتفع بها عما تستحق فعلا وواقعاً. ويمكن لنا إن شئنا التدقيق في تفاصيل الخارطتين الأدبية والسياسية أن نعثر على الكثير من نماذج الجهلة مع إنهم يحوزون الشهادات الجامعية المنمقة والألقاب العلمية ذات الرنين والطنين كما يمكن لمن شاء العثور على الكثير من الأميين المتمتعين برجاحة العقل والنظرة الثاقبة والحكماء الذين يسمعون نسغ التاريخ وهو يصعد في شجرة الحياة فيلخصون لك الحالة في كلمات معدودة هي الصواب بعينه..

ماذا؟ دفاع عن الأمية؟ ليكن الأمر هكذا إذا كان مثقفونا يشعلون الحرب الشعواء تلو الأخرى من أجل مهرجان بائس هنا، أو قصيدة بلهاء هناك، ولكنهم لا يهتمون مقدار أنملة بشعوب تذبح، وأنهار تجفف، وأوطان تعرض في أسواق النخاسة "الحديثة" علنا وعلى عينك يا تاجر..! يخرج طبعا من هذا الغرار الرديء المثقفون العضويون، بعبارة الإيطالي غرامشي فلا تنطبق عليهم الخلاصة التقييمية فهؤلاء أميون حكماء ولكنهم يقرؤون ويكتبون .. عليهم سلام الفقراء!

٧٣- يضربونه طلبا للثواب :

قال رجل مررت بقوم وقد اجتمعوا على رجل يضربونه ضربا مبرحا فقلت لواحد منهم يضربه بقسوة لماذا تضربون الرجل؟ فقال: والله لا

أدري ما حاله. ولكني رأيت الناس يضربونه فضربته معهم لوجه الله تعالى وطلبا للثواب.

٧٤- صلاة أبي نؤاس :

شوهد الشاعر أبو نؤاس يصلي الجماعة ذات يوم وكانت المرة الأولى في حياته كما يبدو فسأله أحدهم: ماذا تفعل يا أبا نؤاس؟

فأجابه: أردت أن يرتفع اليوم إلى السماء خبر طريف.

٧٥- شتائم الموتى :

قال رجل: وجدت على قبر مكتوبا (أنا ابن من كانت الريح طوع أمره يحبسها إذا شاء ويطلقها إذا شاء) ثم التفت إلى قبر مقابل فوجدته وقد كتب عليه (لا يغتر أحد بقوله فما كان أبوه إلا حدادا يحبس الريح في الكير ويتصرف به) فعجبت من ميتين يتسابان.

٧٦- الطعام حار :

قعد صبي مع قوم يأكلون فبكى، فقالوا له لماذا تبكي؟ قال: الطعام حار. فقالوا: فدعه حتى يبرد. فقال: أنتم لا تدعونه.

٢١- لهجات عربية

لم تقتصر عقلية المنع والتحريم الرسمية وأساليب التجريم والشيطنة على ميدان واحد من ميادين الحياة العربية المعاصرة، بل يمكن القول إنها تكاد تشمل جميع تلك الميادين وتستغرق حياة الإنسان العربي من المهد إلى اللحد أو كما تروي الطرفة الشعبية عن شخص اسمه جبر عاش ومات محروما متنقلا من سجن إلى آخر فحين بلغ أجله وأيقن أنه ميت بعد قليل طلب من أهله ألا يكتبوا على قبره إنه عاش من سنة كذا إلى كذا وإنما طلب منهم أن يكتبوا (هنا يرقد جبر: من "بطن" أمه إلى القبر!). ومن تلك الميادين التي طالتها عقلية المنع والتحريم اللهجات العامية العربية المعاصرة وقد بالغ القوميون الحاكمون في المنع حتى صارت كتابة بيت شعر باللهجة العامية الفلانية يداني في إثمه الهرب بطائرة عسكرية إلى إسرائيل! أما حين شعر هؤلاء القوميون الحاكمون أنفسهم بجدوى وفائدة اللهجة العامة للتعبئة والتحريض خلال حروبهم "الذكية جدا" فقد لجأوا إلى استعمالها وبالغوا في ذلك حتى كادوا "يترجمون" إليها النشيد الجمهوري.

ولهجاتنا العربية قريبة من بعضها البعض، ومن أصلها الفصيح عموما. ويمكن اختصارها إلى أربعة مجموعات رئيسية: مجموعة اللهجات الشامية التي تشمل لهجات أقطار الشام الأربعة ومجموعة اللهجات النيلية لمصر والسودان كما تشمل الناطقين بالعربية في أريتيريا والصومال والحبشة ومجموعة اللهجات المغربية بأقطارها المعروفة في اتحاد المغرب العربي الأكثر حيوية من المرحوم جبر، وأخيرا ورابعا مجموعة لهجات الجزيرة التي تشمل

العراق والجزيرة العربية. ومعلوم أن هذا التقسيم أولي الطابع وغير متماسك وراسخ فلهجة اليمن أقرب للهجة عرب أريتيريا مثلا منها إلى اللهجة العراقية، ولهجة مصر التي تختفي فيها أربعة حروف عربية رئيسية هي القاف والجيم والثاء والضاد والظاء فلا تنطق في العامية أو الفصحى أقرب إلى بعض اللهجات الشامية منها إلى السودانية أو الليبية حيث تنطق جميع الحروف العربية بوضوح.

وثمة من الانعزاليين القطريين من يعاند فلا يتكلم إلا العامية حتى إذا كان يحمل شهادة دكتوراه في النحو العربي وهذا الضرب من "الانعزال" شائع في لبنان خصوصا حيث بلغ العناد درجة مذهلة تقارب البذاءة حين راحت بعض وسائل الإعلام في هذا البلد تبث نشرات الأخبار باللهجة المحلية! فلنتصور هذا الأمر: فضائيات موجهة إلى أركن الدنيا الأربع وتبث بلهجة محلية لا يتكلمها أكثر من سكان حي واحد في مدينة القاهرة.

يقابل هذا العناد عناد آخر وإصرار من ذات الجذور على تكلم اللغة الفرنسية حتى ولو كان نسب المتحدث ينتهي إلى أبي الأسود الدؤلي واضع أسس النحو العربي. وهذا الضرب من "الابتذال" سائد في بعض جهات المغرب العرب. وبين الانعزال شرقا والابتذال غربا ضاع جمال اللهجات الشعبية وأصبحت موحشة وميدانا للعراك والتشنجات السياسية يقوم بها الهاربون من انتماءاتهم الحقيقية.

في اللهجات الشعبية كثيرا ما نضع أيدينا على خلاصات جميلة من العبقرية الشعبية التي تصوغ حكمتها باللهجة العامية فتأتي أحيانا مغمسة بالسخرية والذكاء وتارة باللوعة والأحزان. ومن بين كل اللهجات

العربية تميزت اللهجة التونسية بخفة دم نادرة ووضوح وقوة تعبير تضاهي العربية الفصحى. أما اللهجة الأكثر قربا، والتي تكاد تكون هي الفصحى ذاتها ، فهي لهجة الجزائر الوسطى والممتدة بين جنوب الشريط الساحلي وشمال الصحراء الكبرى، حتى أن بعض المنقرض من اللغة العربية لا يستعمل إلا هناك من قبيل الهمزة كأداة لنداء القريب، فلا وجود لهذه الأداة في أية لهجة عربية أخرى، بل إنها انقرضت حتى من الفصحى ولكنها مازالت حية تسعى في وديان وسهول المسيلة والأغواط وتيارت وباتنة. ومن طريف ما سمعت من اللهجة التونسية عبارة مختصرة إلى كلمة موسيقية لطيفة هي "هاكهوَه" ومعناها "هكذا هو الأمر" وتقال ردا على احتجاج أو تساؤل غاضب. وهناك عبارة أخرى تفيد الشتم الخفيف ففي جميع اللهجات العربية يشتم الشخص السيئ أحيانا بأن يقال له: أنت ابن حرام! إلا في تونس حيث تزاد عليها كلمة تجعلها أقرب إلى النكتة فيقول التوانسة لابن حرامهم: أنت ابن حرام مقطر!..ويقصدون أنه ابن حرام تماما أو ابن حرام مركز جدا!

٧٧- حلاوة البعير :

أضاع يزيد بن ثروان المعروف بهنبقة الأحمق بعيرا فجعل ينادي ويصيح:

من وجد بعيري فهو له!!

فقيل له: ولماذا تبحث عنه إذن؟؟

فقال هنبقة: فأين حلاوة الوجدان إذن؟

٧٨ – طالع على أمه :

لقي أشعب صديقاً لأبيه فقال له: ويحك يا أشعب لقد كان أبوك طويل اللحية أما أنت فأنط "أمرد" فعلى من خرجت؟ فأجابه أشعب: خرجت على أمي!

٧٩– جميل جمال :

كان لرجل ابن دميم وذهب أبوه ليخطب له امرأة فقال الابن له: سمعت إنها عوراء. فقال الأب: وددت لو إنها كانت عمياء لكي لا ترى دمامة وجهك.

٨٠– ما تعب من أبعدك :

كان أبو العيناء الضرير يوما على بابه فمر به رجل ثقيل الظل فسلم عليه فقال أبو العيناء يمشي معه فقال الرجل: لا تتعبك نفسك يا أبا عبد الله. فقال أبو العيناء: ما تعب من أبعدك عن داره.

٢٢ – برلمان من ورق

تسود نظرة سلبية وسطحية في الصحافة العربية إلى الركن الخاص ببريد القرّاء. فالبعض ممن يكاتبون الصحف وتنشر مساهماتهم في هذا

الركن يعتقدون بأن المحرر أهانهم وأنزلهم منزلة أدنى من تلك التي يستحقون حين نشر مساهماتهم هناك، بل قد يتمادى البعض منهم فيتصور أنه قد أُلقيَ به وبمساهمته إلى سلة المهملات عن سابق قصد وتصميم فيصرخ: إنها مؤامرة لإقصائي وتغييب اسمي، يسقط الاستعمار، تسقط الرجعية!

و لا حاجة للسؤال عن معنى كلمة "الرجعية" فقد أصبح من معانيها اليوم السمسرة والتخلي والخذلان والشطب والإلغاء والقشرية وشهادة الزور ومباركة الطغاة ونفخ الذات و.. يا ليتك لم تسأل! ويعتقد بعض آخر من "الكتاب هذه المرة" أن الرد على رسالة قارئ موجهة إليه قد تناقش ما كتبه عن الخذروف مثلا هو أمر فيه شيء من الابتذال والتنازل. وعلى النقيض من ذلك فإن من يتابع أمهات الصحف الأجنبية سيجد عجبا: فكبار رجال الدولة، وأعضاء الأسر المالكة، ووزراء ومسؤولين استراتيجيين نذكر منهم مثلا ولي العهد البريطاني ريتشارد والاستراتيجي الأمريكي الأشهر كيسنجر والرئيس الفرنسي شيراك، لا يترددون لحظة عن الكتابة إلى بريد القراء مبادرين أو معقبين أو مجيبين. وقد أثبتت دراسات علمية مؤسسة على مسوحات إحصائية أن هذا الركن مقروء جدا، وقد يفوق من حيث عدد القراء جميع الأبواب والأركان الثابتة في أية صحيفة.

إن الإقبال العفوي على الكتابة إلى هذا الركن يعكس صبوات ونوايا وخلجات إنسانية كثيرة يصب معظمها في الرغبة الحقيقية في التواصل مع الآخر، وفي تجريب ملكة التفكير النقدي والحوار التفاعلي بأسلوب

متحضر. إنه – إن شئنا الحذلقة – بذرة صغيرة لبرلمان من الحبر والورق يلجأ إليه أولئك الذين يعشقون الحرية يحترمون عقولهم وحبهم للتعبير عن آرائهم وخصوصا في مجتمعات كمجتمعاتنا المتخمة بالقمع والتصفيق القطيعي والتخلف الشامل والعقل المرقد بالخرافات وزيت الأساطير.

روى لي صديق كثير التواصل مع بريد القراء قال: (قرأت ذات يوم مقالة ظهرت في صحيفة عربية يحمّل كاتبها مسؤولية جميع ما يحدث لنا نحن العرب عموما والفلسطينيين خصوصا إلى الطقس والعوامل المناخية! أي والله للطقس وارتفاع شدة الحرارة التي تجعلنا – كما يتفلسف – عصبيٌ المزاج وعاطفيين في التعامل مع الأحداث.. الخ مسكين يا مناخ!! من بين كل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن بين كل نقاط ضعفنا و"ذكاء" زعمائنا وسرقة نفطنا وغازنا وفساد أحزابنا وجفاف أنهارنا تعلق المشنقة لسبب واحد وحيد هو المناخ؟ مسكين يا مناخ! ورغم أن درجة الحرارة كانت قاب قوسين أو أدنى من الصفر المئوي وكنت مقيما حينها في "صوفيا" عاصمة الصقالبة فقد تناولت ورقة وقلما وسطرت تعقيبا قصيرا سألت فيه صاحب المقالة المناخية: إذا كان ما تقول صحيحاً فلماذا استطعنا نحن العرب بناء أوسع وأعظم إمبراطورية متطورة من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا مع إن المناخ هو ذاته؟ وحين أعلمتني "العصفورة"، بأن الشخص الذي انتقدته في رسالتي هو الذراع العسكري، عفوا، الذراع الأيمن للسيد محرر بريد القراء في تلك الجريدة قررت إطعام ورقتي لأقرب سلة مهملات بعد أن اقتنعت بالمآل السيئ الذي ستؤول إليه رسالتي المشاكسة

وشرعت بكتابة قصيدة رثاء لها وللضمير الصحافي وللمناخ..!) سكت محدثي فسألته لماذا لم توجه هذا الرثاء إلى بريد القراء؟ فأجابني وهو يشعل سيكارة جديدة: وهل أنا ولي عهد بريطانيا، أم رئيس فرنسا؟؟

٨١- حي الله!

وجه عمر بن سلمة أخاه قتيبة ليشتري لأمه التي ماتت يومها كفنا فذهب قتيبة وحين جعل البائع يستنقي لها كفناً جيداً ويساومه على السعر قال له قتيبة:

لا تتعب نفسك وتنتخب وتساوم لقد كانت رحمها الله رديئة الملبس.

٨٢- دعاء شتوي :

عن الأصمعي قال رأيت أعرابياً يصلي في الشتاء والبرد قارص وهو قاعد ويقول:

إليك اعتذاري عن صلاتي قاعدا على غير طهر مومئا نحو قبلتي
فما لي ببرد الماء يارب طاقة ورجلاي لا تقوى على طي ركبتي
ولكنني أقضيه يا رب جاهدا وأقضيكه إن عشت في وجه صيفتي
وإن أنا لم أفعل فأنت محكم إلهي في صفعي وتنتيف لحيتي..

٢٢- شيش بيش :

قال الجاحظ دخلت مدينة واسط يوم الجمعة فبكرت صباحا إلى الجامع، فقعدت، فرأيت رجلا عظيم اللحية وقورا وإذا هو يقول ويكرر: إلزم السنة تدخل الجنة!

فسأله رجل: وما السنة يا مولانا؟

فقال الرجل الملتحي :

السنة هي حب أبي بكر بن عفان وعثمان الفاروق وعمر الصديق وعلي بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي شيبان.

فسأله رجل آخر: ومن هو معاوية بن أبي شيبان؟

فقال الشيخ: هو رجل صالح من حملة العرش. والله اعلم!

٢٣- ربع وطن !

يتهكم الروائي الجزائري واسيني الأعرج في روايته "ذاكرة الماء" وبحزن شفيف على الحلول السياسية المطروحة على (الفلسطينيين الذين سُرِقَ منهم وطنهم وحقهم في الحياة..) فيضيف قائلا: (لقد جاؤوهم بربع وطن..) وبين هذه الشهادة التي يسجلها مثقف ومبدع عربي وبين تحفظ أعلنه قبل أيام قليلة المناضل العتيد حيدر عبد الشافي قال فيه بأن ما هو معروض الآن على الفلسطينيين أقل من ربع فلسطين..) بين تلك الشهادة وهذا التحفظ تبرز المأساة الفلسطينية عنيفة قاسية وخطيرة.

في روايته سالفة الذكر والتي يروي فيها يومياته المريرة، حين كان يعيش سرا في وطنه خلال التسعينات بعد أن هدده السلفيون بالقتل، يبحث واسيني الأعرج عن مغزى وعمق العلاقة بين الوطن كمعطى جغرافي سياسي يهيمن عليه ويصفق له بحماس لصوص الثورات في الحكومات "الوطنية" وهم يمتصون دمه بنهم وبين الوطن كبعد ذاتي وروحي وجمالي للإنسان الفرد، ثم يعمق ذلك البحث مزيدا من التعميق حين يضعه روائيا في شروط حياتية استثنائية هي شروط وظروف الحرب الأهلية أو الانفلات الدموي المرعب الذي شهدته الجزائر منذ عدة أعوام. الرواية إذن هي شهادة حزينة ومبهضة لا يخلو جبينها من خدوش أحدثتها أظافر الصراع الأدلوجي والسياسي بضغط من الفضاعات التي بادرت إليها أطراف سياسية ضد الدولة والمجتمع بعد أن سرق منها – أو هكذا تصورت قياداتها – نصرها الانتخابي الثمين. المؤسف والمثير للذعر أن الذين دفعوا الثمن من دماء رقابهم هم المبدعون والمفكرون والفنانون من أمثال المخرج المسرحي عبد القادر علولة والشاعر والفنان التشكيلي الذبيح يوسف سبتي وهو صديق واسيني الحميم والمغني الشاب حسني وعالم الذرة الذي نسيت اسمه والقائد النقابي التاريخي وغيرهم كثيرون. لقد كانت حربا شنها الجنون السياسي الممزوج بالسعار والهياج الطائفي السلفي ضد بذور النور والمعرفة القليلة التي أنجبها المجتمع الجزائري الذي عانى طويلا من الظلام الاستعماري الفرنسي ولقد أنجبها بالضد غالبا من دولة الحزب الواحد الفاسدة حتى النخاع. إنها بالأحرى الجزء الثاني من الحرب الشاملة ضد مجتمع حيوي وبلد ثري إذا ما اعتبرنا أن الجزء الأول

منها هو ذلك الذي قامت به الدولة الفاسدة ضد المجتمع فجاءت بعد ذلك القوى السلفية لتكمل الجزء الثاني من حرب الانتحار ضد المجتمع والدولة معا.

واضح جدا الجهد الاستثنائي الذي بذلة الكاتب بهدف تقديم رواية صادقة أو مقتربة من الصدق باستمرار عن تلك المأساة المتواصلة بأقل قدر من الهجاء السياسي والفكري للطرف المقابل المتمثل باليمين الطائفي الديني وتحميلها بأكبر قدر ممكن من الوعي الحزين والحزن الواعي على وطن هو الأجمل بين الأوطان وبحر هو الأكثر إخلاصا ووفاء حتى من البشر. وهكذا ينجح واسيني في إشهار سؤال طالما تحاشاه الجميع وأشاحوا بوجوههم عنه، يقول: هل يمكن لربع وطن أن يكون وطنا كاملا في عيون أهله المتذابحين على أرضه؟ وهل يمكن للوطن أن يساوي أو يعني ربعه فقط في عيون أهله المقاومين سيوف الغزاة الأجانب؟

بين جزائر الأمس وفلسطين اليوم وبين فلسطين الأمس وجزائر اليوم سيكون مذاق الجواب حريفا في أفواه الأطفال والفنانين لأنهم أحياء.. هذا ما يعنيه واسيني الأعرج بكلمات أخرى في روايته حين كتب: (عندما نتعدى عتبة الطفولة نموت!)

٨٤- كلهم سواء

كَلمَ رجلٌ رجلا بشيء يغضبه فقال الغاضب :
أتقول لي هذا الكلام وأنا رجل من الأنصار؟

فرد عليه الآخر:
النصارى واليهود عندنا في الحق سواء!

٨٥- بالنحوي :

وقف نحوي على زجّاج (صانع تحف زجاجية) في بغداد فقال له:
بكم هاتان القنينتان اللتان فيهما نكتتان خضراوان؟
فرد عليه الزجاج قائلا :
مدهامتان فبأي آلاء ربكما تصدقان!!

٨٦- الحمار الراكب :

زحم رجل على حمار أبي العيناء وهو على الجسر فضرب أبو العيناء على أذن الحمار وقال له: يا بني آدم قل للحمار الذي فوقك أن يفتح عينيه ويقول الطريق الطريق

٢٤- الحوار الكردي الفلسطيني.

بدأت قطرات المطر الكبيرة الواعدة تتساقط، ومادت أغصان الأشجار في غابة كثيفة تسمى الشرق الأوسط بتأثير من الريح التي هبت باردة وقوية. جلس صديقي الكردي يداري غضبه من صديقنا الفلسطيني. لقد قال هذا الأخير في تصريح صحافي أن حالة فلسطين هي آخر حالات تصفية الاستعمار في العالم. تحفز الكردي للعتاب،

ودون أن ينظر إلى وجه الفلسطيني مباشرة وكأنه يخاطب شجرة عمياء قال:

ــ معنى كلامك يا صديقي أنك لا تعترف بأننا – نحن الكرد – أمة مضطهَدة ومستعمرَة ومحتلة أرضها من قبل أربعة دول، أليس كذلك؟ فقال الفلسطيني: كلا على الإطلاق، أنا لم أقصد ذلك فقضيتكم معروفة وانتم أمة كبيرة ومظلومة مثلنا ولكن شدة معاناة شعبنا ومأساته المريرة ربما جعلتني أتسرع في اعتبار حالتنا آخر حالات تصفية الاستعمار. لم يهدأ الكردي فأردف: ولكن معاناتنا ليست أقل من معاناتكم، على الأقل أنتم عرب ولديكم اثنتين وعشرين دولة عربية باثنين وعشرين رئيس أو ملك أو أمير عربي أما نحن فلا شيء عندنا من هذا القبيل. فقال الفلسطيني: ولكن تلك الدول الاثنتين وعشرين لأصحابها وليست لنا، وإذا حدث وأشفق علينا أبناء عمومتنا المنفوطون ورحبوا بنا فسنذهب إلى دولهم كعمال وممرضات ومهندسين وما إلى ذلك. بعضنا يصل سليما وبعض آخر يموت في صهاريج التهريب على مشارف الكويت. ألم تقرأ رواية غسان كنفاني "رجال في الشمس"؟ فقال الكردي: نعم قرأتها ولكنني ما زلت مصرا على أن مأساتنا نحن الكرد أشد من مأساتكم أنتم الفلسطينيين. ازداد تساقط المطر شدةً وعنفاً فقال الفلسطيني: أنت تنسى يا صديقي إننا لم نخضع لاستعمار تقليدي كما هي الحال في تجارب الشعوب الأخرى، فعدونا لم يحتل أرضنا فحسب بل طردنا منها بالملايين وحلٍّ محلنا ومازالت تلك الملايين تعيش في مخيمات اللجوء. أما انتم الأكراد فما زلتم على الأقل تعيشون على أرض وطنكم المقَسَّم. نظر الكردي إلى الأرض المساطة بخيوط المطر العنيف ثم قال: أنتم –

الفلسطينيين- على أية حال لم تعانوا من الأسلحة الكيمياوية مثلنا. رد الفلسطيني بسرعة: ولكننا عانينا من القنابل الفراغية والانشطارية وأف ستة عشر ودبابات المركافاه وصبرا وشاتيلا ودير ياسين وكفر قاسم وقبية فقاطعه الكردي قائلا: لو بدأت أنا بذكر أسماء المجازر التي ارتكبت بحق الكرد لما انتهيتُ من القائمة حتى صباح الغد. لك أن تعلم يا صديقي أن في كل مدينة أو قرية أو شجرة زيتون كردية تحمل اسم مجزرة مرعبة. إنني لا أحسدكم أيها الأخ ولكنني أتساءل فقط لماذا يعترف الغرب والعالم كله بحقكم - أنتم الفلسطينيين - في تقرير المصير وإقامة دولتكم المستقلة في حين يعتبر الكردي المطالب بنفس الحقوق شخصا إرهابيا وانفصاليا ومخربا وينبغي إطلاق الرصاص عليه؟ وضع الفلسطيني يده على بندقيته الباردة وقال: سؤالك حقيقي ومشروع ولكن عليك أن توجهه إلى الغرب وليس إلى فلسطيني مظلوم مثلك لم ينل حقه حتى الآن ومازالت دماؤه تنــزف.. بدأت السحب بالانقشاع وهاهو خيط من النور الذهبي يمسح الوجود، في تلك اللحظة أزت رصاصة وخرقت الهواء الذي يفصل بين الرجلين ثم تبعتها زخة من الرصاص. أسرع الكردي والفلسطيني إلى خندقهما الموحل وشرعا بإطلاق النار باتجاه الغرب حيث يقع الخندق المقابل لهما والذي أنطلق منه الرصاص الديموقراطي.

٨٧ــــ نحوي آخر :

وقف أبو سعيد النحوي على قصاب "جزار" وقد أخرج بطنين سمينين فعلقهما، فقال له:

بكم البطنان؟

فأجابه القصاب :

- بمصفاعان يا مضراطان!

٨٩- من دير عاقول :

قال أبو العباس: سألت رجلا طويل اللحية: أيش اليوم من أيام الأسبوع؟

فقال الرجل :

والله ما أدري ، فأنا لست من هذا البلد بل من دير عاقول.

٩٠ - استك يا مولاي :

كان عند الخليفة المهدي مؤدب يؤدب ابنه الرشيد فدعاه يوما وسأله:

كيف تأمر (ما فعل الأمر) من السواك؟ (تنظيف الفم بالمسواك) فقال المؤدب :

استك يا أمير المؤمنين.

فقال المهدي لأنه فهم معنى كلمة "استك" مؤخرتك:

إنا لله وإنّا إليه راجعون. هاتوا لنا من هو أفهم منه.

فقالوا له: ثمة رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي "عالم نحو معروف من أهل الكوفة" وحين مثل الكسائي في حضرة الخليفة سأله له المهدي:

كيف تأمر من السواك يا علي؟

فقال الكسائي :

سك يا مولاي!

فقال له الخليفة: أحسنت وأصبت.. أعطوه عشرة آلاف درهم!

ملاحظة : جواب المؤدب هو الصحيح نحويا ولكن الكسائي أجاب إجابة خاطئة لتلافي الحرج من القول "استك" أي عورتك وللحصول على الجائزة لأن فعل "سِك" معناه:سِك النقود أي اصنعها!

٢٥ - لغة الجسد.

لا يذهبن بك الظن أيها القارئ بعيدا فتعزف عن متابعة قراءة هذا النص ظناً منك أنه ذو مضامين إباحية أو هي قريبة من هذا الغرار. فلقد ظُلِمَ الجسدُ، وجسد المرأة خاصة، مرتين، مرة على أيدي الذين كنفوه وكمموه وخنقوه بالأسمال والخرق لأنهم اعتبروه مجرد عورة ونجاسة ينبغي سترها من قمة الهامة إلى ما تحت أخمص القدمين ناسين أن هذه "العورة أو النجاسة" تصلي فتقف بين يدي الله خمس مرات يوميا وتحج إلى بيت الله وتنجب وتربي الأبطال والشهداء والصديقين.. الخ و ظُلِمَ الجسد الإنساني مرة أخرى على أيدي تجار اللحوم الحية وأدعياء التقدم حين عرّوهُ من كل ما عليه وعادوا به إلى الكتلة البهيمية التي لا كرامة ولا عقل لها والتي تثمن على أساس درجة لدانتها ونعومتها وصفاء قشرتها البيضاء أو السمراء أو السوداء ثم جعلوا منها لقمة سائغة ومسعرة بدقة للمسعورين جنسيا والقادرين على الدفع.

ظلم الجسد من هؤلاء وأولئك فتساوت الخرقة التي تحيط بالجسد الآدمي إحاطة تراب القبر بالجثة مع الأصباغ والحلي التي تعلق عليه، فتكشف أكثر مما تستر. والخير في الاعتدال فلا خنقاً أو دفناً بالأسمال

كما يفعل السلفيون العائدون إلى عصر ما قبل الكتابة هرولةً، ولا متاجرةً باللحم الآدمي العاري كما يفعل القشريون من زاعمي التقدم والمنقلبين إلى العصر الحجري البهيمي ركضا. أليس التعري الإباحي هو الوجه الثاني لعملة لا إنسانية يمثل الدفن في الخرق وعتمة البيوت وجهها الثاني؟ هذا عن لغة الجسد فماذا عن جسديات اللغة؟

مرت بك أيها القارئ كلمات جسدية كثيرة دون ريب ولكنك لم تنتبه لأصلها الحسي الملموس القادم من جسدك الكريم الجميل. والحقيقة فقد ناب جسدك عنك في الدفاع عن نفسه حين أقحم في اللغات الإنسانية ومنها لغة الضاد حشدا كبيرا من المفردات التي لا بديل لها في محاولة لترسيخ وجودة ومقاومة عملية حذفه من الوجود على أيدي الظلاميين وعلى أيدي أصدقائهم الألداء الإباحيين. هاك هذه الأمثلة من ميدان المجابهة والمواجه بين الجسد وهؤلاء وأولئك: المواجهة من الوجه والمجابهة أقوى من هذه الأخيرة وهي من التلاقي العنيف بالجباه/جَسَّدَ أهدافه من كلمة جسد / هذه المجسمات من جسم / المكابدة أي المعاناة من الكبد / والتكاتف من الكتف/ والسن أي العمر من عدد الأسنان التي تدل على العمر/ والأنفة أي الكبرياء من الأنف المرفوع والفعل عانق من العنق/ واحتضن من الحضن/ وتعاقبت السنون من عقب القدم/ وكان الامتحان شفهيا ويقال خطأ شفويا من الشفاه/ وهذه فرقة باطنية من البطن/ والسر والسرية من السرة/ وحفرنا له حفرة من حافر الحيوان/ والركب والتركيب والمركبة من الركبة/ والجلاد والتجليد والمجالدة من الجلد/ ويستمرئ الطعام من المريء/ وتنهد تنهيدة حرى من النهد/ والضالعون في المؤامرة من الضلع/ وتضافروا عليه من ضفيرة الشعر/

وظفروا أي انتصروا من الظفر/ والمعاينة وتعني عند العراقيين الكشف الطبي أو ثمنه وهي من العين/ وهذا الحاجب من حاجب العين/ ويتشدق من شدقي الفم والسيد الرئيس من الرأس.. معذرة يا ريِّس! فهذه القائمة من الأمثلة أولية وهي بحاجة إلى المراجعة والتمحيص من قبل متخصص في فقه اللغة. لابد من المراجعة العلمية يا ريِّس فقد يبالغ أحدهم ويزعم أن كلمة "الكوفية" مشتقة من كوفي عنان!

٩١ – يقتحمون الجنة :

تفاخر مصري ويمني فقال المصري :

هلكت والله اليمن فليس منها رسول الله بل من الحجاز و لم تُذكر في القرآن كمصر..فقال اليمني :

هذه ليست مشكلة، فابن المهلب[٩] وأولاده يمنيون وسيحاربون عليها حتى يدخلوها أهل اليمن بالسيف.

٩٢– تهديد الوالي الجديد :

صعد أحد الولاة الجدد المنبر يوم توليته وخطب في الناس فقال:

أيها الناس إن أكرمتموني أكرمتكم، وإن أهنتموني ليكونن الأمر عليَّ أهون من ضرطتي هذه.. ثم ضرط ونزل من المنبر!

---

٩ ــ المهلب – هو المهلب بن أبي صفرة قائد عسكري شهير شارك في حروب الفتوح العربية الإسلامية

٩٣-من بني آدم :

وقف رجل من العامة قريبا من أبي العيناء فأحس به فقال: من هذا؟ قال الرجل: أنا رجل من بني آدم. فقال أبو العيناء: مرحبا بك، هل أطال الله بقاءك وبقيت في الدنيا؟ لقد حسبت أن نسلكم قد انقطع.

٩٤- جربوني :

قال أبو عثمان الجاحظ: وقف سائل بقوم فقال: أطعموني فأنا جائع. فقالوا له أنت تكذب. فقال: فجربوني برطلين من الخبز ورطل من اللحم المشوي!

٢٦- من مخيرق إلى أفنيري.

يروي الطبري أن يهود يثرب امتنعوا عن المشاركة في الدفاع عن المدينة ضد المهاجمين الوثنيين المكيين كما تنص المعاهدة المعقودة بينهم وبين المسلمين بحجة حرمة السبت اليهودي إلا رجلا واحدا منهم يدعى مخيرق اليثربي، وحسب الطبري فقد تقلد هذا اليهودي سلاحه وشتم رؤساءه وعاب عليهم حنثهم بعهدهم للمسلمين وسار في جيش المسلمين المتوجه إلى جبل أحد. وفي الطريق إلى المعركة، أوصى مخيرق بأن ماله سيؤول إلى نبي المسلمين محمد بن عبدالله إن هو قُتل.. وقاتل مخيرق حتى قُتل. تفاصيل معركة "أحد" معروفة لنا صغارا وكبارا غير أن تفصيلا صغيرا في مساحته،

كبير في معناه، يجهله الكثيرون منا وهو أن النبي العربي الكريم وقف على جدث مخيرق القتيل بعد انتهاء المعركة وقال: مخيرق خير اليهود! (تاريخ الطبري مج ٢ ص٢٠٩ أحداث ٢هـــ)

واليوم والعصابات الصهيونية المسلحة تستفرد بالشعب الفلسطيني الأعزل فتقتل وتهدم وتذل وتجوع وتدنس المقدسات الإسلامية والمسيحية ينهض مخيرق اليثربي في أشخاص أوفياء لآدميتهم ومعتقداتهم فيدافعون عن هذا الشعب الصابر المعطاء ومن هؤلاء وفي طليعتهم العجوز الذي يحمل على عاتقه ثمانية وسبعين عاما أوري أفنيري. إنه داعية السلام الحقيقي وعدو الجنرالات القتلة. وخلال العدوان الدموي الراهن ومنذ بداياته الأولى كتب أفنيري العديد من المقالات التي هاجم فيها بحدة وعمق المؤسسة الصهيونية الحاكمة وقد أشرنا إلى بعضها في ما كتبنا من مقالات ومن أشهرها تلك المقالة التي شبه فيها الرئيس الفلسطيني المحاصر ياسر عرفات بموسى والجزار شارون بالطاغية فرعون مصر، وكان قد حذر من المساس بعرفات وقال كلاما تهديديا خطيراً لا يجرؤ على قوله حتى بعض العرب. وفي مقالة أخرى أعلن أفنيري أن الأساس الحقيقي للدولة فلسطين قد وضع في مخيم جنين فعلا، وأن الأساطير إذا كانت حقا وراء قيام الدول ومنها دولة إسرائيل فإن أسطورة جنين قد وضعت أسس قيام الدولة الفلسطينية المستقلة ولن يستطيع أحد أن يمنع ذلك. إن ما يميز مخيرق القرن الواحد والعشرين "أفنيري" عن سائر دعاة السلام الإسرائيليين من أمثال يوسي بيلين هو أن عينيه مركزتان ومحدقتان بالجرح الفلسطيني وآلمه وآماله وليس على مصير ومستقبل ومصلحة المؤسسة الصهيونية الحاكمة وعلى كيفية

تخليصها من الأزمة السياسية والأخلاقية والمجتمعية الطاحنة. إن إنسانية هذا العجوز الشريف تكمن بالضبط في انحيازه الصارم وغير المتردد إلى جانب الضحية الفلسطينية وهذا ما يكسبه مزيدا من الاحترام. وللإنصاف فهو ليس الوحيد في هذا الميدان فهناك الصحافية الشجاعة التي تخصصت في فضح جرائم جيش الاحتلال عميرة هاس والإعلامي اليساري ميخائيل فارشوفسكي الذي اعتقلته السلطات خلال الانتفاضة الأولى وهددته بمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى بسبب تعاونه مع منظمات المقاومة الفلسطينية. وإذا كان الحاخام المتطرف والعنصري عوباديا يوسف ينسب إلى يهود العراق مثله مثل وزير الدفاع بنيامين بن إليعازر الذي ما زالوا يسمونه في الإعلام الإسرائيلي باسمه العربي "فؤاد" فإن أسماء أخرى برزت من الوسط اليهودي العراقي دافعت بصلابة عن الشعب الفلسطيني ومن هؤلاء لطيف دوري أحد قيادي حركة ميريتس وأول سياسي إسرائيلي دعا علنا إلى اعتبار القدس الشرقية عاصمة لدولة فلسطين وهناك مجموعة من الكتاب والمثقفين اليهود من أصول عراقية أسسوا قبل عدة عقود جمعية ثقافية ومازالت قائمة وتسمى حرفيا (رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق) ويرأسها فخريا الأديب داود سلمان ويرأسها تنفيذيا البروفيسور سامي شموئيل موريه ومن أعضائها الشاعر أنور شاؤل والروائي شمعون بلاص وسمير نقاش وهذا الأخير رفض ومازال يرفض كتابة رواياته باللغة العبرية التي يجيدها بل باللغة العربية أما الحوار فيكتبه باللهجة البغدادية كما ينطقها يهود العراق. لستُ بصدد تبيض صفحة الدولة الصهيونية أو الدعوة للتطبيع الثقافي الذي اعتبره خيانة صريحة ولكنني في صدد الدفاع عن

المختلف والاستثناء والإنساني مهما بدا صغيرا ومهمشاً لأن ثقافة التنميط وإلغاء المختلف وطمس الاستثناء هي ثقافة فاشية وعنصرية بامتياز وقد أخذت الحركة الصهيونية بهذه الثقافة المتطرفة في نظرتها إلى العرب فاعتبرتهم جميعا دون مستوى البشر فساهمت من حيث لا تدري في توحيد صفوف أعدائها وأكسبتهم حصانة ضد الاختراق المعادي وسيكون من الغباء والحمق واللاإنساني أن نقتسم مع الفاشيين هذه الثقافة السامة والمعادية للإنسان ولكل ما له علاقة بالخير والجمال والمعاني النبيلة.

٩٥- فزارة باشا البصري :

كان فزارة صاحب ديوان المظالم بالبصرة وكان أطول خلق الله لحية وأقلهم عقلا فقال فيه أحد الشعراء :

ومن المظالم أن تكون   على المظالم يا فزارة!

٩٦- أنواء جوية :

قال رجل لخادمه :

أخرج وأنظر هل السماء مصحية أم مغيمة؟

فخرج الخادم ثم عاد وقال :

والله يا سيدي لم يتركني المطر أنظر أهي مصحية أم مغيمة!

٩٧ – دعاء التميمي :

روى بعض الثقات أن محمد بن علي عليه السلام رأى في الطواف أثناء الحج أعرابيا عليه ثياب رثة وهو شاخص نحو الكعبة، لا يصنع شيئا ثم دنا من الأستار فتعلق بها ورفع رأسه إلى السماء وأنشأ يقول(١٠):

أما تستحي مني وقد قمتُ شاخصا   أناجيك يا ربي و أنتَ عليمُ
فإنْ تكـسني يا ربُ خفاً وفروةً   أصلي صلاتي دائماً و أصومُ
وإن تكن الأخرى على حالِ ما أرى   فمن ذا على تركِ الصلاةِ يلومُ
أ ترزقُ أولادَ العلوجِ وقد طغوا   وتتركُ شيخاً والدَاهُ تميمُ؟

٩٨ – يدغدغ نفسه :

قال ابن الفرج: حدثني أبي قال: رأيت إنسانا يدغدغ نفسه فقلت له: لم تفعل ذلك؟ فقال: لقد اغتممت وأرت أن أضحك قليلا!

---

١٠ ـــ لم أستطع ترجمة محمد بن علي الوارد اسمه في هذه الطرفة والرواي لم يترجم له ولكنه واحد من اثنين من أئمة الشيعة الاثنا عشرية فهو أما أن يكون - وهذا هو الأرجح - محمد بن علي الباقر أو محمد بن علي الجواد ، أما كلمة "الأخرى" فتعني "الآخرة ".... والعلوج = الكفار من غير العرب.

٩٩ - أحق بالسؤال :

وقف سائل على باب قوم فقالوا له: يفتح الله لك. فقال أعطوني كسرة خبز قالوا: ما نقدر عليها. قال: فقليل من الفول أو الشعير قالوا: لا نقدر عليه قال: فقليل من اللبن. قالوا لا نجده في البيت. قال: فشربة ماء. قالوا: ليس عندنا. فقال: فما جلوسكم ههنا؟ قوموا فاسألوا فأنتم أحق مني بالسؤال.

٢٧- الطيار بطل ولكن..

كانت حادثة سقوط الطائرة المصرية يوم الثلاثاء الماضي ٧/٥/ ٢٠٠٢ على مرتفع في ضواحي العاصمة التونسية (في تونس يقولون: أحواز العاصمة..) مناسبة أخرى لتأكيد عدة حقائق بعضها إيجابي وباعث على التفاؤل في مستقبل هذه الأمة وبعضها الآخر مؤسف وينتمي إلى دائرة التخلف الحضاري وعالم الركود والغيبوبة المجتمعية. فقد أعلنت السلطات التونسية أن الطائرة سقطت بعد أن حدث خلل في جهاز إنزال عجلاتها الأمر الذي حدا بالطيار إلى القيام بدورة حول المدينة وثم حاول إنزال العجلات مجددا ولكن دون جدوى وهنا قرر الطيار بشجاعة وحكمة الخروج من محيط العاصمة، ثم أفرغ خزانات الطائرة من الوقود، وبعدها قام بهبوط اضطراري على منطقة مرتفعة ومكسوة بالأشجار وكانت النتيجة أن خرج معظم المسافرين أحياء أو جرحى من الحادث.

إن هذا الصنيع الذي قام به الطيار يمكن وصفه دون تردد بأنه صنيع بطولي لأنه كان سبباً في إنقاذ أرواح أغلب المسافرين وقد توفى منهم للأسف ثمانية عشر مسافرا. ومن دلالات هذه الحادثة يمكن التأشير على أن الإنسان العربي المصري (رغم أنف دعاة الفرعونية الذين شاهدنا أحدهم قبل أيام يردح نافيا ومنكرا عروبة مصر والمصريين على شاشة قناة الجزيرة) لا يقل جدارة عن زميلة غير العربي في التمكن من عالم التكنولوجيا المتطورة وامتطاء صهوة التقدم العلمي سريع الخطى وعظيم الإنجازات إلى درجة تبعث على الدوار.

ولكن وبالعودة إلى الحادثة نعلم أن السلطات المصرية المختصة وعوضا عن أن تكافئ وتمتدح شجاعة وحكمة الطيار وطاقمه الذي كان معلقا بين الحياة والموت ردت بعصبية مقيتة كثيرا ما نجدها لدى المصابين بالعصاب والحساسية المرضية اتجاه النقد، ردت على السلطات التونسية وقالت (أن خللا فنيا لم يحدث في الطائرة ولكنها سقطت بسبب سوء الأحوال الجوية في تونس) للوهلة الأولى يبدو الكلام عاديا ويمكن قبوله أو رفضه أو التحفظ عليه ولكن حين نعلم أن الطقس لم يكن سيئا جدا كما شاهدناه من خلال المشاهد التي نقلها التلفزيون لحطام الطائرة وبدليل استمرار إقلاع وهبوط الطائرات قبل وبعد حادثة سقوط الطائرة المصرية وعدم إغلاق المطار، فإن الأمر يخرج من هذا الإطار ويدخل في إطار آخر هو إطار الهرب من تحمل المسؤولية وتعليق الكوارث على مشجب الغيب أو سوء الحظ أو شقيقه سوء الطقس.

وهكذا ومع كل كارثة قطار يحترق بركابه، ومع كل طائرة نسي المهندسون مراجعة أجهزتها فسقطت، ومع كل سفينة أقلت ضعف عدد الركاب المسموح به فغرقت، ومع كل عمارة أضاف لها مالكها الجشع ثلاثة طوابق إضافية وزاد نسبة الرمال إلى ثلاثة أضعاف فانهارت على من فيها، مع كل كارثة من هذه الكوارث، نرى أولئك المتخلفين حضاريا وعقليا وأخلاقيا يبحثون عن مؤامرة ما هنا، أو جاسوس خارق الإمكانات هناك، أما هم وعالمهم الفاسد، التواكلي، المهمل، البطيء، السلفي، الخرافي، القطيعي، الاتباعي، أما هم وعالمهم هذا فعشرة على عشرة وكل حاجة زي الفُلّ يا فندم!

إن أمةً لا تجيد ولا تسمح ولا تتعلم سلاح النقد والانتقاد أمة لا مستقبل لها. ثم إن النقد هو النقد، وينافق من يحاول أن يفرق بين " نقد هدام" وآخر "بناء" بل يمكن القول أن المقصود بالنقد الهدام هو النقد الحقيقي الذي يزعج الطبقة السائدة الحاكمة ويهز كراسيها هزا شديدا أما النقد "البناء" فهو النقد المجامل، المنافق، اللطيف، الذي لا يترك إلا ما تتركه القبلات على خد الحبيب. إنه النقد الذي يقبل به النظام السائد أي اللانقد! فالنقد واحد، وهو كالدواء،كلما كان مركزا وجديدا، أي كلما كان هداما وقاسيا كان أكثر فائدة وأسرع إبراء. ومن أراد أن يبني بناء راسخا فليفتت بهدمه ما كان قائما تفتيتا، وليعمق الأساسات للجديد تعميقا.

وأخيرا فالنقد والذاتي منه على جهة التخصيص عمل صعب وممارسة شاقة ونبيلة لا يقدم عليه إلا ذوو النفوس الكبيرة والقامات العقلية

العملاقة أما الأقزام وذوو الدواخل الهشة، المسكينة، الزاحفة خلف المال والشهرة وإشباع الفرجين فهم يفضلون على النقد الذاتي المديح والإطراء المتبادل والتبرير والخنوع للسائد وإخفاء الحقائق ودس الزبل تحت البساط!

إنها ليست مشكلة شخصية وفردية تتعلق بفلان أو علان من الناس بل هي كارثة مجتمعية تتسبب بها الدكتاتوريات والأنظمة الاستبدادية المسلطة على مجتمعاتنا فتسقط طائرات وتنهار العمارات وتغرق السفن والعبارات ويتسمم الطلبة والطالبات ويكثر الشذوذ والمخدرات وتهرب الملايين والمليارات.. إلى بلاد بره.. الحرة!!

١٠٠- حلال ولكن :

وبخت امرأة عجوز ليس لها حظ من الجمال زوجها بعد أن ضبطته يخونها مع امرأة أخرى:

أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب؟

فقال لها:

أما حلال فنعم.. وأما طيب فلا!

١٠١- فيلسوف النفاق :

أقبل عيينة بن حصن إلى المدينة قبل إسلامه فلقيه ركب خارجون منها فسألهم: أخبروني عن هذا الرجل (ويقصد النبي العربي الكريم) فقالوا له:

الناس فيه ثلاثة: رجل أسلم فهو معه يقاتل قريش وأفناء العرب[11] ورجل لم يسلم فهو يقاتله ورجل يظهر الإسلام للمسلمين حتى إذا لقي قريش قال أنه معهم. فقال عيينة: ما يسمى هؤلاء؟ فقيل له: انهم المنافقون. فقال: أشهدوا إني منهم فهم أحزم الجميع وأرجحهم عقلا!

١٠٢–جمل بدرهم :

ضل بعير لرجل فحلف أن يبيعه بدرهم إن وجده فلما وجده لم تسمح له نفسه أن يبيعه بدرهم فعمد إلى سنور "قط" فعلقه في رقبة البعير وجعل ينادي عليه في السوق: الجمل بدرهم والسنور بخمسمائة ولا أبيعهما إلا معا.

١٠٣– المفلس مفلس :

أعلن القاضي إفلاس أحد التجار فأركبه حمارا وطوف به ونوديً عليه أن لا يبايع فإنه مفلس فلما أنزل قال له صاحب الحمار هات الكراء فقال التاجر: فيم كنا من أول النهار يا أبله؟

---

١١ ـــ أفناء العرب - أخلاطهم وغير المعروفين من أية قبيلة هم .

٢٨- توجان في مواجهة تيجان !

إنها سيدة رقيقة الابتسامة، فولاذية الإرادة، وسيمة الملامح، تعتز بعروبتها كانتماء حضاري وبجذورها الشيشانية كنوع من الأصالة. دخلت معترك السياسة في بلدها وفازت بمقعد في البرلمان فكانت المرة الأولى في تاريخ البلاد التي تفوز فيها سيدة بمقعد نيابي، فشاركت بفاعلية في أعمال البرلمان، ودافعت عمن انتخبها دفاعا أثار حفيظة القوى المحافظة في السلطة وفي المعارضة السلفية معا، وشُنت ضدها حرب تشنيعية وتفتيشية ظالمة وظلامية طالت حتى حياتها الشخصية الحميمة فزعموا أنها طعنت زوجها بسكين فخرج زوجها على الملأ وفضح الافتراء وأعلن عن اتفاقه وتضامنه مع زوجته ورفيقة دربه. وبعد تلك المحنة لم تركن إلى الصمت وخرجت من جولتها تلك بعزيمة أمضى ووجدان أعمق.

لم تتخلف توجان الفيصل عن مظاهرة أو فعالية تضامنية مع فلسطين وشعبها، أو مع العراق المحاصر وأطفاله المجوَّعين المشوهين باليورانيوم المنضب وشعبه المقموع بأقسى دكتاتورية. كانت حاضرة دائما في الزمان والمكان الصائبين. ومتأهبة للانطلاق في المشوار والحادث الطارئ أو المخطط له سلفا. شاهدها الناس على شاشات الفضائيات تساجل بحماس وعقل نقدي دفاعا عن بنات جنسها وتجبر خفافيش العتمة على الانزواء والانسحاب. شاهدناها تحمل لافتتها الصغيرة وتقول لا للظلم والعدوان الغربي ضد شعوب الشرق والعالم الثالث بعامة، وتقول لا لركود وتخلف النخب السياسية في هذا الشرق المستباح. إنها لا تقطع مع النور القليل

القادم من ساحات الخصم التاريخي، ولا تواصل مع عفونة الاستبداد الماكث ساحة الوطن. لم تقطع مع الإسلاميين المستنيرين لأنها علمانية بل نسقت وشاركت مع الإسلامي ليث شبيلات في نشاطات تضامنية شجاعة. ولم تسكت وتتملق الرأي العام حين لمح صحافي حكومي مدفوع إلى أصل عائلتها القوقازي الشيشاني في محاولة رخيصة للإساءة إليها فهاجمته وطالبته بالاعتذار أمام الجمهور.

وحين تكشفت أمامها آخر فضيحة فساد حكومية سارعت إلى توجيه رسالة إلكترونية عبر الإميل إلى الرجل الأول في المملكة وشرحت أمامه الحقائق. وبعد أخذ ورد ولتٍّ وعجنٍّ وجدت المناضلة توجان الفيصل نفسها في السجن فأضربت عن الطعام حتى قاربت الاستشهاد وأطلق سراحها لتعتقل بعد يومين، لتحاكم يوم أمس ويصدر ضدها حكم بالسجن مدة عام ونصف. محامي الدفاع عنها انسحب احتجاجا على رفض المحكمة طلب مثول الخصم الرئيسي كشاهد، وأغلب الشهود الذين حضروا برءوها من التهم التي وجهت إليها.

وقفت السيدة تيجان في قاعة المحكمة وأعلنت أن المسؤول التي تتهمه بالفساد وهو رئيس الوزراء سبق له أن عرض عليها رشوة لكي تسكت وتغلق الملف، وشرحت للقاضي الحكومي أن تلك الرشوة تمثلت بثلاث سيارات ومنصب وزيرة وشيك نقدي مفتوح ولكنها رفضت الرشوة وقررت خوض المعركة ضد الفساد ودفاعا عن قوت الناس. صدر الحكم إذن وتنفس بعضهم الصعداء وشمت بعض الشامتين الذين عبر عن وجهة نظرهم صحافي حكومي حاول التحريض ضد هذه البطلة الشعبية حين قال

إنها هاجمت (كل أو بعض أو كثيرين من رجال الدولة ورجال الدين وغيرهم) ويمكن أن نأخذ صورة واضحة عن "صدقية" هذا الصحفي من خلال مساواته بين كلمات "كل" أو "بعض" أو "كثيرين من" في جملة واحدة في فقرة واحة لقناة فضائية واحدة. فياللدقة ويا للصدقة!

هذه الليلة ستقضي السيدة توجان الفيصل ليلتها الأولى في السجن وهي على يقين من أنها في الخندق الصحيح ولكنها ستمضي الليلة نفسها في قلوب الكثيرين قبل الكثيرات من أبناء شعبها وأمتها التي اجتاحها قحط رهيب في القابضين على جمر المبادئ في مقابل تكاثر سرطاني للقابضين على أشياء أخرى كالشيكات المفتوحة!

هذه الليلة سيأخذ السجانون ومديرهم الحذر والحيطة فلا مجال لارتكاب الأخطاء في حضرة توجان الشعب، توجان الأردن العزيز.. وفداء لك سيدتي سبعة أحزاب صامتة وعشرين جبهة خرساء !

١٠٤- نزيف داخلي :

لكم رجل رجلا آخر فصاح الملكوم :
آه أدميتني.
ولما لم ير الآخر دما سأله :
وأين الدماء؟
فقال الملكوم :
أنا أرعف من الداخل!

١٠٥ – حليب سباع :

قال رجل لنباذ (صانع نبيذ) بغدادي معروف: لقد كنت بحاجة إلى شيء من النبيذ البارحة وأرسلت إليك رسولا عند منتصف الليل فلم يجدك.. فأين كنت؟

فقال النباذ :

ذلك وقت لا أجد أنا فيه نفسي!!

١٠٦– آلة الخمر وآلة الزنى :

سافر الظريف الشهير مزيد إلى المدينة المنورة وأخذ معه زق خمر فارغ فحبسه أمير المدينة وأمر بجلده فقال له مزيد: ولماذا تجلدني؟

فقال الأمير: لأن معك آلة الخمرة والخمرة حرام.

فرد عليه مزيد:

وأنت معك آلة الزنى في سروالك والزنى حرام !

١٠٧– ثمن الدار :

قال رجل يملك دارا منيفة لآخر: أيسرك أن تكون هذه الدار الجميلة لك؟ قال نعم. فقال صاحب الدار: تقول نعم فقط؟ قال: فما أقول أكثر؟ فقال: قل نعم ولتصبني الحمى لسنة فقال الرجل: نعم ولأكن أعور!

٢٩ - ثقافة الذبح العشائرية :

و نقتل الأكراد مجانا..!!

نشرت جريدة عربية واسعة الانتشار هي "الحياة" في عددها ١٢/٥/٢٠٠٢ تحقيقا صحافيا مطولا خصصت له صفحة كاملة تضمن ما قالت الجريدة إنها ذكريات واعترافات وردت على لسان أحد الضباط العراقيين المتسبين إلى عشيرة الرئيس صدام حسين وهو مقيم الآن في مدينة عمان بعد هربه من العراق. والغريب أن الجريدة لم تذكر اسم هذا الضابط و لم تنشر له صورة. ومع ذلك فقد آثرنا التعليق على هذا الموضوع دفاعا عن شعب بكامله يريد البعض الشطب على منظومته الأخلاقية وتراثه الإنساني بحجة وجود هذا الجلاد أو ذاك من هذه العشيرة أو تلك :

بعد أن خاض طويلا في دماء الناس، وسرق الأبيض والأصفر من ثروة العراق. بعد أن داس على رقاب الشرفاء، ونفذ أوامر أسياده ومربيه، فصار بطلا جسورا على معتقل أعزل هده التعذيب، وأسدا هصورا على فتاة مسكينة أخرسها الجوع ورعب الاغتصاب. بعد أن كذب "مناضلنا الهارب" ونافق وقتل وشرد وتجسس ووشى وأذل واغتصب وخان وغدر، بعد أن مارس جميع الأفعال الشيطانية والذئبية والبشرية وحانت له فرصة لا يجود الدهر بمثلها مرتين، قفز من سفينة الدكتاتورية السوداء الموشكة على الغرق في لجج العار والدم واعتقد أنه نجا. وبعد أن حطت به الرحال في إحدى محطات "المنفى" وهي مقهى واسع على هيئة مدينة أو مدينة صغيرة تعتاش على مصائب الآخرين على هيئة مقهى للدجالين والطفيليين تدعى عمان، وقد وصل "المحاضر المنفي" في ربع الساعة الأخير قبل يوم القيامة،

فهرع إليه الصحافيون والباحثون يسألونه عن تفاصيل الحياة في مملكة العذاب والأسرار فماذا قال الضابط القادم توا من قلب عشيرة السلطة :

حدثهم عن دروسه الأولى في فن الدماء والذبح وكيف طلب من عمه أن يذبح دجاجة وهو مازال طفلا في الرابعة، وحدثهم عن تدريباته وهو في السادسة على إطلاق الرصاص من بندقية "البرنو" الطويلة الثقيلة ذات الارتجاع العنيف مشيرا إلى إنها نفس البندقية التي يحملها رئيسه في احتفالات ذكرى "تدمير أمريكا" و"تحرير فلسطين" و" استرجاع عربستان والاسكندرونة وسبتة ومليلة "!! حدثهم عن عشيرته في تكريت وعن دار جده الكبيرة والمضافة المهيبة التي علقت على (جدرانها سيوف ودروع الأجداد) وأُفعم هواؤها بذكريات المجد و(قصص الفروسية واحتراف سرقة القوافل) والتفاخر (باغتصاب زوجات الأغيار) وذبح ماشيتهم وتحريق بيوتهم وحقولهم وصولا إلى عصر الأحزاب الحديثة القشرة والمنقلبة عن العشيرة الدموية والمناضلة تحت شعار يقول (الانتقام هو التقنية الفعالة للاستمرار).

حدثهم مفصلا عن فدية القتيل من العشيرة الأخرى وعن درجات آدمية هذا القتيل أو ذاك، وكيف أن القتيل إذا كان كرديا أو كلدانيا فلا فدية له (فقد كنا نقتل الأكراد بالمجان)! نعم إنهم يتسلون بقتل الأكراد في الشمال والعرب في الجنوب لأن هذه المخلوقات لم تتناسل مثلهم من مجمع الآلهة المقدس والذي نقل بقرار من القيادة القومية من عاصمة الإغريق " أثينا" إلى تكريت، ناسيا أن سيده الأكبر وحامل البرنو الأمهر اعترف أن عشيرتهم ذاتها هربت باتجاه الشمال ذات مرة بعد هزمت هزيمة قاسية

واحتمت بعشيرة الطالبانيين الأكراد فقام الأكراد بواجبهم الإنساني خير قيام.

وحدثهم الضابط المغوار عن (تقبيل أطفال العشيرة ليد الميت قبل الدفن لتجفيف العواطف) وعن احتقار المرأة (الحرمة التي مهمتها نسج الحصران) من الخوص وطهي الطعام حيث (البيت حياتها وقبرها). حدثهم عن كل هذا وغيره، ولكنه لم يحدثهم عن مدن أخرى في الوطن الذي جاء منه هذا الرجل الطاعون. عن مدن أعطت للتاريخ شعراء عظماء كالسياب والجواهري والبياتي وسعدي يوسف والرصافي وصفي الدين الحلي وعن عشائر أخرى لم تحترف سرقة القوافل والاغتصاب والتحريق بل احترفت القتال ضد الغزاة البريطانيين في الدغارة والعارضيات وتل أعفر والزيبار والرارنجية والشعيبة والعمارة والكوت. و لم يحدثهم عن رجال آخرين من تكريت ذاتها خرجوا على ثقافة ذبح الأخ في الدين أو النظير في الخلقة فانحازوا إلى الآدمية وتمردوا على الحزبية البهيمية..

حدثهم عن "ثقافته" هذا الذباح القادم من عتمة القرون الخوالي، حين كان الفرق الوحيد بين الآدمي والبهيمة هو الوقوف عموديا ونسي المحدث أن الفأر الهارب من سفينة القراصنة الموشكة على الغرق سيظل فأرا حتى لو بلغ أبعد مرفأ في القطب الشمالي وسيأتي اليوم الذي ينقرض فيه نسله نسل الذباحين كما انقرض من قبل نسل الديناصورات مع الاعتذار لجميع الديناصورات المنقرضة لأنها تظل في ميزان الأخلاق أشرف من أي فأر بشري قاتل.

ملحوظة : العبارات الموضوعة بين قوسين مأخوذة حرفيا من تصريحات الضابط الهارب في التحقيق الصحافي المشار إليه في مقدمة المقالة.

١٠٨-دعاء بالأقساط :

دعا أحد المغفلين ربه فقال:

اللهم ارزقني خمسة آلاف درهم حتى أتصدق منها بألفين وإن لم أتصدق وليس لك ثقة بي فادفع لي ثلاثة آلاف واحبس الباقي عندك فإن تصدقت فقد تصدقت وإن لم أتصدق فارزقها أنت لمن تشاء .

١٠٩- حمام نساء :

قال ابن ناصر كتب أحد الأدباء (وقد مررنا بالحمام الكبير التي بالرصافة) فقيل له ولكن الحمام مذكر فلماذا أنثته؟ فقال: لقد كان حماما للنساء!

١١٠- بالميل الموصلي :

قيل لرجل من أهل الموصل: كم ميلا بين الموصل والقرية الفلانية؟ فقال الموصلي :

ثلاثة أميال ذهاب وميلين إياب!

١١١- عتيق إسته :

أخذ عبد الله بن علي أسيرا من أهل الشام فأمر بضرب عنقه فلما رفع السيف ليضرب ضرط لشامي فوقع العمود بين يدي الغلام ونفرت

دابة عبد الله فضحك وأعتق الأسير وقال له: اذهب فأنت عتيق إستك! فقال الرجل: أصلح الله الأمير هل رأيت ضرطة أنجت من الموت غير هذه؟ قال: لا والله. قال الرجل: كنا ندفع الموت بأسنتنا فصرنا ندفعه بأستاهنا!

٣٠- العقيد جاك شيراك.

نعم، الرئيس الفرنسي جاك شيراك عقيد، وللدقة، كان عقيدا في الجيش الفرنسي حين أدى الخدمة العسكرية وهو شاب وقد رأيت صورته وهو بالملابس العسكرية بأم عينيَّ في برنامج وثائقي تلفزي بث قبل عدة سنوات. هذه الحقيقة التي قد يعتبرها البعض عندنا محاولة للتشنيع على رئيس في أعرق دولة ديموقراطية من خلال إلصاق "عار" العسكرتاريا به لا يبدو أن لها أهمية في بلد "الأربعمائة نوع من الجبنة". وللعبارة الأخيرة حكاية: فقد انتُقِدَ الرئيس الفرنسي الراحل ميتران ذات مرة على أدائه الرئاسي وقيل له أن فئات عديدة وواسعة من الجمهور الفرنسي غير راضية عن قيادتك للبلاد، فرد ميتران على منتقديه قائلا: ليس سهلا أن تكون رئيسا ناجحا في بلد تصنع فيه أربعمائة نوع من الجبنة كفرنسا!

ونعود إلى الرئيس العقيد جاك شيراك لنقول بأن "فضيحة" جديدة قد حاقت بملفه الشخصي، فقبل أسابيع انتخب لعهدة رئاسية جديدة بنسبة "عالمثالثية" تجاوزت الاثنين وثمانين بالمائة. ورغم أن نزاهة الانتخابات الفرنسية لا يتطرق الشك إليها إلا إذا تطرق لبياض أجنحة الملائكة ولكننا سمعنا من يشكك في تلك الانتخابات ويقول بأنها مريبة وجرت على الطريقة السوفيتية.. الخ.

نعم، عقيد ويفوز في الانتخابات بنسبة قريبة من مربع التسعات العربية ومع ذلك فالديموقراطية الفرنسية لم تهتز ولا يبدو أنها ستهتز لكل هذه التفاصيل الصغيرة طالما ظلت ركائز المشروع ماكنة، راسخة، محروسة بإرادة الملايين من الناس الأحرار. والسؤال هو: ما لذي يجعل نسبة الفوز الثمانينية أو التسعينية عندنا مشبوهة ومثيرة للسخرية وفي بلد الأربعمائة نوع من الجبنة أمرا عاديا؟ ولماذا تكون صفة العقيد أو المشير أو المهيب عندنا سُبة وعندهم مجرد صفة أو وظيفة حكومية؟ لماذا تكون هذه النسبة في الفوز عندنا القاعدة وعندهم الاستثناء؟

للإجابة على هذا النوع من الأسئلة علينا أن نبحث في أنواع الجبنة عندنا: عددها، كيفية صناعتها، طعمها، لونها، نسبة الرماد والمكروبات والفيتامينات فيها! ومتى ما علمنا بأن أنواع الجبنة عندنا لا يزيد على أنواع الماشية التي نصنعه من حليبها، وأن الكثيرين من مواطني بلداننا يولدون ويشبون ويرحلون عن هذا العالم دون أن يذوقوا مرة واحدة هذا الشيء الذي اسمه الجبنة، أدركنا أن الديموقراطية الحقيقية "البيضاء كالجبنة" في واد ونحن وماشيتنا في واد آخر غير ذي زرع!

إن واقع وجود مئات الأنواع من هذا المتوج أو ذاك في هذا البلد أو ذاك هو دليل على وجود وسيادة التعددية الحياتية لا كشعار سياسي بل كطريقة حياة. وحدها الدول الحبيسة في أنظمة أوتوقراطية وشمولية مغلقة تنتج الواحدية السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتنتج العقداء الذين يفوزون بنسبة تسعة وتسعين بالمائة في انتخابات لا يشاركهم فيها حتى عزرائيل، لا بل أن بعض العقداء لم يعد يشعر حتى بالحاجة إلى الانتخابات والدولة فوضع "مفاتيح الجيش" وعائدات النفط في جيبه وقال للشعب أنتم

أحرار افعلوا ما شئتم ولكن اتركوا لي النفط والجيش! وحدها المجتمعات المخدرة بالخرافات والتقاليد الظلامية ترفض التنوع والتعدد والاختلاف فتشحذ السيوف ضد المختلف والمخالف والخلافي وتتهمه بالخروج على الجماعة والمروق على القطيع والتمرد على الإرادة المقدسة. وحدها البلدان التي سطا عليها العقداء ثم أورثوها لأولادهم بعدهم تقدس كل حجر وشجر وكائن وبائن إلا الإنسان فإنها تقف عند خطوط البدايات والغريزة ولا تبرحها أبدا. أما حين يتحول التباين والاختلاف والتنوع إلى طريقة عيش ومبدأ حياة في مجتمع ما سيخرج هذا المجتمع من طور الوحل ويدخل في طور الجبنة!!

لتكن نقطة البداية في حالتنا أن ندرك أن فرنسا وسواها من المجتمعات الإنسانية المتقدمة كانت ذات يوم أسوأ منا مجتمعياً وأكثر تخلفاً حضارياً ولكنها حين طفقت تتقدم لم تتردد في القطع مع الجزء الظلامي من ماضيها فجعلت الإنسان قبلتها وعقله سراج طريقها وتحركت فقامت بثورتين جميلتين الأولى إعادة الاعتبار للإيمان الديني بأن اعتبرته علاقة ضميرية روحية وإشراقية بين المؤمن وموضوع إيمانه وليست سلما للوصول إلى الوزارة والثورة الثانية هي إنها كفت كفرد ومجتمع عن النظر إلى المرأة كموضوع جنسي مفعول به أولا وأخيرا وبدأت تنظر إليها كإنسان فاعل أولا دون أن تهمل جانب الأنوثة فيها أخيرا حتى لو كانت وزيرة للدفاع الفرنسي كالسيدة ميشيل إليو ماري! وأخيرا فإذا كانت وزيرة دفاعك يا قارئي العزيز حسناء كالسيدة ميشيل فهل سيهمك بعدها أن يكون رئيسك عقيدا أو شيطانا؟

ملاحظة : بالعودة إلى موقع الرئيس الفرنسي جاك شيراك على شبكة الإنترنيت "غوغل.كوم " تأكد لنا أنه كان ضابطا في الجيش الفرنسي خلال فترة حرب التحرير الجزائرية ولكن رتبته كعقيد لم تذكر فربما كان عقيدا وربما كان برتبة أقل منها فللذاكرة متاعبها وجموحها أيضا!

١١٢- ثمن القوس :

ساوم رجل أشعب في شراء قوس فقال الرجل: أقل ثمنها دينار. فقال أشعب :

و الله لو أنك رميت بها طائرا في السماء فسقط مشويا بين رغيفين ما اشتريتها منك بدينار.

١١٣- رياضيات :

تجارى قوم في مجلس فقال أحدهم: من كان أعرج فهو نصف رجل ومن لا يحسن السباحة فهو نصف رجل ومن لم يتزوج بعد فهو نصف رجل. وكان معهم رجل اجتمعت فيه الصفات الثلاث فقال: أحتاج إلى نصف رجل حتى أكو لا شيء.

١١٤- وصية الحطيئة :

لما حضرت الوفاة الشاعر الحطيئة قيل له أوصي فقال: بم أوصي؟ مالي للذكور دون الأناث فقالوا: عن الله لم يأمر بهذا فقال: ولكني آمر

به. فقيل له يا أبا مليكة أوصي بشيء للمساكين. فقال: أوصيهم بالمسألة "الكدية" فإنها تجارة لن تبور. قيل له أعتق عبدك يسارا: فقال: أشهد أنه عبدي ما عاش. ثم قال احملوني على حمار فإنه لم يمت على حمار كريمٌ قط لعلي أنجو. ولكنه مات في مكانه.

١١٥- جمال الأب :

قال ابن الأعرابي: كان المحسن الضبي شرها على الطعام وكان دميما قبيح الخلقة فقال له زياد ذات يوم: كم عيالك؟ فقال: تسع بنات، فسأله: فكيف هن منك؟ فقال المحسن: أنا أجمل منهن وهن أشره وآكل مني!

٣١- النساء شقائق الرجال.

ترشحت إحدى وثلاثون امرأة عربية في انتخابات بلدية جرت في مملكة البحرين قبل فترة قصيرة وللأسف لم تفز أية مرشحة منهن. يمكن اعتبار مجرد نيل حق الترشيح والانتخاب للمرأة تقدما فعليا إذا ما تذكرنا وضع المرأة العربية في دولة عربية أخرى تشهد تجربة ديموقراطية حقيقية منذ عدة عقود دون أن يتم إقرار حق المرأة في الترشيح والانتخاب كما هي الحال في الكويت، أو أن تكون قد حازت ذلك الحق منذ سنة ١٩٥٦ كما هي الحال في مصر دون أن تكون قد أثبتت حضورها النسوي كنائب (ملاحظة: قلنا نائب ولم نقل نائبة ليس خضوعا للإكليروس اللغوي الذي

يشترط ذلك بل لأن كلمة نائبة تعني فيما تعني المصيبة وحاشا لأخواتنا النساء أن يكن مصائب!) ولكن حين نستمع إلى إحدى الناخبات تفضل مرشحا رجلا على امرأة لأن (الرجال يستخدمون عقولهم بشكل أفضل) كما تقول، سندرك أن ذلك التقدم مازال هشا.

مرشحة مثقفة قالت مفسرة فشلها (إن الرجال رحبوا بمنح المرأة حق الانتخاب ولكن حين يصل الأمر إلى الترشيح في الانتخابات فالأمر يختلف لأن مجتمعنا مازال بطريكيا "أبويا") وكان ينبغي للسيدة المرشحة أن تقول "ذكوريا" لا يستطيع أن يكف عن النظر والتعامل مع المرأة إلا كمحمول وموضوع جنسي منفعل! مرشحة أخرى روت أن أحد رجال الدين جاءها ومعه أحد المرشحين ثم أعلن أمام الحضور وجوب انتخاب الشخص الذي يدعمه هو. وقد تعرضت هذه السيدة المرشحة لانتقادات كثيرة لأنها تضع أحمر الشفاه ويظهر جزء من شعرها في الملصقات الانتخابية. معنى ذلك أن عيون المجتمع الذكوري لم ترَ من كل الصورة الإنسانية إلا بضعة سنتيمرات من اللحم الأحمر والشعر الأسود، أما العقل والروح والكرامة والضمير والعفاف فيبدو أنها مجرد كلمات لا معنى لها في عرف الرجعية الذكورية. المثال الأخير هو لمدرسة متحجبة رشحت نفسها وقالت بأنها كانت تتلقى يوميا مكالمات هاتفية تطالبها بالانسحاب، فاتصلت برجل دين مشهور يقدم برنامجا تلفزيا على إحدى القنوات الفضائية ويعتبر نفسه، ويعتبره الكثيرون، من الإسلاميين المستنيرين وطلبت نصحه ودعمه فرد الشيخ "الفضائي" المستنير بأن من حق المرأة المسلمة وخصوصا (إذا تجاوزت سن الإنجاب) أن تخوض الانتخابات وترشح نفسها لمواجهة النساء الفاسدات

وأن تحضر الاجتماعات الانتخابية ولكن (انتباه!!) بشرط أن يمتنع الرجال والنساء من التحديق ببعضهم! ولا ندري لماذا يفترض الشيخ أن شعوبنا مريضة جنسيا ولا تفكر بشيء إلا بالتحديق في وجوه النساء؟ وهل ثمة حاجة إلى التحديق في وجه امرأة من نسائنا في اجتماع انتخابي مع كل ما تقذف به القنوات الفضائية وأشرطة الفديو "إياها" التي صارت تباع كما يباع اللبلبي في ديارنا المقدسة؟ غير أن شيخا آخر من النوع غير المستنير أفتى بعكس ذلك وقال ما معناه أن الرجل هو من يحق له الإشراف على المرأة وليس العكس!

نتائج الانتخابات كما أسلفنا لم تسفر عن فوز امرأة واحدة،كما أنها لم تسفر عن فوز رجل واحد من التيارات غير الطائفية الدينية، فهل يجب قبل الطاولة على الطريقة الجزائرية واستدعاء الدبابات؟ .بمعنى كيف يمكن النظر والتعامل مع هذا الواقع الناتج؟ ثمة ثلاث زوايا يمكن النظر من خلالها وكل زاوية لها موقفها الذي تنتهي إليه :

فالعدميون السذج والانفعاليون سينظرون من زاوية الفشل والإفلاس والخراب الشامل وسيصفقون الباب خلفهم ويلعنون اليوم الذي ولد فيه هذا الواقع العربي المتخلف. وبما أن (السمكة جائفة من رأسها) فليس أمام هؤلاء سوى الهرب إلى الوهم، الكحول، المخدرات، الهجرة، التجنس الأجنبي.

أما المصابون بالمبالغة في التفاؤل والصداحون باسم إعلام الحكومات فسوف يصفقون للنصر العظيم الذي تحقق والذي لا يشكك به إلا (خائن

أو عميل أو متآمر..الخ) وهؤلاء أيضا عيونهم على كيس السلطان ولا علاقة لهم بالناس والمستقبل وكرامة المرأة أو الرجل أو فرس النهر.

وأخيرا فثمة الواقعيون النقديون – جعلنا الله منهم – والذين يعترفون بفوائد وإيجابية دخول المجتمع المذكور من بوابة التحرر والانعتاق عبر ممارسته لأول تجربة انتخابية آملين أن يكون القطع مع عصور الظلام والقمع قد حدث فعلا، ومهنئين الذين فازوا بكل روح رياضية، وعاملين على الدفاع عن مصالح الناس من موقع المعارضة النزيهة ضد كافة أشكال استغلال السلطة والدين والتهرب من التعهدات الانتخابية التي قطعت. وحين ستنتهي العهدة البلدية الحالية ويحين موعد جرد الحساب سنكتشف أن الذين فازوا يوم أمس ليسوا ملائكة أو معصومين بل بشر يأكلون ويشربون و"يلهفون" فيخسرون في الانتخابات القادمة، فيحل أو تحل محلهم الأكفأ قيادة، والأطهر يدا، والأفضل أداء، والأوفى عهدا وليس الأطول لحية أو الأكبر عمامة. أليس الإسلام دين الفطرة؟ ألم يقل النبي العربي الكريم: النساء شقائق الرجال ؟

١١٦–بائع الدجاج الشاطر :

قيل أن رجلا من السندية وهي قرية على ستة فراسخ من بغداد جاء يبيع الدجاج قريبا من دجلة ببغداد فأفلتت منه دجاجة فطلبها فلم تقع بيده فلما رآها تبتعد صاح بها :

اذهبي أنت إلى السندية حتى أبيع الباقي وألحق بك.

١١٧- حصافة معاوية :

كان لمعاوية بن أبي سفيان عاملا من قبيلة كلب فجرى ذكر المجوس في حضرته فقال ذلك العامل الكلبي: لعن الله المجوس، إنهم ينكحون أمهاتهم، والله، لو أعطوني مائة ألف درهم لما فعلتها!

فبلغ قوله معاوية فأمر ا بعزله عن منصبه فور وقال:

قاتله الله أترونه لو زادوه شيئا على المائة ألف درهم لفعلها ..!

١١٨- أبو دلامة مع الدجاج :

شرب الشاعر الظريف أبو دلامة فسكر فلقيه العسس فأخذوه وخرقوا ثيابه وساجه وهو طيلسان أخضر واسع مما يلبسه العلماء، وجيء به إلى أبي جعفر فأمر بحبسه مع الدجاج وهو سكران، وحين صحا كتب إلى الخليفة الأبيات التالية :

أمير المؤمنين فدتـــك نفـــسي علام حبستني وخرقت ساجي

أمن صفراء صافـــية المـــزاج كأن شعاعها لهب السراج

وقد طبخت بنـــار الله حـــتى لقد صارت من النطف النضاج

تهش لها القلـــوب وتشتهيـــها إذا برز ترقرق في الزجاج

أقاد إلى السجـــون بغير جرم كأني بعض عمال الخراج

ولو معهم حبست لكان سهلا ولكني حبست مع الدجاج

١١٩- نبي وليس حداد :

ادعى أحدهم النبوة في أيام المأمون فقال له: ما معجزتك؟ قال الرجل: سل ما شئت. فقال الخليفة وكان بين يديه قفل: خذ هذا القفل وافتحه دون مفتاح. فقال الرجل: أصلح الله أمير المؤمنين أنا لم أقل إنني حداد بل نبي.

٣٢- سياسي وشريف!

لن يجانب الصواب من يعتقد اليوم أن البحث عن سياسي شريف صار أشبه بالبحث عن ولي صالح في ماخور، وعلى الرغم من ذلك فالشعوبُ تصرُّ على أن تنجب حالة نادرة هنا وأخرى مثالية هناك. ليس من السهل مثلا أن تجد رجلا يهرب من الرتب والألقاب كما يهرب الناس من الطاعون. رجل يرشحه حزبه إلى أعلى هيئة فيه فيقف أمام المؤتمرين ويعلن رفضه لذلك الترشيح "الترقية" فيحرج بعضا ممن رشحه ويفاجئ بعضا آخر. إنه محام كردي طيب، تخرج من كلية الحقوق ببغداد، وصديق حقيقي للفقراء ومكافح من أجل حقوق شعبه دون كلل أو تهاون، رحل عن عالمنا هذا قبل فترة قصيرة ، هو الأستاذ شاهزاد صائب.

كان الراحل قد عمل محاميا محترفا لعدة سنوات، وكانت له قائمة أسعاره الخاصة، فللفقراء أسعارهم شبه الرمزية، ولغير الفقراء أسعارهم المناسبة. وكان يؤمن بمبدأين في العمل: الأول هو أن المحاماة رسالة لا

ينبغي استعمال الطرق الملتوية فيها، وثانيا فقد كان (يحترم الصداقة حتى التقديس) كما قال زميله حميد بلباس.

ولأنه كان كثير الاطلاع والاهتمام بالزراعة ونظيف اليد فقد كلفه رفاقه في قيادة حزبه "الاتحاد الوطني الكردستاني" بمسئولية وزارة الزراعة في الإقليم. ومن يومها وحتى اليوم الذي قتل فيه في حادث سير أثناء أداء الواجب، لم يهدأ ولم يكل أو يمل من العمل. ومع كل حبه للفقراء، لكنه لم يتملق عواطفهم وتصفيقهم، بل - ولأنه كان يحبهم - فلم يكن يتساهل مع الأخطاء وسوء الفهم الذي قد يصدر عنهم. زار شاهزاد ذات مرة منطقة زراعية في كردستان كانت قد تأثرت بشدة من الجفاف وانحباس الأمطار والسيول فتجمهر حوله الفلاحون وطالبوه بحل لمشكلتهم فقال لهم أن الحل المؤقت هو في أن نحفر بئرا هنا. فقال له الفلاحون: هيا يا سيادة الوزير، تفضل واحفر لنا بئرا الآن!

لو أن أحد الراكضين خلف الوجاهة والشهرة والتصفيق من لصوص الأحزاب وتجار الثقافة كان يقف في مكان شاهزاد لكان قد تناول المسحاة فورا وبدأ الحفر بحماس أمام عدسات التصوير. ولكن صاحبنا وقف بين فلاحيه وراح يوضح لهم أنه ليس حفار آبار بل وزيرا للزراعة، وأن عليهم التقدم بطلب تحريري إلى الوزارة حول الموضوع، فإذا كان الطلب قانونيا ومستوفيا للشروط فسوف يوافق عليه ويمدهم جميع الوسائل والإمكانات المادية للقيام بعملية حفر البئر.

خلال فترة المنافي والانتقال من دولة إلى أخرى عُرَف كاكه شاه باستقامة ونزاهة وزهد لا يمكن لنا العثور على مثيلها بين السياسيين المعاصرين بعامة والعراقيين منهم بوجه خاص فقد تحول هؤلاء وفي

غالبيتهم الساحقة إلى متاجرين بالوطن والعقيدة وآلام الناس وآبار النفط وقطع الآثار وعجلات الدبابات. يروي أحد رفاقه أن منظمة الاتحاد الوطني الكردستاني في ألمانيا شهدت خلافا داخلها بين مجموعتين فأرسلت القيادة شاهزاد للتحقيق والتحكيم بين الطرفين وكان مقيما في دولة أوروبية أخرى. فأُعدت له شقة مؤثثة فيها كل ما يلزمه من طعام وشراب ليقيم فيها وذهب بعضهم لاستقباله والإتيان به إليها: ماذا؟ شقة لي أنا؟ سأل أحدهم؟ ثم أضاف بأنه يرفض ذلك ويفضل الذهاب إلى فندق متواضع. ولكن لماذا يا كاكه شاه؟ سألوه فقال لمستقبله: أولا أنا لم آتِ في عزومة لك، ثانيا كيف لي أن أقبل شقتك وطعامك وأنت طرف في الخلاف فأكون عادلا في حكمي؟

أروي هذه النادرة وفي ذاكرتي تتأجج مروية أخرى من عصر صدر الإسلام: احتج الإمام علي بن أبي طالب حين خاطبه "إن لم تخذلني الذاكرة" عمر الفاروق خلال عملية تحكيم بعبارة: تفضل يا أبا الحسن واجلس هنا. فقال له علي (ما عَدِلْتَ يا بن الخطاب حين خاطبتني بكنيتي ودعوتني للجلوس ولم تفعل مثل ذلك مع خصمي..) لمَ العجب من المقارنة والتاريخ يقول أن الكرد هم شركاء العرب إلى جانب شعوب شرقية أخرى في بناء الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة في عصر بني العباس ؟

١٢٠-إن شاء الله :

خرج رجل ليشتري حمارا فلقيه صديق له في الطريق وسأله إلى أين هو ذاهب فقال: إلى السوق لأشتري حمارا. فقال له صديقه: قل إن شاء

الله! فقال الرجل ليس ههنا موضع إن شاء الله، فالدراهم في جيبي والحمار في السوق. وبينما هو في السوق يبحث عن حمار جيد سرقت منه نقوده فرجع خائبا إلى داره فلقيه صديقه فقال له: ما صنعت؟ فقال الرجل: سرقت نقودي إن شاء الله!

١٢١–الكاتب الأعجمي :

حضر رجل من كبار كتاب العجم يعرف بأبي العباس بن درستويه مجلس أبي الفرج محمد بن العباس للعزاء بأبيه وقد ورد كتاب فيه نعيه من أحواز البصرة "الأهواز حاليا". فلما جلس ابن درستويه جعل يتباكى ثم قال: لعل كتاب النعي مكذوب! فقال له أبو الفرج: بل وردتنا عدة كتب. فقال الأعجمي: دع عنك هذا وقل، هل ورد كتاب النعي بخط المرحوم نفسه؟

١٢٢–ألوط خلق الله :

ادعى رجل النبوة في أيام المأمون فقال الخليفة لوزيره يحيى بن أكثم امض بنا متنكرين حتى ننظر إلى هذا المتنبي والى دعواه. فركبا ومعهما خادم حتى دخلا عليه وقالا إنهما يريدان أن يسلما على يديه فجلس المأمون على يساره ويحيى على يمينه فسأله المأمون: إلى من بعثت. فقال: إلى الناس كافة. قال ومن يأتيك بالوحي؟ قال: جبريل وقد كان عندي قبل ساعة. فسأله: وبماذا أوحى إليك؟ قال: أوحى إلي أنه سيدخل عليَّ رجلان فيجلس أحدهما على يميني والآخر على يساري وإن الذي على

يساري هو ألوط خلق الله. فقال المأمون ساخرا: أشهد أن لا الله إلا الله وأنك رسول الله. ثم خرجا من عنده يتضاحكان.

٣٣- للرجال والنساء فقط

الحلقة الأخيرة من البرنامج التلفزي الفضائي الجديد "للنساء فقط" كانت نقلة نوعية ومحطة مهمة سيتوقف عندها من سيؤرخون لأعمال جماهيرية من هذا الطراز. فقد استضافت مقدمة ومعدة البرنامج الإعلامية الأردنية القديرة السيدة منتهى الرمحي ثلاث سيدات عربيات من لبنان والكويت ومصر وكن متخصصات في علم النفس وبسطت أمامهن ملف الحلقة. كان الموضوع متعلقا بالعلاقات العاطفية والجنسية بين الرجل والمرأة وانعكاسات مشكلات تلك العلاقات على الفرد والأسرة والمجتمع. كانت الحلقة ناجحة من حيث إدارتها ورسم الخطوط العريضة لحواراتها ومفاصلها، كما كانت مفيدة لجهة تسليط الأضواء العلمية وبقوة على قضية مهمة طالما اعتبرها التقليديون والسلفيون تابوها محظورا لا يجوز الاقتراب منه على الإطلاق. لقد شاهدنا وسمعنا حوارات مرموقة ونظيفة وعلمية حول مواضيع يجهلها الناس العاديون بل وأغلب أفراد النخبة. فمن كان يجرؤ على التساؤل أو الخوض في مواضيع كالذبول والجفاف العاطفي أو القذف السريع وشدة الرغبة أو ضمورها وانحرافها وعن التقليد الشرقي المشهور "ليلة الدُخلة" والذي هو نوع من "الاغتصاب الشرعي" إن صح التعبير، وغالبا ما ينتهي بأهازيج مسعورة وإطلاق رصاص في الهواء وهتاف الرجال المتحلقين بعيون لامعة حول العريس "أذبح لها القطة!!

سمعنا واستفدنا الكثير عن كيفية المحافظة على الحب بين الزوجين، وعن ثقافة الطفل الجنسية وضرورة تنشئته تنشئة صحيحة بعيدة عن الكذب والكتمان والقمع العنيف وعن الطرق التي يمكن للوالدين من خلالها الإجابة على تساؤلات الأطفال حول الوجود والحب والولادة..

حكت السيدات الفاضلات الثلاث عن أمثلة وحالات جنسية لنساء مرت عليهن في عياداتهن أو في حياتهن وأجبن على الكثير من التساؤلات بجرأة لا ريب أنها جعلت شَعر بعض المحافظين وذوي الفكر الذكوري الرجعي يقف وجلودهم تكزبر، ويمكن لنا أن نتخيل هؤلاء وهو يصبون جام لعناتهم وشتائمهم على هذه "الأبالسة التي هربت من قاع جهنم إلى شاشات التلفزيون وجاءت لكي تفسد مجتمعاتنا النقية التقية!" وكأن هذه المجتمعات بقي فيها ما يمكن إفساده بعد أن دار شيطان النفط والدولارات ونمط الحياة الأمريكي دورته الكبرى وفاض!

وقد تدخل عدد من المشاهدين وكانوا من الذكور طبعا، فمن ستجرؤ من نسائنا على رفع سماعة الهاتف والكلام في موضوع كهذا، ودعا أحد المتدخلين إلى استضافة رجل واحد "على الأقل" في البرنامج، ولكن متدخلا آخر رفض الفكرة من موقع التضامن مع النساء والخوف على مشروعهن الجميل من مؤامرات الرجل وسوطه الذي لا يرحم ولا يدع رحمة الله تأتي! والواقع فإن الرجال في عالمنا العربي بحاجة لا تقل إلحاحا عن حاجة النساء إلى برنامج علمي وجريء كهذا. فهم غلابة ومساكين ولديهم من المشاكل الجنسية أضعاف ما لدى النساء، ولكن العجرفة الذكورية ومحاولات الحفاظ على مظاهر التقى والفحولة هي التي تضع على وجوههم أقنعة سميكة من الجهل والعناد إلا من رحم ربك من ذوي الأرواح العظيمة

والقوة المعنوية المبدعة. ويمكن، على ضوء ما تقدم، أن نقترح على المهتمين بالموضوع برنامجا يكون اسمه مثلا "للرجال فقط" كخطوة أولى نحو برنامج موحد يعكس الحياة في ثرائها وتنوعها وعمقها وغرابتها في حلاوتها وجمالها وقسوتها وقبحها ويكون اسمه "للرجال والنساء فقط ".

وختاما، أصارح القارئ بأنني بمقدار ما كنت سعيدا كمشاهد بسيط بهذا الإنجاز الصغير في حجمه والكبير في مغزاه فقد كنت قلقا طوال مدة بث البرنامج من تدخل أحد القادمين من العصر الحجري ليقلب الطاولة على رؤوس الجميع ويطلق سيلا من لعناته وتكفيراته دفاعا عن فحولة جسدية وتعفف ظاهري كاذب لم يأمر بهما دين ولا ديان وانحيازا لقوة عضلية نجد مثيلها وأشد منها لدى البغال والخيول دع عنك الأسود والتماسيح فلماذا يذبحون القطط في الصعيد يا سيدتي؟

١٢٣- تساوينا :

سأل أبو نؤاس أحد الوراقين الذين كانوا يكتبون في حانوت أبي داود: أي أسن " أكبر في العمر" أنت أم أخوك؟ فقال له الوراق: إذا جاء شهر رمضان استوينا!

١٢٤- بحذف النقطة :

قرأ القطربلي بيت الأعشى على مسمع أبي العباس فقال:

فإن كنت في حب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

فقال له أبو العباس :

رب بيتك! هل رأيت حبا ثمانين قامة ؟ إنما هو جب!

١٢٥- أجور السفر :

كان في زمن المهدي رجل ادعى النبوة فأحضروه إلى المهدي فقال له: ما أنت؟ قال: نبي. قال: إلى من بعثت؟ فقال له: ما أكثر فضولك! أيش عليك أنت؟ قال الخليفة: قل وإلا أمرت بقتلك. فال الرجل: بعثت إلى أهل خراسان. قال الخليفة: و لم لم تسافر إلى هناك. فقال له: ما معي نفقة ولا أجور السفر.

٣٤- الفاسية والفاسيون.

لا علاقة للموضوع بمدينة فاس المغربية وأهلها الطيبين بل بالفاشية والفاشيون. كنت قد سمعت قبل عدة أشهر حاكما عربيا يهتم كثيرا بمواهبه الثقافية وهو يستعمل في أحد أحاديثه الصحافية كلمة الفاسية بدلا من الفاشية واعتقدت حينها أن الموضوع لا يخلو من تلك النزعة التي تريد تعريب كل شيء في الوجود بما في ذلك الكاتب شكسبير على أساس أن اسمه الحقيقي في زعم الزاعمين هو " شيخ زبير "

وقبل عدة أيام وخلال تصفحي لكتاب السنة الثالثة للتعليم الثانوي/ العلمي السويسري باللغة الفرنسية وهو من تأليف جاك مرساي ص ١٥٤ وقعت على صفحات مخصصة لتاريخ الحركة الفاشية التي كما

يشرح الكتاب المذكور ولدت كاصطلاح في نهايات القرن الثامن عشر كحركة ثورية للفلاحين والمزارعين في جنوب إيطاليا ثم ولدت ثانية في سنة ١٩١٤ ولكن كحركة قومية (ناسيونالست) والكلمة الأخيرة تترجم أحيانا خطأً على اعتبار أنها تعني "الوطني أو الوطنية" والصحيح هو أن كلمة (باتريوتيك) هي التي تقابل "الوطنية" وليست الكلمة الأولى. وفي ذلك الموضوع في الكتاب "السويسري/ الفرنسي" وجدت أن شعار تلك الحركة هو الفأس. والأكثر إدهاشا هو أن أسم الفاس باللغة الفرنسية هو (فاسو) ومع أداة التعريف تكون (لو فاسو) وبما أن الكلمة مذكر فيمكن توقع أن تكون في اللغة الإيطالية (إل فاسو) وعلى الزاوية اليسرى من أعلى الصفحة الأولى من الموضوع ثمة صورة ملونة لشعار الحركة الفاشية وهو عبارة عن قبضة تحمل فأسا تطلع من ألسنة اللهب الحمراء.

وللدقة، فالفأس الإيطالية، ليست كتلك التي لها شفرة بالعرض التي يستعملها الفلاح في بعض البلدان العربية بل هي طولية الشفرة وأقرب إلى ما يسميه العراقيون وبعض الخليجيين " الطبر". ولو أن موسوليني أسس حركته بشعارها هذا في العراق لما نجا من لقب "أبو طبر" والكنية الأخيرة تعود إلى قاتل محترف كانت له صولات وجولات في بغداد السبعينات من القرن الماضي و يقال - والعهدة على الراوي — أن أبو طبر البغدادي لم يكن أكثر من دمية أو فزاعة مفتعلة صنعها النظام الحاكم أيام ذاك وأطلقها في مدينة بغداد لإرعاب الناس.

إذن فالحاكم العربي الذي ذكر أن اسم الفاشيين الصحيح هو الفاسيين لم يكن يبالغ ولا كان يحاول تعريب موسليني فلله الحمد ما أكثر أمثاله في عالمنا العربي المضروب بألف فأس وفأس والذين نتمنى لهم نهاية كنهايته. هل تعرفون كيف انتهى زعيم النظام الفاسي أو الفاشي بعد هزيمته في الحرب الغربية العالمية الثانية؟ لقد هاجمته الجماهير الثائرة المعادية للفاسية أو الفاشية لا فرق، وألقت القبض عليه وعلى عشيقته ثم علقتهما معا في قلب مدينة روما ولا ندري على جهة اليقين إن كانا قد ذاقا طعم الفؤوس أم لا.

كل هذا بخصوص المصادفات على مستوى الأسماء والأمور المتعلقة بالشكليات، أما لو تمعنا في أعماق الموضوع وتفحصنا مضامينه لوجدنا الكثير من أوجه الشبه بين فاسيينا وفاشييهم فهم جميعا يحتجون ويفاخرون بالعرق والعنصر، ويعطون له الأولوية في التقييم الإنساني حيث كل ما هو ليس آريا أبيض يعتبر من وجهة نظر الهتلريين والموسلينيين خارج دائرة البشر والحضارة. أما الجماعة العنصريون "تبعنا" فهم يفكرون على المنوال نفسه. وهم جميعا يتشابهون من حيث دمويتهم وقسوتهم ولكن مع ذلك يمكنك – أيها القارئ الكريم - أن تجد فرقا واحدا مثلا بين هتلرهم و هتلرنا. فالأول فعل كل ما فعل لمصلحة ألمانيا ومن أجل الكرامة والكبرياء الألمانية وسعادة الألمان حتى بلغ به الأمر أنه جعل ألمانيا في التحية والشعارات تحت الشمس ولاشيء فوقها غير الشمس. أما هتلرنا فقد فعل كل ما فعل من أجل ذاته النرجسية الوارمة فأذل الناس أكثر مما أذلهم استعمار أجنبي أو غزاة مجتاحون و لم يبقَ من

الوطن والتاريخ والجغرافية والثروات على يديه إلا الرماد، رماد تستعر تحته جمرة المقاومة ضد كل من يرفعون الفؤوس في مواجهة اللحم البشري.

١٢٦- سخام الوجه :

كان سعيد بن سنان مؤذنا بجامع حمص وكان شيخا صالحا يسحر الناس في رمضان "يوقظهم للسحور" فيقول في تسحيره:

استحثوا قديراتكم وصحونكم وعجلوا في أكلكم قبل أن يسخم الله وجوهكم..

١٢٧- حوار الشمال والجنوب :

كان لرجل غني من أهل البصرة غلام زنجي وجارية رومية شقراء وذات يوم دخل الرجل ومعه ضيف فضبطا الغلام وهو "يفجر" بالجارية الرومية فسأل الضيف الرجل البصري: ماذا يفعل غلامك بالجارية؟

فقال البصري: يولج الليل في النهار!

٣٥- عدالة الذئاب البشرية.

تناقلت وسائل الإعلام قبل أيام قليلة خبرا مفاده أن محكمة قبلية في الباكستان أصدرت حكما عجيبا ولا إنسانيا على شقيقة شخص متهم بإقامة علاقة جنسية سرية مع امرأة يقضي بأن يغتصب أربعة رجال من قبيلة المرأة "ذات العلاقة السرية" علناً وأمام الجمهور تلك الفتاة البريئة

والتي لم تتجاوز بعد الثامنة عشرة من عمرها وبعد أن نفذ الحكم أعيدت الفتاة المغتصبة إلى قبيلتها ولكن عارية. هذا الخبر الذي توقفت عنده وسائل الإعلام العالمية بدهشة واستغراب وإدانة يصلح ليكون مناسبة طيبة لتجريب طريقة التفكير النقدي ومحاولة الغوص في عمق الحدث المأساوي بدلا من استهلاكه ببلادة وسطحية كأي نوع من الكرزات.

يمكن النظر إلى هذا الخبر/ الحدث مثلا كفضيحة إجرامية لا سابقة لها في تاريخ الإنسان واستثناء صادر عن وضع استثنائي لمجتمع استثنائي. ولكن وقائع التاريخ تدحض هذه النظرة تماما إذ أن تاريخ الإنسان ليس على تلك الدرجة العالية من النقاء والنظافة فجرائم اغتصاب النساء والأطفال تكاد ان تكون عادة يومية وفي المجتمعات التي تسمى متطورة والمتخلفة على حد سواء. و "ليلة الدخلة" في الزواج الشرعي الديني والمدني في أغلب مجتمعات العالم أشبه بعملية اغتصاب لتأكيد فحولة الذكر على المستوى الفردي وليكن بعد ذلك مخنثا على المستوى العام وبلا رجولة أمام السلطان الجائر أو الغزاة الأجانب! دع عنك ما تحفل به كتب التاريخ والتراث عن مذابح وجرائم جنسية تقشعر لهولها الأبدان ومن أشهرها جرائم الأمير الأسطوري الدموي شهريار الذي كان يغتصب ويقتل امرأة كل ليلة حتى وصل الدور إلى شهرزاد فتوقف عن سفك الدم المؤنث. والغريب أن جهود الفدائية "شهرزار" لم تفلح في إنقاذ بنات جنسها فحسب بل إنها تفضلت على المجرم شهريار نفسه فجعلت الناس تنسى جرائمه ولا تتذكر منه فقط إلا ذلك الأمير البدين والذي يقضي ساعات الليل فاتحاً فمه كأي أبله في سوق الدجاج مذهولا بخرافات خيال شهرزاد الخصب حتى الجنون!

ويمكن النظر إلى هذا الخبر كدليل على التخلف الحضاري لعالمنا العربي والإسلامي والشرقي بعامة الذي لا شفاء منه وهذه النظرة القادمة من عقل مصاب بالدونية ومطعم بعقد النقص ينسى أصحابه أن الفلاح الإنجليزي كان قبل قرنين من الزمان يربط زوجته من عنقها بحبل ويقودها صباحا إلى سوق البهائم ليبيعها هناك. أما في الحروب الصليبية فقد انتشرت في أوروبا الغربية صناعة ما سمي آنذاك حزام العفة (لا سنتور دي شازتيت) وهو حزام بقفل ومفتاح يربطه المقاتل الصليبي حول "وسط" زوجته أو بناته ثم يقفله ويضع المفتاح في جيبه قبل أن يذهب إلى أداء "الحرب المقدسة! وهكذا فالبشر سواء وإنما تولدت الفروق بينهم بفعل التطور والصعود الحضاري والخروج من مستنقعات الركود والنعاس الاجتماعي بفعل الرجات والاكتشافات والتمردات والثورات الفكرية والفنية والأدبية وأخيرا السياسية..

ثمة أيضا نظرة تبحث عن عدالة لا تخلو من السذاجة والسخرية تذهب إلى القول (إذا كان لا بد من معاقبة الشاب الذي أقام علاقة جنسية سرية مع تلك المرأة فلماذا لم تنفذ العقوبة به هو كمرتكب للجرم؟) وهذه النظرة ليست بعيدة عن عدالة الذئاب البشرية التي حكمت باغتصاب الفتاة لأنها ترد على الخطأ الإنساني بفعل وحشي ضد حيوان (إنسان جرد من إنسانيته قسرا) وليس بعقوبة ذات بعد تربوي ضد إنسان مخطئ إذا ما اعتبرنا العلاقة الغرامية السرية خطأ.

ولكن ، إلى أية درجة ، يمكن اعتبار هذه الجريمة البشعة مثالا مقطوعا لا نظير له؟ أليس ممكنا الاعتقاد بأن هناك الكثير من الجرائم المشابهة وربما الأكثر بشاعة ولكنها لم تحظ باهتمام مشابه لسبب بسيط هو أنها لم

تصل إلى خراطيم وعدسات وسائل الإعلام العالمية؟ ولكن أين الحكومة والدولة الحديثة في هذا الإطار؟ ما فائدة القنبلة النووية التي صنعها العلماء وأدخلت الباكستان إلى نادي الأقوياء النوويين إذا كان هذه الحادثة البربرية قد أخرجتها كدولة وقبائل من دائرة العدالة الإنسانية وقذفت بها في حضيض عدالة الذئاب البشرية؟ أي عقوبة تقترح أيها القارئ الكريم أن يحكم بها على أولئك الشيوخ الذين أصدروا حكم الاغتصاب الجماعي العلني بحق الفتاة وعلى الرجال الأربعة الذين نفذوه؟ اقترح ما تشاء لكن بشرط البقاء في الدائرة الأولى، دائرة العدالة الإنسانية!

١٢٨- كفاح مسلح :

هاجم رجلان قافلة فيها ستون رجلا فأخذوا مالهم وثيابهم فقيل لهم: كيف غلبكم رجلا وانتم ستون؟

فقال أحدهم: أحاط بنا أحدهم وسلبنا الآخر مالنا، فماذا كان بوسعنا أن نفعل؟

١٢٩- الغائب والشاهد :

حدثنا أبو بكر النقاش قال: كتب كاتب منصور بن النعمان إليه من البصرة أنه أصاب لصا "ألقى القبض عليه" فكره الإقدام على قطع يده دون استطلاع أمره خصوصا وأن اللص خياط يتكسب بيده. فكتب له منصور: اقطع رجله ودع يده! فكتب إليه كاتبه: ولكن الله أمر بغير

ذلك. فرد عليه القاضي منصور بن النعمان: انفذ ما أمرتك به فالغائب يرى ما يراه الشاهد!!

١٣٠- نبي في السجن :

روى أبو الطيب اليزيدي: ادعى رجل النبوة أيام المهدي فجيء به إليه فسأله "هل أنت نبي فعلا؟" قال : نعم. فقال له: وإلى من بعثت؟ فقال الرجل: وهل تركتموني أذهب إلى أحد فساعة بعثت وضعتموني في السجن.

١٣١- اعتذار حقيقي:

اتهم رجل مزبدا الظريف بشيء فجاء يعتذر إليه ويقول: مسخني الله كلبا أعض عراقيب الملائكة يوم القيامة إن كنت فعلت هذا الذي تتهمني به.

١٣٢ ـ نحلتها تطليقة :

زفت امرأة إلى مزبد فأتته الماشطة وهي تجلي وقالت له: انحلها. أي امنح عروستك منحة أو هدية. فقال مزبد: نحلتها تطليقة!

٣٦- الوهراني والسخرية السوداء.

قد لا نجد مثيلا في الأدب العربي القديم لأدب الشيخ ركن الدين الوهراني الذي عاش في القرن السادس الهجري المتزامن مع السادس عشر

الميلادي. وكما يشير اسمه فقد ولد في مدينة "وهران" ولكنه عاش معظم عمره في مصر وأقام في الشام في طريقه إلى عاصمة الإمبراطورية العربية الإسلامية "بغداد" التي كانت تعيش فترة أفولها الحضاري في عهد الخليفة المستضيء بالله. لم يترك الوهراني الكثير من المؤلفات بل لقد جمعت المقامات والمنامات والرسائل التي كتبها في مجلد واحد صدر قبل بضعة أعوام.

والوهراني في كل ما كتب يسخر بمرارة وجرأة مدهشة من الناس والزمان والظواهر الفاسدة والذات فلا شيء خارج دائرة لسانه السليط ونقده العميق الذي لم يستثنِ شيئا أو أحدا حتى الوهراني نفسه ولقد نقل قول أحدهم في حقه بأنه رغم تفاهته (يتمكتب ويتمشعر) أي يكتب النثر ويقول الشعر. كما لم يسلم من لسانه الصوفية ورجال الدين الذين قال عنهم (هربوا من كد الصنائع والأعمال إلى الزوايا المساجد والمشاهد بحجة العبادة والانقطاع فلا يزال أحدهم يأكل وينام حتى يموت.. إنهم كالخروع في البستان يشرب الماء ويضيق المكان..). إنها سخرية تدفع القارئ أحيانا إلى الضحك بصخب والى القهقهة في البداية وبعدها إلى الغرق في التفكير العميق في ما هو تحت السطح. غير أن مشكلة القارئ المعاصر هو أنه قد لا يفهم الكثير من تفاصيل الحياة اليومية التي عاشها الوهراني واللغة الإيحائية أو المباشرة التي كتب بها. ومما توقفت عنده في قراءتي للوهراني وشعرت بأنه حي وذو علاقة بزماننا العناوين التالية أقبسها هنا تحية لروح الشيخ الوهراني:

في المنام الكبير الذي وصف فيه المحشر والعالم الآخر وما حدث له ولصاحبه عند الحوض وكيف شاهد أربعا من الشخصيات التاريخية وهم

يرقصون و (يتزهزون) فرحا بغفران ذنوب أحد كبار المذنبين تفاؤلا بأن المغفرة الربانية قد تشملهم وهؤلاء الأربعة هم: عبد الرحمن بن ملجم قاتل الخليفة الرابع الأمام علي بن أبي طالب، والشمر بن ذي الجوشن قاتل ولده الحسين وصحبه، والحجاج بن يوسف الثقفي حاكم العراق الدموي في عهد بني أمية، والشيخ أبو مرة "إبليس"! وكيف أن عزرائيل كان يتشفع ويهتم بالأطباء لأنهم كانوا يسهلون عمله في الدنيا حين يقوم باختطاف أرواح الناس في هجاء مبطن لأطباء عصره. أما أطرف ملحة في هذا المنام فهي المتعلقة باللقاء بالملاك المكلف بجهنم واسمه "مالك خازن النار" وكيف حاول الوهراني ملاطفته ومناداته باسم دلع خاص هو "مال" اختصرا وترخيما لمالك! ومن خروقاته التي يمكن وصفها بالسوريالية اليوم كتابته مقامة على لسان جامع دمشق يلقي فيها الجامع خطبة في مؤتمر للجوامع. وله خطبة أخرى على لسان مئذنة، وكتب رسالة على لسان كلب موجهة إلى كلب آخر. ومن أطرف ما كتب مقامة بعنوان "شمس الخلافة" وهي عن عجوز مغربية كانت مكلفة بتربية خمسين فتاة جاءها شيخ (قد جمع بين الجفا وغلظ القفا..) يطلب غرفة للكراء (فتوسمت فيه عظيم الآلة فسرى في خيالها وسال عليه ريالها..) وقررت أن تصنع منه فقيها فتزوجته ثم سهرت على تعليمه الفقه والاهتمام بمظهره ليكون بمظهر الفقهاء ولكنه فشل في مهنته هذه فاشتغل في مهنة "العونية" التي ربما كانت مهنة غير شريفة تعتمد على القوة البدنية والاعتداء على الناس فنجح فيها أيما نجاح (وصار الشيخ زوج العلافة يلقب بشمس الخلافة). وللوهراني مقامة عنوانها (نسخة عهد تقليد قاضي قضاة الفاسقين) يتعهد فيها أمام الملأ باسم (القاضي الأجم فخر القيادة وتاجها، وقطب المعاصي وسراجها، وعز العلوق وعمادها، ركن الليا...ـــة وزنادها، جمال

الفسقة وعينها، وشرف الزناة وزينها..) ومن نماذج هجائه لتصرفات الحكام نختم بقوله (ثم أن الملك المعظم – أدام الله أيامه – كما تعلم، ينهب الأيام نهبا، ويقطع الأوقات إلى اللذات وثبا، أنفق بعد وصوله إلى ديار مصر نحواً من مائة وسبعين ألف دينار، كأنما وقعت في بئر، فلم يظهر لها حس ولا خبر، إلا على المساخر والقوادين..) وكما ظلت عبارة (لا حس ولا خبر) حية في اللهجة المعاصرة المصرية، سيظل أدب الوهراني الساخر، مُرا وحيًا وكاسر، يسوط الظالمين والظلام بشدة ويلقي أحجار هجائه بحدة، في مستنقع السائد الراكد، فيطري السليم وينفي الفاسد.

١٣٣- ابن الجصاص والحورية :

قال ابن الجصاص يوما: اللهم امسخني حورية وزوجني من عمر بن الخطاب. فسمعته زوجته فقالت له: سل الله أن يزوجك من النبي "ص" فقال ابن الجصاص: لا أحب أن أكون ضرة لعائشة "رض ".

١٣٤- شريعة الرقة :

بلغنا عن نصر بن مقبل وكان عامل هارون الرشيد على الرقة أنه أمر بجلد نعجة الحد الشرعي فقالوا له إنها بهيمة. فقال: الحدود لا تعطل وإن عطلتها فبئس الوالي أنا. وعلم هارون الرشيد بخبره فاستدعاه وسأله: كيف بصرك بالحكم على النعجة؟ فقال الوالي نصر: الناس والبهائم في

الحق سواء ولو وجب الحق على بهيمة وكانت أختي لجلدتها الحد الشرعي.

١٣٥- مزبد والمنخل :

وضعت امرأة مزبد المنخل على فراش نومه فلما جاء ورآه تعلق بوتد كان في داره فسأله امرأته لماذا علق نفسه فقال: وجدت المنخل في موضعي فصرت في موضعه .

١٣٦- البرد والسعة :

اشترى مزبد جارية فسأل عنها كيف هي فقال: فيها خصلتان من خصال الجنة: البرد والسعة!

٣٧- أخلاقيات القتال!

ربما بدا هذا العنوان متناقضا في نظر البعض، على اعتبار أن القتال (وجذر الكلمة اللغوي هو: قتل) والأخلاق هما على طرفي نقيض. وهذه نظرة على قدر كبير من السطحية ومجافاة الواقع. صحيح أن أسوأ اختراع ومهنة اخترعها الإنسان هي الحرب بوصفها فعل قتل، ولكنها أيضا فعل دفاع مشروع عن النفس، بمعنى أنها فعل دفاع عن الحياة. هنا فقط تستقيم وتنفح جدلية أخلاقية ولا أخلاقية الحرب. رغم ذلك، وبسببه عموما، يمكن الاعتقاد بأن الحرب، وبالتالي القتال، تنطويان ضمناً على

قدر كبير من الوعي الزائف الذي ندعوه أدلوجة (حسب تعريب المفكر المغربي عبد الله العروي لكلمة أيديولوجيا) لأن كل طرف من الأطراف المشاركة في الحرب تزعم وتثبت الحق لنفسها وتنفيه عن الطرف أو الاطراف الأخرى. ومع ذلك، وفي لغة التفاصيل الدقيقة يمكننا الكلام عن البعد الأخلاقي للحرب بوصفها شراً لا بد منه أولا، وبوصفها ممارسة لأرقى درجات التضحية بالذات من أجل الآخر الذي قد يكون اسمه الوطن أو الشعب أو المعتقد ثانيا. إن الخبرة البشرية المتراكمة من ميادين القتال طوال قرون وقرون ولدت آلاف القواعد والأعراف التي أصبحت في عصرنا الحاضر معاهدات ملزمة وواجبة الاحترام والمراعاة غير أن الخروقات المسجلة لا تدل على أن البشر قد انهوا عصر الوحشية تماما، لا بل أن أقوى دولة في العالم طالبت المجتمع الدولي وأعلى مؤسسة رسمية فيه وهي الأمم المتحدة قبل أيام بأن يعفى جنودها وضباطها من المتابعات القضائية في حال ارتكبوا جرائم حرب أو تجاوزات معينة للقواعد والمعاهدات الدولية ولقد كان لها ما أرادت فقد أجيبت إلى مطلبها وأعطي عسكريوها فترة حصانة لمدة عام قابلة للتجديد. فإذا كانت هذه الدولة، وهي الولايات المتحدة، تزعم لنفسها دور الرائد والمثال الديموقراطي و"محور الخير" الذي ينبغي أن يدور الكون حوله وتطالب علنا بحصانة دولية لمجرميها فكيف ينبغي أن يتصرف أعداؤها؟ إن صغار المحاربين من عناصر المليشيات والعصابات والمنظمات الثورية والدينية لهم خروقاتهم أيضا حين يخوضون حروبهم، وليس ثمة ما هو أبشع من ممارسات القتل الدموي للأطفال والناس والشيوخ ذبحا على أيدي متعصبين متدينين أو غير متدينين مهووسين بالدم البشري وإلحاق أقصى درجات الألم والإذلال بضحاياهم والتلذذ بتلك الممارسات. وحتى هنا،

في حروب الصغار، لا نعدم أن نجد أمثلة مرموقة على الشفافية الإنسانية والقلبية الرحيمة والروح الجميل الذي يرفض تجاوز الخطوط الحمراء الذي خطها الشرف والجمال والحق. هاك – عزيزي القارئ – هذا المثال المفعم بالمعنى والعمق الأخلاقي :

قامت الفدائية اللبنانية اليسارية سهى بشارة سنة ١٩٨٨بعملية فدائية في المناطق التي كانت تحتلها الدولة الصهيونية في جنوب لبنان، حاولت فيها اغتيال قائد المليشيات العميلة لإسرائيل أنطوان لحد أصابته فيها بجراح بالغة، ثم أمضت عشرة أعوام من عمرها في سجون الاحتلال. تروي سهى في كتابها (مقاوِمة / ص١٢٢) أن فرصة رائعة قد سنحت لها قبل بضعة أيام من الموعد المحدد لتنفيذ العملية وكانت قد تسللت إلى دار المستهدف كمدرسة للتمارين الرياضية. تقول سهى أن الجنرال لحد كان يجلس ذات يوم أمامها يتناول طعامه وقد أعطاها ظهره وكان سلاحها في حوزتها (أدخلتُ يدي في المحفظة التي أحملها إلى جانبي وأخرجتُ.. منديلا. تحسستُ حجم المسدس الثقيل لصق خاصرتي، غير أني ألفيتني عاجزة عن التماسك. ليس هكذا، ليس وهو يتناول الطعام، أيا يكن، ليس من الخلف، من الظهر. كنت عاجزة عن قتل عدوي في ظروف مماثلة..) رفضت الفدائية قتل عدوها مع أن الظروف كانت لصالحها، وأن احتمال قتله كان أكيدا جداً لسبب بسيط هو أنها لا تريد تلويث صورة المقاتل الأخلاقي من أجل قضية عادلة بالغدر والطعن من الخلف. كل قوانين الحرب كانت تجيز لها قتله في تلك الظروف ولكنها رفضت وقالت: لا. أيا يكن، ليس وهو يتناول الطعام، ليس من الخلف، ليس من الظهر!!

ما رأي الذين يدافعون عن بشاعات القتل المنتشرة اليوم في الأسواق الشعبية والقرى النائية ويحاولون تبريرها دينياً أو دنيوياً بهذا المثال الإنساني المتألق؟ مارأي المهووسين بقوة المثال المقدس والراغبين بدخول الجنة على جثث الأطفال والنساء والشيوخ؟

١٣٧- جارية فقيهة :

عرض على المعتصم جاريتان بكر وثيب فمال الخليفة إلى الجارية البكر فقالت الثيب: ما بيننا إلا يوم واحد يا أمير المؤمنين. فقالت البكر: وإن يوما عند ربك كألف عام مما تعدون/ سورة الحج ٤٧.

١٣٨- دعاء مستجاب :

روى أبو عمر الزاهد أن إعرابياً دعا ربه فقال: اللهم أمتني ميتة أبي فسأله أحدهم وكيف مات أبوك؟ فقال: أكل بذجاً وشرب مشعلا ونام في الشمس فلقي الله وهو شبعان ريان دفيان[١٢].

١٣٩- شردنا رمضان :

في ليلة عيد الفطر صعد مزبد منارة المسجد النبوي في المدينة ثم نادى: ألا سمع سامع، إنا شردنا رمضان فمن آواه فقد برئت ذمته.

---

١٢ ــ البذج = الحمل المشوي... المشعل = زق الخمر

فسمعه الوالي فأمر بضربه مائة سوط فضرب فقال: ما أبالي، ما كنت لأدع لذمّا.

٣٨- يشعياهو يصفع القتلة!

اسمه يشعياهو ليبوبيتش وهو واحد من أهم فلاسفة القرن العشرين ولكنه غير معروف ومشهور إلا في الدوائر الأكاديمية والعلمية على الرغم من أنه يهودي وإسرائيلي! إنه فيلسوف ومثقف ذو وجدان عميق واستقامة أخلاقية جعلته معاديا أشد العداء للحركة الصهيونية ولقيادات دولة إسرائيل منذ قيامها، وهنا يكمن سر التعتيم عليه وعدم شهرته في حين حولت ماكنة الإعلام الصهيوني العالمية كُتّاب نكرات وصحافيين سذج إلى نجوم مشهورين و"عباقرة" يشار لهم بالبنان بل ودفعت بعضهم رغم ضحالة إنتاجه العلمي أو الأدبي وعدوانيته الشديدة ضد الحضارات الشرقية إلى جائزة نوبل وشقيقاتها .

قبل عدة أعوام فاز ليبوبيتش بجائزة الدولة تقديرا لمنجزاته العلمية وربما تحت وطأة الإحساس بالحرج من أن هذا الفيلسوف الكبير منح جوائز عالمية كثيرة وقُدِرَ تقديرا جزيلا خارج الكيان. غير أن رئيس الوزراء الصهيوني وكان حينها ـ إن لم تخذلني الذاكرة ـ أسحق رابين رفض حضور حفلة تسليم الجائزة احتجاجا على مواقف وآراء هذا الفيلسوف المتعاطفة مع العرب الفلسطينيين وشنت الصحافة الصهيونية العنصرية ضده حملة ضارية.

من آراء ليبوبيتش الجريئة والطريفة في آن واحد ذاك الذي أعلن فحواه في إحدى محاضراته أو أبحاثه ويقول فيه أن الجوهر الصهيوني هو القومية الشوفينية المتطرفة وإن القومية العنصرية هي الحالة الوسيطة التي تنزلق إليها المجتمعات من الحالة الإنسانية باتجاه الحالة الحيوانية!!

المؤسف أن الإعلام العربي والفلسطيني تحديدا لم يهتم بهذا الرجل إلا في النادر العزيز. واليوم، وبعد أن اقترفت دولة المجازر والتهجير والعنصرية مجزرة "حي الدرج" في مدينة غزة يعود يشعياهو ليبوبيتش من وراء الغياب، أو قل يستعاد حضوره وصوته المدوي بالرفض لدولة قتل الرضع فكيف تم ذلك؟

بعد يوم واحد على مقتلة الأطفال المريعة التي ارتكبها الطيران الصهيوني كتب الصحافي "ناحوم برنباع" في جريدة يديعوت ٧/٢٤ مقالا ورد فيه قوله (في كانون أول ١٩٥٥ كتب البروفيسور يشعياهو ليبوبيتش رسالة إلى رئيس الحكومة آنذاك دافيد بن غوريون. لقد صُدم ليبوبيتش من عدد القتلى الآخذ بالتزايد في العمليات الانتقامية التي نفذها الجيش الإسرائيلي، الذين كان من بينهم مدنيين. وآخرها كانت عملية طبريا بقيادة اريئيل شارون التي خلفت ورائها ٥٤ قتيلا في الجانب السوري. كان رد بن غوريون على ليبوبيتش، كعادته، قصيرا ويخلو من أي شك: (تلقيت كتابك وأنا لا أوافقك الرأي. لو قدموا لي كل المثاليات الإنسانية بيد، وباليد الثانية أمن إسرائيل لكنت قد اخترت أمن إسرائيل، لأنه من الحَسن أن يسود عالم السلام، المحبة، العدالة، والاستقامة ولكن من الأحسن أن نكون نحن في داخله).

يضيف الصحافي برنياع في مقالته تلك (أطْلَعْتُ شارون على الرسالة يوم أمس. أخرج نظاراته وقرأ باهتمام أقوال بن غوريون ووافق على كل كلمة وقال: هذا أيضا رأيي..)

نخلص من هذه الاستعادة إلى ثلاثة أمور تتمتع بأهمية وراهنية كما نعتقد وهي :

لم يكن بن غوريون وسلسلة الزعماء الصهاينة القتلة وصولا إلى شارون إلا أدوات عديمة الأخلاق بيد أخطبوط هائل اسمه الحركة الصهيونية، غير أن الميدان لم يكن حكرا عليهم وهذا ما يؤكده حضور أمثال الفيلسوف ليبوييتش. صحيح أن هذا الحضور ضعيف ونادر ولكنه موجود!

إن المغامرة الصهيونية بدأت بجريمة (تشريد شعب) واستمرت كجريمة (اضطهاد ما تبقى منه) وستنتهي إلى الزوال حتما، أو بكلمات دبلوماسية، أنها ستنتهي إلى الزوال بصفاتها ومقوماتها التي عرفناها بها لأنها تتناقض وطبيعة الأشياء وروح التاريخ وخصوصيات المشرق العربي، وعلى هذا فمن الخطأ أن يقوم أعداء الحركة الصهيونية ودولتها بأعمال معينة تضفي عليها صفة الضحية المهددة بالإبادة التامة. إن أعمالا دموية وغير مدروسة من قبل المقاومين لا تفعل سوى أن تطيل من عمر هذه الحركة والكيان الذي أنتجته. دع عنك أن الرد على المجرم من خلال التشبه به ليس أمرا مبررا ولا هو صائب وجدانيا.

إن التضامن الإنساني الذي يبديه المثقفون من أمثال ليبوييتش في الجانب الآخر يشكل إدانة مباشرة ووصمة عار في جبين العديدين من المثقفين

العرب والمسلمين الذين ينظرون إلى مأساة الشعب الفلسطيني نظرتهم إلى خسارة المنتخب الإيطالي لكرة القدم، هذا إذا أحسنا الظن وأهملنا ركام المقالات القذرة التي يسطرها بعضهم ضد شعب فلسطين ومقاومته، وكيف لنا أن نجرؤ على فعل ذلك وصوت ليوبيتش وأقرانه يرن في الأسماع ويصفع القتلة؟

١٤٠- سنسكريتي عربي :

دخل أبو علقمة النحوي على الطبيب "أعين" فقال له: متع الله بك، إني أكلت من لحوم هذه الجوازم فطسئت طسأة (أتخمت بالأكل) فأصابني وجع من الوالبة إلى ذات العنق، فلم يزل ينمو ويربو حتى خالط الحالب والشراسيف فهل عندك دواء؟ فقال له أعين: خذ حرقفاً وسلقفاً فزهرقه وزقزقه واغسله بماء وروث ثم اشربه. فقال أبو علقمة: لم أفهم عنك شيئا! فقال الطبيب: لقد أفهمتك كما أفهمتني!

١٤١- بلوى جاهلية :

كان حيان بن بشر قد تولى القضاء ببغداد وأصبهان وكان من رواة الحديث فروى يوما: إن عرفجة قطع أنفه يوم الكلام وكان مستمليه "كاتبه" رجلا من أهل كجة فقال له: أيها القاضي إنما هو يوم الكلاب لا يوم الكلام فغضب القاضي وأمر بحبس كاتبه فزار الناس الكاتب في السجن وسألوه عن سبب سجنه فقال لهم: قطع أنف عرفجة في الجاهلية وابتليت أنا به في الإسلام!

١٤٢ - حمار مزبد :

اشترى مزبد حماراً فقال له صاحب الحمار: ما في هذا الحمار عيب إلا إنه ناقص النفس بليد يحتاج إلى عصا. فقال مزبد: إنما كنت سأغتم لو كان يحتاج إلى بزماورد[١٣] أما العصا فأمرها سهل.

٣٩ - التجربة الإسكندنافية.

بخلاف أوربا الغربية التي خرجت أنظمتها ومجتمعاتها من مرجل الثورة الفرنسية الذي وسمها بوسم العنف والجذرية إضافة إلى مياسم أخرى، وبخلاف أوروبا الشرقية التي كانت الثورة الروسية قالبها وقلبها الحزين والتي انتهى بها الأمر إلى تكون تمرينا مأساويا على الثورة الطبقية في مجتمعات كانت تكاد تخلو من الطبقات المتجابهة كما كانت الحال في بريطانيا وفرنسا وألمانيا وعلى محاولة إقامة مجتمع المساواة المشاعي والذي يتطلب أولا وقبل كل شيء وفرة مادية مفرطة في الخيرات في حين كانت تلك المجتمعات تعيش على حافة المجاعات والأوبئة، بخلاف هذين النمطين التاريخيين تنفرد المنطقة الإسكندنافية وبجميع دولها ومجتمعاتها بميزات خاصة لا نكاد نجد لها نظيرا في أي مكان آخر إذا استثينا جمهورية إفلاطون الفاضلة.

---

١٣ ــ (البزماورد = طعام مصنوع من اللحم والبيض)

إن من المفيد لنا نحن أبناء الجنوب أو العالم الثالث (أو الرابع بموجب التصنيف الجديد للمفكر سمير أمين) التمعن بتلك الميزات والخصوصيات ودراسة تلك التجارب بعمق ومنهجية علمية والتخلي عن "الغرام القديم" باللبرالية التقليدية والنظرة الصنمية والمانوية إلى المثال الأوروبي الغربي وفرعه الأمريكي حصرا.

لقد أتيحت لي فرصة التحاور التحريري مع كاتب عراقي يقيم في النرويج منذ عدة أعوام هو الصديق حمزة الحسن الذي تفرد عن زملاء كثيرين بأنه يحاول دائما أن يتحسس موضع قدميه ويعرف أين يعيش، وكان موضوع تحاورنا حول واقع الحال السياسي والاجتماعي والثقافي القائم هناك ومن بين عدة ميزات وخصائص تميزت بها التجربة الإسكندنافية توقفنا عند:

ــ إن تجارب أنظمة الحكم في البلدان الإسكندنافية لم تستجلب من الخارج المجتمعي بواسطة خيالة نابليون أو دبابات ستالين بل كانت تلاقحا وتفاعلا مخصبا بين ما هو عام وعالمي (فلنسميه الخطوط العريضة) وبين ما هو محلي اسكندنافي ويشمل أدق التفاصيل والتي ستكون بمثابة اللحم الذي سيكسو عظام التجربة التاريخية.

إن تلك التجارب المجتمعية لم تنجم عن ثورات طبقية أو سياسية عنيفة بل كانت نتاج نمو هو أقرب إلى الطهي على نار هادئة جداً وهنا يمكننا العثور على التعليل الممكن لاستقرارها وتفتحها الإنساني. وسيكون من المشروع والمثري التساؤل عما إذا كان ممكنا لهذه التجارب الوصول إلى

حيث هي الآن لولا الحسم النهائي على المستوى القاري الذي قامت به الثورة الفرنسية لصالح الحداثة!

إن تجربة التحرر السياسي والاجتماعي والبناء العام في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى قبلها لم يقده أو يقم به السياسيون المحترفون والمصلحون الثوريون بل كان من صنع الفنانين والأدباء والعلماء بالدرجة الأولى. فالذين صنعوا مجد اسكندنافية الراهن وأسسوا مجتمعاتها المفتوحة والهادئة هم النحاتون والموسيقيون وعلماء اللغة والاجتماع والشعراء والروائيون ولا يكاد المواطن العادي يعرف اسماً واحداً مهماً من أسماء السياسيين الأكثر أهمية في حين يحتفل الناس تلقائيا أمام أنصاب وتماثيل ولوحات استذكار الفنانين والأدباء والعلماء المشهورين.

ولكن هل خلت تلك التجربة من الغث والرديء والمتخلف وغير الصحي؟ قطعا لا، إنما نحن نتحدث عن العموميات والخطوط العريضة. وثانيا: بأية شروط وتحت أية ظروف يمكن لنا "نحن" مقاربة هذه التجارب؟ هل يمكن عزل تخلف مجتمعاتنا وأنظمتنا الفاسدة عن تخلف النخب السياسية في المعارضة والحكم معا؟ هل يمكن أن نتوقع دوراً مهماً للأديب والفنان والمثقف العربي بعامة إذا كان الطاعون الإرتزاقي قد نال منه هو الآخر وحول الكثيرين من نماذجه إلى منافض رومانسية ومناديل مبللة بالدموع الثقافية على موائد الكبار؟ وهل هي ممكنة هزيمة، أو على الأقل تحييد، التأثير القاتل حضاريا للأثرياء الجدد وسماسرة النفط والطرب والرياضة والمخدرات و مَن سيقوم باجتراح هزيمتهم وانتصاره؟

وختاما: فإذا كان الإسكندنافيون ينظرون إلى الأوروبيين الجنوبيين كالفرنسيين والطليان على أنهم متخلفون وهمج فكيف ـــ بالله عليكم ـــ سينظرون إلينا نحن العالمثالثيين خصوصاً بعد أن رحلت بمجتمعاتنا إليهم نوعاً خاصا من البشر بعضهم مزودين بأرواح جرذان وجوازات دبلوماسية والبعض الآخر يستبطنون ضمائرَ تشبه أنياب الخنازير البرية وفي جيوبهم بطاقات إقامة خاصة باللجوء السياسي؟ وسلام على الاستثناءات والطيبين من هؤلاء وأولئك!

١٤٣- ليس كل الكلاب :

قال رجل لمزبد: إذا نبح عليك كلب فاقرأ آية (يا معشر الجن والأنس..) فقال مزبد له: الأفضل عندي أن تكون معي عصا فليس كل الكلاب تحفظ القرآن!

١٤٤- عشاء مزبد :

أخذ أحد الولاة مزبد وقد اتهم بشرب الخمرة فاستنكهه أي تشمم رائحة فمه فلم يجد رائحة الخمر فقال الوالي: قيئوه! فقال مزبد: ومن يضمن عشائي أصلحك الله!

١٤٥- ابن الثمانين :

قيل لمزبد أيولد لابن الثمانين ولد؟ قال: نعم. قيل له: وكيف ذلك. قال : إذا كان له جار في الثلاثين.

١٤٦- سوء المنقلب :

قيل لمزبد: ما بال حمارك يتباطأ في سيره إذا عدت به إلى المترل وحمير الناس تسرع إلى منازلهم. قال : لأنه يعرف سوء المنقلب.

٤٠- أبو العلاء الآخر

عُرف الشاعر العربي الخالد أبو العلاء المعري بنـــزعته التشاؤمية العميقة وعدائه الشديد للحروب التي كان يرى في الصراع الديني واحدا من أهم أسباب اندلاعها. هذا هو الوجه المألوف للمعري ولمنجزه الشعري في اللزوميات وغيرها والنثري في رسالة الغفران وغيرها؛ غير أن ثمة معرّيا آخر لا نكاد نعرف عنه شيئاً ألا وهو المعري داعية التسامح والمساواة بين الناس ورفض التمييز بينهم على أساس العنصر أو الدين والطائفة الدينية ونفتح قوساً هنا لنتساءل هل ثمة في عصرنا هذا دين لم يتحول إلى مجموعة طوائف؟ بمعنى هل يكفي أن يقول شخص أنه مسيحي دون أن يتبادر إلى ذهننا التساؤل عما إذا كان كاثوليكيا أو بروتستانديا أو أرثوذوكسيا والظاهرة ذاتها نلاحظها في النسيج المجتمعي لمعظم الأديان الكبيرة المعاصرة. نقرأ لأبي العلاء الأبيات التالية والتي قبسها عن ديوانه "لزوم ما لا يلزم" الأستاذ عبد المعين الملوحي في ص ١٣٤ من كتابه " مواقف إنسانية في الشعر العربي " :

وساوِ لديكَ أترابَ النصارى وعيناً من يهودَ ومسلماتِ
و مَنْ جاورتَ من حُنُف وسِربٍ صوابئ فليـــبتنَّ مكرماتَ
فإن الناس كلـــهم سوَاء وإن ذَكَتِ الحروبُ مضرمات

هذه المساواة المأمور بها في فعل "ساوِ" بين أهل الديانات الإبراهيمية الكبرى اليهودية والنصرانية والإسلام والصابئة المندائيين على اعتبار أن المذكورين أخيرا من أتباع النبي يحيى بن زكرياء والحنف التي يعني بها أهل الديانية الحنيفية وهي ديانة توحيدية كانت موجودة قبل الإسلام وتعتبر الممهدة له، هذه المساواة المعبر عنها حرفيا بشطر البيت الثالث "فإن الناس كلهم سواء" ليست بعيدة عن دعوة الإمام علي بن أبي طالب الخليفة الراشدي الرابع واليه في مصر إلى الأخذ بالعدل والمساواة بين الناس لأن واحدهم إما أن (يكون أخا لك في الدين أو نظير لك في الخلق). إن المساواة التي ينشدها ويدعو إليها بصير المعرة هي رفض من ناحية أخرى للتمييز والتمايز بين الخلق على أساس الدين والانتماء المكتسب أو الطبيعي إلى بيئة دينية معينة، ولئن كانت دعوة المعري مباشرة، تذكر التفاصيل والأسماء وتطالب بالمساواة وتلحف في الطلب، موجهة في الوقت نفسه غمزة هاجية للحرب التي تذكي نارها الأحقاد والتمايزات الطائفية والمصالح السمينة للكبار، فإن الدعوة العلوية إلى الرحمة والعدل بين الناس تضع الحاكم المسلم أمام خيارين لا ثالث لهما ببلاغة قصيرة وجزالة لا نظير لهما في لغة الضاد. فالإمام يقول أن هذا الذي أمامك- أيها الحاكم المسلم - إنسان وهو إما أن يكون أخا لك في الدين فتكون مجبراً عندها على معاملته كصنو لك في العقيدة والوقوف بين يدي ربكما وإما أن لا يكون مسلماً ولكنه بشر مثلك ونظير لك في الخلقة الآدمية وعندها تكون أيها المسلم مجبراً على معاملته كآدمي مثلك لا فرق بينك وبينه. هذا المعنى الذي طرقه المعري بأبياته والإمام علي بوصيته البليغة

يستمد نسغه النبيل من نبع ثر هو الآي القرآني الذي يقول (ولقد كرمنا بني آدم..) ولفظتا "بني آدم" تحيلان إلى الإنسان العام وليس إلى المخلوق المنظود كرقم أجوف في هذه الطائفة الدينية أو تلك. بمعنى أن الله كرم الإنسان العام و لم يحصر تكريمه بالمسلم المؤمن والمقلد للشيخ فلان أو المتبع لمذهب الشيخ علان.. وإذا كان بعض دعاة التعصب والسلفية في عصرنا "الحديث" قد اعتبر مجرد إلقاء التحية الصباحية على جاره المختلف عنه دينياً وطائفياً خطيئة لا يجب القيام بها فإن دعوة المساواة واحترام خصوصيات الناس التي أطلقها أبو العلاء قبل أكثر من ألف عام تكتسب قوة مضاعفة بفعل السبق الزماني والاستشراف التاريخي فتزيد من ألق الصورة الحقيقية وناصعة الشرف للإسلام الحنيف ديناً وتراثاً وحضارة منجزة.

وأختم ببيت رائع آخر لفيلسوف الشعرية العربية أبي العلاء يقول وسيظل يقول فيه :

كَذِبَ الظنُّ لا إمامَ سوى العقلِ مشيراً في صبحهِ والمساء.

١٤٧- شعر القاضي :

عن أبي النمري قال: تراءينا هلال شوال فرأيناه وأتينا سوار بن عبد الله القاضي لنشهد عنده بأن العيد غدا فتلقانا حاجبه وقال هل أنتم مجانين؟ الأمير لم يتخضب (يصبغ شعره) بعد و لم يتهيأ ولئن وقعت عينه عليكم ليضربنكم مائتي سوط فانطلقوا. قال النمري فانصرفنا وصام الناس يوم عيد الفطر لأن الأمير لم يختضب بعد.

١٤٨- فعلها السبع :

اعترض أسد قافلة فرآه رجل فيها فخرَّ مغشياً عليه فركبه الأسد وشد القوم بأجمعهم على السبع واستنقذوا الرجل منه وحين أفاق سألوه: ها؟ كيف أنت؟ فقال الرجل: لا بأس علي ولكن الأسد خرّى في سراويلي!

١٤٩- جبة لمزبد :

ألبس مزبدا جبة فقيل له: أتمنى أن تكون لك. فقال: نعم وأضرب عشرين سوطا. فقيل له: و لِمَ ويحك. فقال: لا يكون شيء إلا بشيء.

٤١- الحرب بين التاوي والسحّاب !

التاوي هو المؤمن بالديانة التاوية، وهذه الأخيرة هي الوحيدة التي جاءت من الفلسفة بعد تحولات تاريخية طويلة ومعقدة. من المعتقدات التاوية المتعلقة بأمور الدنيا، والتي تدخل في باب الاستذهان المقارن أو وحدة الإبداع البشري لأنها تكررت في جميع الديانات بهذا الشكل أو ذاك ، يمكننا الإشارة إلى الدعوة إلى المساواة والعدالة والجمال والسلام ومعاداة الحروب والسيطرة والاستبداد. الفقرات التالية الواردة في كتاب التاو "تاوتي تشينغ " تعطي القارئ فكرة واضحة عن هذه المعتقدات، وقد اعتمدنا على الترجمة العربية لهذا الكتاب المقدس التي قام بها أستاذنا الراحل هادي العلوي البغدادي والصادر سنة ١٩٩٥ :

كل من تحت السماء يمكنهم رؤية الجمال جمالاً لأن ثمة قبحاً / انتج ولا تملك، قُدْ ولا تسيطر/ يوم تتويج الإمبراطور أو تنصيب الوزراء، لا تبعث هدية من "اليشب" أو فصيلا من أربعة خيول، بل الزم مكانك وأظهر التاو/ عدم جمع الكنوز يمنع السرقة / العنيف يموت ميتة عنيفة/ السلام يسهل الحفاظ علية والمصائب يمكن منعها قبل أن تبدأ/ لماذا لا يعبأ الناس بالموت؟ لأن الحكام يطلبون ثمنا باهظا للحياة/ معرفة الجهل قوة وجهل المعرفة سقم / الجندي الجيد ليس عنيفاً، المنتصر الجيد ليس انتقامياً / في الجيش يقف القائد إلى اليسار ورئيس الأركان إلى اليمين، يعني هذا أن الحرب تدار على شاكلة الجنائز (...) ما الفرق إذن بين النصر والجنازة؟

أود أن يتوقف القارئ معي عند المبدأ التاوي المعادي للعنف والحروب والداعي إلى المحافظة على السلام ومنع الكوارث فهذا المبدأ الإنساني الخالد لم يرد بهذا الوضوح والقطعية بل والشفافية في أي نص قديم آخر. إنه نص تصبح الحرب بموجبه جريمة فعلاً خطيراً يهدد الحياة الإنسانية كلها ولنلاحظ أيضا الدقة في الحبكة المنطقية التي تقوم عليها هذه القناعات فهي تساوي من حيث المصير والقيمة بين المنتصر والمهزوم بين النصر والجنازة "الموت" وبين شكل الجيش والجناز. وفي آية أخرى يقول التاو: حين يجتاز الجيش غابة أو أرضاً مزروعة فإنهما تتحولان إلى أرض يباب قاحلة. الحرب بالمعنى التاوي للكلمة هي إذن خراب وموت ودمار، ولذا ينبغي الوقوف ضدها ومعاداتها. ثمة أيضا عدم التمييز في جوهر هذا المعتقد. فهو ضد الحرب سواء كانت ضدنا "ضد شعبنا" أو ضد أي شعب آخر، وهو ضدها سواء كان "جيشنا" فيها منتصرا أو

مهزوما.. وهكذا وتطبيقا لما تقدم من مبادئ ومعتقدات ستكون إجابة الإنسان التاوي إذا سئل اليوم عن رأيه في الحرب القادمة التي تهدد بشنها الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق: إنها مدانة ولا أخلاقية وأنا ضدها!

لنر الآن كيف ينظر السحاب إلى هذه الحرب القذرة والغزو الوشيك :

السحاب: صفة أطلقها العرب القدماء على الكلب المصاب بالسعار والذي ينبح ضد كل ما يراه سواء كان بشراً أو شجراً أو حجراً بل ويتجاوز ذلك إذا لم ير شيئا قربه فينبح على الغيوم والسحاب التي يراها في السماء، ومن هنا جاء اسمه "السحاب" أي النابح على السحاب.

إن "السحابين" في أيامنا هذه، وفيما تخيم أجواء جريمة كبرى وحرب أقرب إلى المجزرة الجماعية النووية بحق الشعب العراقي راحوا يخطبون ويروجون ويزعقون بحماس تأييداً لشن هذه الحرب، بل وقد تطوع بعضهم للمشاركة فيها فعليا لتحقيق أهداف سياسية شخصية حرمهم من تحقيقها حكم مستبد متخلف دموي. المأساة الحقيقية ليست في كون هؤلاء يجهلون حقيقة ما يجري وقد ينتهي باحتلال بلدهم، بل هي في كونهم يعرفون هذا وسواه الكثير فأي تبرير أخلاقي أو حضاري يمكن أن يغلفوا به جشعهم وأرواحهم القزمة؟ أليست هذه هي أرواح السادة اللصوص الذين حدثنا عنهم التاو:[١٤]

---

١٤ ــ هامش : هذا النص هو المقالة الأسبوعية التي ينشرها الكاتب كل يوم ثلاثاء في ركن (زمان جديد) من جريدة " الزمان " على الصفحة الأخيرة منذ عدة أشهر

البعض يلبسون الثياب الفاخرة

ويحملون الصوارم

ولديهم أكثر مما يستعملون

أولئك هم السادة اللصوص.

هامش آخر: كتب لي إعلامي عراقي يدير موقعا على شبكة الانترنيت اعتدت أن انشر فيه مقالاتي ومنها هذه المقالة، كتب لي رسالة تحت عنوان "رجاء أخوي" يطلب مني أن لا استهدف البعض بحدة وقال بأنه استلم العديد من الرسائل التي بعث بها معارضون عراقيون يعتقد كل منهم -كما نقل الزميل الإعلامي - أنه هو المقصود بكلمة " السحاب ".. لحظتها فكرت بأن المقالة / الرسالة وصلت إلى " أهدافها " وقد فضح الكثيرون أنفسهم بكونهم سحابين.. ومن كان في عبه عتر.. يحتج!!

١٥٠- عضة أذن :

قال الجاحظ رأيت معلماً قد جاءه غلامان وقد تعلق أحدهما بالآخر فقال أحدهما: يامعلم هذا الغلام عض أذني. فقال الآخر: أنا ما عضضتها

وللأسف فقد اختفت العبارة الأخيرة والمهمة من الآية التاوية التي ختم بها نص المقالة كما نشرت في عدد الثلاثاء ٢٧/٨/ ٢٠٠٢ والتي تقول (أولئك هم السادة اللصوص) ولا ندري في الواقع إن كانت العبارة قد سقطت سهوا أو خوفا من (أولئك السادة اللصوص)

هو عض أذنه. فقال المعلم له غاضباً: يا بن الخبيثة أهو جمل حتى يعض أذن نفسه؟

١٥١- على فراش زبيدة :

قال مزيد أبو إسحق المدني لرجل: أترضى أن تعطى ألف درهم وتسقط من فوق بيت؟ فقال لا . قال مزيد: وددت لو إنها أعطيت لي وأسقط من فوق الثريا. فقال الرجل: ويلك فإذا سقطت تموت! فقال مزيد: وما يدريك؟ لعلي أسقط في كومة تبن أو على فراش زبيدة.

١٥٢- حب الخليفتين :

قيل لمزبد: كيف هو حبك لأبي بكر وعمر بن الخطاب؟ فقال: ما ترك حب الطعام في قلبي حباً لأحد.

٤٢ - انتحار مدينة فاضلة!

أخبرت وكالات الأنباء أن الشرطة في "الجمهورية الإسلامية الإيرانية" حظرت على الشابات والشبان الذين تقل أعمارهم عن ٢٥ عاما تدخين النرجيلة في المطاعم والمقاهي في العاصمة طهران. وفي منتصف الشهر المنصرم كانت الشرطة قد طلبت من أصحاب المحلات العامة إقفال أبواب محلاتهم عند منتصف الليل بعد أن كانت تظل مفتوحة إلى ساعات متأخرة من الليل. وبالإضافة إلى ذلك فقد شددت الشرطة

من مراقبتها ونشاطاتها بهدف تحقيق أقصى درجات الفصل بين الشبيبة من الجنسين لتعود الحالة في الشارع والمحلات العامة إلى الأيام الأولى للثورة الإيرانية التي أوصلت رجال الدين والإسلاميين الشيعة إلى السلطة فعملوا منذ ذلك الحين على إقامة دولة ومجتمع إسلاميين في إيران.

يبدو للمدقق في هذه الأخبار "الهامشية" أن التيار المتشدد في السلطة قد انتبه إلى أن المياه أخذت تنساب من تحت قدميه، وأن المجتمع بدأ يأخذ أو يستعيد إيقاعاً حياتياً طبيعياً فيأكل ويشرب ويدخن ويتنفس ما يعجبه وليس ما يعجب النظام الشمولي. وأن هذه الظاهرة الآخذة بالتصاعد قد تتحول في يوم قادم إلى فيضان أو طوفان سياسي يحمل النظام برمته إلى حيث ينبغي أن يكون. غير أن الأمر ليس ذا بعد سياسي فقط بل هو في جوهره قضية إنسانية ووجودية يمكن الدخول عبرها إلى فهم جيد للحداثة كأفق حضاري ممكن ومرتجي ولكنه ممنوع بقوة الدبابات الشمولية.

إن حرمان الشباب من أبسط المسرات والنشاطات البريئة كالذهاب إلى المطاعم المقامة قرب ينابيع المياه عند سفوح الجبال لتناول الطعام الشعبي والاسترخاء والهرب من جوف واحدة من أشد المدن تلوثا في العالم وهي "طهران " لا ينطوي حتى في عرف أشد المتعصبين ديناً على انحراف أو إساءة للدين والمقدسات سيما وأن تدخين تبغ النرجيلة ليس محرما بموجب الفقه الجعفري الذي تعتمده الدولة الإسلامية الإيرانية الساعية لإقامة مدينة فاضلة أخرى خالية من الشرور والانحرافات. إضافة إلى ذلك، فتلك المطاعم والمقاهي لا تقدم أشياء محرمة ديناً كالخمر، فلماذا إذن هذه الممنوعات وتلك المراقبة المشددة والفصل بين الشباب

على أساس الجنس؟ أليس حرياً بالحكومة أن تبحث عن أسباب انتشار ظاهرة البغاء وتعاطي المخدرات في البلاد إلى درجة يصعب تصديقها وتعترف بها السلطات نفسها؟ إذا كانت الدولة الإسلامية قد فشلت حتى الآن في تقديم علاج لتلك الظواهر التي تعبر عن انتحار مجتمعي بطيء فهل وجدت الحل في قمع الذين يتعاطون النارجيلة والهواء الجبلي النقي وترك الذين يتعاطون أشياء أخرى وشأنهم؟

لقد فات القائمين على النظام وتجربة الحكم الإسلامي أن الفرد نقيض بطبعه الإنساني شديد التعقيد للشمولية وبغض النظر عن الأدلوجة التي تحملها. بمعنى، أن الشمولية موضوع حديثنا تتساوى في السوء مع الشمولية القومية البعثية أو الستالينية أو غيرهما. ولعل أبسط تعريف للشمولية هي ذلك النظام السياسي والدوغمائي الذي يريد أن يفرض على المواطنين جميعا وبغض النظر عن رغبتهم أم عدمها أو موافقتهم من عدمها منظومة حياتية معينة محددة التفاصيل والصفات ومشروطة بقوانين تحدد الثواب والعقاب. وهكذا يكون الإنسان مضبوطاً ومربوطاً ومقيداً في حياته بدءاً من طريقة قص شعره إلى لون أحلامه وطريقة موته!! إن نظاما كهذا ومهما بلغت نواياه الحسنة ومشاريعه الطيبة لتحقيق الفردوس الأرضي وإقامة المدينة الفاضلة على الأرض يحكم على نفسه بالموت انتحاراً متى ما لجأ إلى القسر والقمع وحاول جر الناس بالسلاسل إلى جنته الخاصة أو ما تصور أنه جنته الخاصة. وللتذكير فقد انتحر المشروع السوفيتي حين حاولت الشمولية الستالينية تحول الناس إلى أرقام أو قطعان مبرمجة في مؤسسات وأجهزة لا روح فيها ففقدت تعاطف الناس وفشلت

في بناء مقابل وعمق سيكولوجي وروحي خصب وجميل لمشروعها الاقتصادي المساواتي والذي لا يمكن نكران ما فيه من رحمة وإنسانية.

حين أرادت الشمولية الستالينية ضمان الخبز للناس مقابل الهيمنة على عقولهم وقلوبهم انتحرت هي قبل أن يجهز عليها الغرب الرأسمالي في الحرب البادرة بعدة سنوات. ويبدو أن هذا المآل سيكون بانتظار كل أنواع الشموليات التي ما زالت على قيد الحياة والتي تريد أن تشيد مجتمعاً ذا قشرة طاهرة نقية تتألق بالإيمان والورع ولكنه ذو محتويات ومكنونات مقرفة ولا إنسانية رأينا بعضها في التحقيقات التلفزية المرعبة التي صورت من داخل طهران والمدن الكبرى!

١٥٣- طلقها لوجه الله :

عن الأصمعي قال خرج قوم من قريش إلى أرض لهم وخرج معهم رجل من غفار فأصابهم ريح عاصف حتى يئسوا معه من الحياة فسلوا "استسلموا" واعتق كل رجل منهم عبداً له فقال الغفاري: اللهم إنك تعلم أنني لا أملك عبدا فأعتقه ولكن امرأتي طالق ثلاثا إكراماً لوجهك الكريم.

١٥٤- أمه طالق :

قيل لرجل: عندك مال كثير وليس لك إلا والدة عجوز إن متَّ ورثتك وأفسدت مالك! فقال: إنها لا ترثني! قيل له: لماذا أليس هي أمك؟ فقال بلي ولكن أبي طلقها قبل أن يموت!

١٥٥- رسالة من البصرة :

كتب رجل من أهل البصرة إلى أبيه يقول: أكتب إليك يا أبت، نحن كما يسرك الله عونه وقوته، لم يحدث لنا بعدك إلا كل خير، إلا أن حائطاً لنا وقع على أمي وأخي الصغير وأختي والجارية والحمار والديك والشاة و لم يفلت أحد حياً غيري!

٤٣- الإرهاب الفكري في الفضائيات.

مذيع تلفزي قدير في إدارة الحوار هو "أحمد منصور" ولكنه لم يكن موفقاً تماماً في الحلقة الأخيرة من برنامجه ذي الطابع التاريخي "شاهد على العصر" والتي اختتم بها عدة حلقات استضاف فيها وزيرا تونسيا سابقا للداخلية هو الطاهر بلخوجة. وما نثيره هنا من نقد وتحفظات لا ينبغي تفسيره على أنه دفاع عن أشخاص ومسؤولين عرفوا بأدوارهم السياسية والأمنية في بلدانهم بل هو دفاع عن شرف الكلمة ونهج الحياد والابتعاد عن أساليب القسر والإرهاب الفكري في العمل الإعلامي. لقد حاول مقدم البرنامج جاهداً، وبعبارات وجمل صريحة للغاية، تكفير رئيس عربي راحل هو الحبيب بورقيبة وبحضور من كان يوما وزيره للداخلية وبذل المذيع جهودا كبيرة في هذا المسعى لا لشيء إلا لأنه يعتقد بأن العلمانية كفر صريح وهذه مجرد فكرة ساذجة وسطحية لا يؤيدها البحث العلمي والواقع التاريخي لتجارب الشعوب .

والحقيقة فإن السيد المذيع لو أتعب نفسه قليلا وتجرأ على التدقيق في التاريخ السياسي العربي وتمعن في سير بعض الزعماء العرب غير بعيد عنه،

والذين سارعوا إلى عقد معاهدات السلام وفتح السفارات والقنصليات والمكاتب التجارية مع الدولة الصهيونية في بلدانهم لفهم جيدا من هم في حقيقة الأمر "الكفار" ومن هم المؤمنون. لا نزعم أن ذلك الرئيس الراحل ملاك أبيض الجناحين ولكننا لو قارنّا استبداده وعدد ضحاياه من المعدومين والمقتولين في المظاهرات والسجون باستبداد وأعداد ضحايا غيره من الزعماء العرب ممن ضربوا شعوبهم بمدفعية الميدان والغازات السامة لبدا — بورقيبة – في نظر المقارنين النزيهين ملاكاً ونصف الملاك.

ومن ناحية أخرى فلم يسلم الضيف "الوزير السابق للداخلية " من أسلوب الترهيب والتخويف بالخروج على الأمر الرباني الذي لجأ إليه المذيع أحمد منصور لشديد الأسف. فحين كان الحوار يدور حول موضوعة الحجاب وارتداء الأزياء التي ابتكرتها الحركات والأحزاب الإسلامية المعاصرة قال الضيف ما معناه أن النساء في بلده العربي مخيرات في ارتداء أو عدم ارتداء الحجاب أو الرداء الإسلامي وحاول أن يشرح ذلك فقاطعه المذيع عدة مرات: مرة بتحذيره من إنه يخوض في شأن لا يخصه ويجب تركه للفقهاء، ومرة بإرهابه بأنه يستفز مشاعر المسلمين بكلامه وثالثة بأنه يتمرد على أمر رباني. والحقيقة فقد كانت هذه الحلقة من ذلك البرنامج مثالاً على تغليب الأدلوجة السلفية المتشددة لمقدم البرنامج على روح الحياد والتفسير الهادئ والمتوازن للمعطيات فالجميع يعرفون أن السيد المذيع شخص إسلامي الفكر والانتماء السياسي وهذا من حقه وهو أيضا إعلامي فعال في تلك القناة، ولكنه والحق يقال نجح في مناسبات عديدة أخرى في التقيّد بالمهارة الفنية ومواصفات وشروط المهنة الإعلامية ولم يغلب فكره الأدلوجي الخاص على انشغالات

الإعلامي وبحثه عن الحقيقة أما في هذه الحلقة فقد كان الأمر مختلفا جدا. وهنا يمكن للمشاهد أن يتساءل: أي نوع من الفقهاء الذين يطالب المذيع بأن نجعلهم مهيمنين ومشرفين على حياتنا وتصرفاتنا وعقائدنا، هل هم أولئك المعممون الذين أفتوا بجواز وصوابية معاهدة "كامب ديفيد" بدليل الآية التي استندوا إليها وهم يعلمون أن لا علاقة لها بواقع الحال والتي تقول (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)؟ وهل فعلا يعرف السيد المذيع آية تأمر حرفيا بارتداء الزي الحزبي الإسلامي الحديث ولا يعلم بها الناس أم إنه يشير إلى الآية التاسعة والخمسين من سورة الأحزاب والتي اختلف فيها المفسرون قديما وحديثا والتي يقول حرفها (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما) والطلب في نص الآية واضح، فلم نقرأ فيه أمراً بارتداء الحجاب حرفياً أو بمواصفاته المعروفة اليوم بل قرأنا أمراً بإنزال الجلباب لكي لا تُعرف المرأة فيؤذيها بعض الصيع والمنحرفين في شوارع وأزقة المدينة! وهَبْ أن السيد المذيع وغيره رأوا فيها ما رأوا وفسروها كما أرادوا، فلماذا يعتبرون تفسيرهم هو (الرباني والصحيح) وتفسير غيرهم (كفرا واستفزازا لمشاعر المسلمين)؟ هل هذه هي الخطوط العريضة التي يبشرنا بها "المعتدلون" لبناء المجتمعات الجديدة على مقاييس برامجهم السياسية؟

كخلاصة يمكن القول أن إرغام النساء على التخلي عن ما بات يعرف بالزي "الإسلامي" كما حدث في تركيا هو الوجه الآخر والمطابق مضمونياً للسلوك القمعي والاستبدادي الذي يمثله إرغام النساء على ارتداء هذا الزي في بعض الدول الدينية كإيران وغيرها.

١٥٦- ملكة جمال :

روى أبو بكر الصولي عن إسحق قال: كنا عند الخليفة المعتصم، فعرضت عليه جارية فقال لنا: كيف ترونها؟ فقال أحد الحاضرين: امرأتي طالق إن كان الله عز وجل خلق مثلها. وقال آخر: امرأتي طالق إن كنت رأيت مثلها وقال الثالث امرأتي طالق! وسكت. فقال له الخليفة: إن كان ماذا؟ فقال الرجل: لا شيء يا مولاي هذان الأحمقان طلقا لعلة وأنا طلقت بلا علة.

١٥٧- عبقري من خراسان :

عن أبي الفتح محمد بن أحمد الحريمي قال: كان عندنا بخراسان إنسان قروي وكان عندنا بخراسان رجل قروي وكان له عجل، فدخل العجل الدار وأدخل رأسه في حب لماء الشرب فانحشر رأس العجل في الحب وجعل يعالج رأسه ليخرجه فلم يقدر. واستدعى معلم القرية وأراه العجل فقال المعلم: أنا أخلص. اعطني سكينا، فأعطاه فذبح العجل وظل رأسه في الحب فأخذ حجراً وكسر الحب وأخرج الرأس فقال له القروي: لا بارك الله فيك.. قتلت عجلي وكسرت حبي!

١٥٨- حمار بالناقص :

عن محمد الداري قال: كان عندنا رجل وكان في غفلة دائمة فخرج من داره ومعه عشرة حمير فركب واحداً منها وعدها ، فإذا هي تسعة

فترل فعدها فإذا هي عشرة فلا زال يفعل كذلك مرارا ثم قال: أمشي وأربح حمارا خير من أن أركب واخسر حمارا!

٤٤- الليبرالية الإسلامية!

تجربة فكرية وسياسية فريدة وواعدة يخوضها المفكر الإسلامي الإندونيسي "أوليل ابشر عبد الله" تقوم على محاولات التأصيل النظري عبر الحوار والتثقيف السلمي لركائز فكرية وسياسية تسامحية عبر الإذاعة والصحافة والإنترنيت. وتمزج هذه التجربة بين العديد من المبادئ التي تمخضت عنها أو قامت على أساس منها التجربة الديموقراطية الليبرالية الغربية وبين التوجهات الإسلامية المعتدلة التي تتبناها جمعية " نهضة العلماء" التي يعتبر أوليل عبد الله عضوا فاعلا فيها. مهما يكن رأينا في الليبرالية ذاتها، وبنسختها المتطرفة التي تسود اليوم في الغرب منذ وصول الثنائي تاتشر وريغان إلى الحكم، وأياً يكن رأينا في الإسلام السياسي الحديث، فإن تجربة هذا المفكر الإندونيسي الشاب (٣٥ عاما) تثير الانتباه والإعجاب، وخصوصا في جوانب قد لا تكون لها علاقة مباشرة بالسياسة. فقد ألحقت بعض الحركات الإسلامية المتطرفة ضرراً فادحاً بسمعة الدين الإسلامي الحنيف حين تصرفت بدموية يندر مثيلها، ناسية أو جاهلة بأن العالم أصبح بالفعل قرية صغيرة وشديدة الحساسية نحو الأفعال التي تستهدف المدنيين الأبرياء خاصة كما كان مبررها عادلاً، كما تراجعت حركات الإسلام السياسي المعتدل والتي ينبغي على القائمين عليها الاعتراف بأنها لم تنجح في الدفاع عن إسلامها الأقرب إلى روح الدين والى الوعي الجماهيري العام تحت وطأة التهديد التكفيري

القادم من قبل التيارات المتطرفة ذات النزوع الفاشي لها، لا بل أن بعض أجزائها التي تزعم الاعتدال تحولت إلى مفقسة للتطرف والمغالاة ومصدر للإساءة إلى الإسلام الحنيف دين الرحمة والسلام والفطرة الإنسانية. وهنا على جهة التركيز تأخذ محاولة أوليل عبد الله الجريئة أهميتها وعمقها وفرادتها.

وإذا ما علمنا أن معسكر التطرف قائم وفعال في إندونيسيا، وأنه يكافح المحاولة التجديدية الفتية بضراوة، وأنه قد كفّر أوليل عبد الله وهدده بالقتل هاتفيا فإن القيمة الأخلاقية لصاحب المحاولة تكتسب كثافة أشد واحتراما أكبر.

وعلى الرغم من كل التهديدات وحملات التكفير فلم يهرب عبد الله إلى الدول الاسكندنافية أو ينسحب من الميدان ويعلن التوبة في حضرة نفر من رجال دين متكلسين عن كُفر لم يرتكبه، بل واصل معركته من خلال برنامج إذاعي تبثه عشرون محطة محلية، وبواسطة مقالة صحافية يحررها بنفسه وتنشرها أربعون صحيفة إندونيسية. وإضافة إلى كل هذا فقد أنشأ وأدار موقعا على الإنترنيت يدعى "الشبكة الليبرالية الإسلامية" يدير من خلاله حوارا كفوءا ومتشعبا مع زواره الكثيرين المتعطشين لمعرفة هذا الوليد المفعم بالحياة والأبعد عن الظلامية الاستئصالية.

وقد سئل عبد الله قبل أيام إن كان يعتقد بأن الجماعات المتطرفة كجماعة "عسكر الجهاد" بقيادة جعفر عمر طالب، وجماعة "جبهة الدفاع عن الإسلام" بقيادة محمد رزيق، وهو بالمناسبة يرتبط بهذين الشخصين بعلاقات صداقة وخلافات حادة معا، فيما إذا كانت هاتان الجماعتان تشكلان خطرا على الولايات المتحدة، فأجاب عبد الله

بوضوح وحسم: لا أعتقد إنهما تشكلان خطرا على الولايات المتحدة بل هما تشكلان خطرا على الشعب الإندونيسي والمؤسسات الديموقراطية التي هي في طور البناء والترسيخ".

إن من يرصد تجربة السيد أوليل عبد الله، والذي يتوقع له المراقبون السياسيون دوراً مهماً في مستقبل بلاده السياسي، يدهش أيما دهشة، للمناخات الفريدة والخصوصيات التي تحيط بتجربة الإسلاميين الديموقراطيين الإندونيسيين. فهم مثلا لا يترددون أو يتلعثمون مثل نظرائهم الإسلاميين المعتدلين في الساحة العربية حين يحين الكلام عن الديموقراطية واللبرالية والتجربة التعددية البرلمانية بل يعتبرون أنفسهم من أهل الدار كما يقال. وكما سبق وقلنا فقد كفر العديدون صاحب المحاولة ولكن تلك التكفيرات والتهديدات لم تمنع بعض القادة المتشددين من أن يقولوا كلمة حق وإنصاف لصالح أوليل عبد الله فحين سئل الشيخ رزيق زعيم "جبهة الدفاع عن الإسلام" عن رأيه بالسيد عبد الله وتجربته قال أنه (معجب بكفاءته وأنه ومن معه في الشبكة اللبرالية الإسلامية إخواننا في الإسلام وشركاؤنا في الحوار.)

هنا فقط يمكن التميز بين ساحة إسلامية واعدة في إندونيسيا كما في تركيا يمكن أن تقدم شيئا جديدا للعالم السياسي المعاصر وللمسلمين خاصة وبين تجارب أخرى مذعورة قشرية شعاراتية كادت أن تتسبب في حرب أهلية قبل سنوات قليلة في مصر مثلا بسبب رواية صدرت قبل ثمانية عشر عاما، وتجربة عنف إسلامية أخرى ما زالت تنــز دما في الجزائر! هنا فقط، وعلى هذا الضوء القادم من الممارسة التاريخية وليس من حذلقات المتفلسفين يمكن التميز بين تجربة تريد إقامة الحكومة

الإسلامية عن طريق صندوق الانتخابات، ثم يترلها الشعب عن السلطة - إن شاء - بنفس الأسلوب، وبين تجربة متطرفة تريد إقامة الدولة الإسلامية الثيوقراطية التي تبتلع جميع الحكومات والأطياف والألوان السياسية وتختصرها إلى لون واحد وحزب واحد وعمامة واحدة. ولقد صار بمقدورنا، بفضل محاولات جريئة كمحاولة أوليل عبد الله أن نعرف الفرق الشاسع الآن بين الديموقراطية والاستبداد وذلك حين نفهم الفرق الهائل بين الحكومة الديموقراطية الإسلامية التي ينبغي أن يقول لها كل ديموقراطي نعم وبين الدولة الدينية الثيوقراطية التي لم تترك محاكم التفتيش فيها أحدا يستعمل مخه أو لسانه.

١٥٩- تقشف :

قال الشاعر ابن الرومي يهجو أوفى بن منصور وكان الخير شديد البخل:

ما كنت أحسب أن الخبز فاكهة حتى نزلت على أوفى بن منصور
يَبْس اليدين فما يسطيع بسطهما كأن كفيه شدا بالمسامير
الحابس الروث في أحشاء بغلته خوفا على الحب من نقر العصافير

١٦٠- حديث الجواري :

قال الجاحظ: سألت جارية أبكر أنتِ؟ فقال بغضب: أعوذ بالله من الكساد يا شيخ!

قال المتوكل لجارية استعرضها: أبكر أنتِ أم أنتِ أيش؟ فقالت: أنا أيش (أي شيء) يا أمير المؤمنين.

استعرض رجل جارية فاستقبح قدميها فشعرت هي بذلك فقالت له: لا تبال يا سيدي فإني أجعلهما خلف ظهرك!

٤٥- ملابس الإمبراطور :

ذائعة ومشهورة تلك المروية الاسكندنافية التي حدثتنا صغارا عن الإمبراطور الذي نَصَبَ عليه نساجان لبيان وألبساه ملابس ملكية عجيبة لا يراها الناس حتى إذا مرَّ الموكب الإمبراطوري أمام طفل بريء كالحقيقة صاح وإصبعه الصغير مصوب نحو الإمبراطور:

صاحب الجلالة عار يا ناس!

يبدو، أن لكل منا إمبراطوره الخاص إذا ما اعتبرنا الإمبراطور رمزا لفضيحة أو حالة عريٍّ معينة، ويبدو أيضا أن لكل منا طفله البريء الفضّاح والذي يرقد في أعماقه يترصد عري الإمبراطور فيصرخ بالحقيقة أحيانا أو يبتلع لسانه ويعزف قليلا من الموسيقى أحيانا أخرى زاعما أنها صورة غير مباشرة عن تلك الصرخة وقد يلجأ إلى الشعر الرمزي زاعما بأنه هو من سيطيح بأعتى الطغاة ويفجر أعظم الانتفاضات .

المشكلة في عصرنا مع بعض الأطفال الأبرياء أنهم قلبوا الآية رأساً على عقب، فعلى الرغم من أن الإمبراطور المسكين صار يرتدي جبة وقفطانا وسروالين محكمين ينتهيان إلى حذاء طويل العنق وقفازين من جلد الثعالب الرمادية سمعنا قبل أيام طفلا طاعنا في السن وهو يهتف:

إنه عارٍ إمبراطوركم هذا يا ناس!

وبعد أيام على هذه الحادثة – وأنا أحكي لكم من خانة الخيال العلمي – علق أحد المتفلسفين في برنامج حواري تلفزي مشاكس إلى درجة الغليان بأن المعنى الذي قصده الطفل هو أن الإمبراطور عار داخل ملابسه، وهذا صحيح تماما، فكلنا عراة داخل ملابسنا! كذلك قال المتفلسف، فاعترض عليه زميله في السجال قائلا بأن القواعد المنطقية للاستنباط ترفض هذا الاستنتاج على اعتبار أن الخيار هو بين أن يكون الإمبراطور عارياً أو لابساً، وليس بين أن يكون عارياً داخل ملابسه أو عارياً خارجها.

وهنا احتد الخلاف والتهب السجال فأطفأنا التلفاز وعدنا إلى الواقع لنرى الآتي والآتي أعظم :

الإمبراطور الطيب، وحامي حمى الحرية وحقوق الإنسان والحيوان، يهدد علنا بصوت أجش وهو بكامل ملابسه القتالية وصولجانة النووي بين يديه بأنه سيهاجم جزيرة الشر المطلق التي أسمتها شهرزاد ذات ليلة وردية "جزيرة الواق واق"! ثم نطق جلالته بحكمة دموية مفادها أن من لا يكون معه في هجومه على الشر الواقواقي سيضع نفسه طوعا إلى جانب الشيطان وخارج نطاق الخير ومشمولاته.

ينبغي أن نفتح قوسا صغيرا هنا ونذكر الطفل البريء وزملائه بأن الشيطان الذي يعنيه صاحب الجلالة الإمبراطور تخرَّج من جامعة "محور الخير الإمبراطورية للدراسات الإنقلابية العليا" وأنه طالما كان مدلل الإمبراطورية الأول وأن إمبراطورية "الخير المطلق" هي نفسها التي غفرت له ما تقدم من ذنبه الكيمياوي وما تأخر. وهي ذاتها الإمبراطورية

"الخيرة" التي جعلت أذناً من طين وأخرى من عجين حين راح ملايين الناس من سكان شمال الجزيرة يصرخون في ضباب الغازات السامة:

-اختنقنا يا مولانا الإمبراطور.. أنقذنا يا صاحب الجلالة وقطب الخير!

ولكن "قطب الخير" كان مشغولا بتقليم شجيرات الورد في حديقة قصره الإمبراطوري الأبيض، وحين انتهى من هذه الرياضة انشغل بتدريب كلبه الأبيض "كمان وكمان!" كثلج القطب الشمالي على القفز فوق تل أنيق من جماجم الأمل والركض بين أكوام من فقرات وعظيمات التفاؤل الإنساني!

إن مشكلة هذا النوع من الأطفال "الأبرياء" إنهم صادقون في كل ما يفعلون إلا في شيء واحد وهو أن الإمبراطور ليس عاريا من حيث مظهره. والدليل تجده عزيزي القارئ ما قد ذكرنا من ملابسه وأكسسواراته، بل هو عار من حيث مضمونه الرجعي الأسود، وهو عار أيضا من حيث معنى تاريخه المزحوم بالجرائم وعمليات الإبادة الجماعية في جهات الأرض السبع! أوَ ليست جريمتاه في هيروشيما وناكازاكي مثالاً بسيطاً على ما سوف يفعله بالجنس البشري وكوكب الأرض الجميل؟ وهل نسينا الجنة التي صنعها أسلاف الإمبراطور لشعب الهنود الحمر؟ وهل سيتردد جلالته في تحول الكوكب إلى مجرد كراج شاسع كئيب وشاحب ورمادي ومليء بالهياكل العظمية وزجاجات الكوكاكولا؟ فهل- ومتى - سيعي طفلنا العزيز البريء الذي أبرق بالأمس لهذا الإمبراطور شاكرا إياه على وقفته "الإنسانية مع أهل الواق واق، خطورة الأمر ويكف عن الصراخ؟ نتمنى أن يحدث ذلك من

أعماق القلب، على الأقل لكي ينجو هذا الطفل ببراءته من حقل الألغام الذي دفعه إليه لصوص البرقيات.

ثم إن الإمبراطور يا طفلنا العزيز مشغول عن قراءة برقيات شكرك وتمجيدك بحشو سفنه بالتوماهوك والقنابل النووية التكتيكية. فلِمَ تتعب نفسك وتاريخك وضميرك الذي كان أبيض ذات يوم بهذه النشاطات المؤسفة؟

١٦١- حرامي قطاع عام :

ولى يوسف بن عمر إعرابيا على عمل له فأصاب عليه خيانة فعزله عن العمل فلما قدم عليه قال له: يا عدو الله أكلت مال الله؟ فقال الإعرابي: فمال من آكل إذا لم آكل مال الله؟ لقد راودت إبليس على أن يعطيني فلسا واحدا فما فعل.

١٦٢- هنيئا لهما :

خرج الخليفة المهدي وعلي بن سليمان في رحلة صيد وكان معهما الشاعر الظريف أبو دلامة. فرمى المهدي ظبيا بسهم فأصابه ورمى علي بن سليمان سهما فأصاب به كلبا فأنشد أبو دلامة قائلا:

قد رمى المهدي ظبيا   شك بالسهم فؤاده
وعلـــي بن سليمان   رمى كلبا فصاده
فهنيـــئا لهـــما كـــل   امرؤ يأكل زاده

١٦٣- دعاء صريح جدا :

قيل لإعرابي هل تحسن الدعاء قال نعم. قيل له فادع لنا، فرفع الإعرابي يديه إلى السماء وقال :

اللهم لقد أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك!

١٦٤- فن التزمير :

غضب الوالي ذات مرة على مزبد فأمر الحجام "المزين" بأن يحلق لحيته فقال الحجام له: انفخ شدقيك حتى أتمكن من حلق لحيتك. فقال له مزبد: هل أمرك الوالي بحلق لحيتي أم بتعليمي التزمير والتصفير؟

٤٦- السينما المتربة

قبل أيام قليلة من رحيله المفاجئ عن عالمنا خلال شهر أيلول الماضي وفي لقاء صحافي، طرح المخرج المبدع رضوان الكاشف بمجموعة من الآراء والملاحظات العميقة والجديدة المضمون كليا. في الأسطر التالية استذكار لما قاله على سبيل التحية لذكراه وإبداعه الجميل :

جعل الكاشف من حياة الناس البائسين والمهمشين في المجتمع المصري موضوعا محوريا لأفلامه المتميزة وخصوصا "عرق البلح" و"ليه يا بنفسج" و أخيرا "الساحر" أما فلمه الجديد "نحن" والذي خصصه لحياة وإحباطات

جيله فقد ظل للأسف حبرا على ورق إذ اختطفته يد المنون قبل أن ينجزه.

"ليه يا بنفسج" كان قصيدة شفافة وعذبة تفيض صدقاً وحباً وشجناً وخفة دم تميز بها الناس المدقعون. أما "عرق البلح" الذي يعالج حياة شريحة اجتماعية مهمة من فلاحي الصعيد الذين تركوا حقولهم وبساتينهم وسافروا إلى الأقطار العربية النفطية ليعودوا بقبضة من الدولارات وبعض أجهزة التسجيل والتلفزيونات المصنوعة في تايوان مقابل خراب الزراعة المصرية وهيمنة القمح الأمريكي على القرار السياسي للبلاد، فقد كان وباعترافه هو ينطوي على جرعة مكثفة من اليأس والحزن. فلمه الأخير "الساحر" اعتبره النقاد أكثر مرحاً وفرحاً وبهجة وبالمناسبة فعنوان الفلم الأصلي هو "نظرية البهجة". يقول الكاشف (عندما يصاب المرء بالاكتئاب يحاول قدر الإمكان البحث عن أية لحظة سعادة تقاوم هذا الاكتئاب الخانق. في "الساحر" حاولت كسر الهزيمة والإحباط بهذا القدر القليل من الفرح..) ثم، وبرؤياوية عجيبة حقا، وكأنه يشم رائحة موته القريب يضيف (كنت راغبا في تحقيق "الساحر" كنوع من مناصرة الحياة مادمت على قيد الحياة..)

يتحدث الكاشف عن القاهرة فيصفها بأنها مدينة كاريكترية وتدعو للضحك ثم ينظر إلى أفخم شوارعها "شارع الزمالك" فيرى فيه (أفخم أنواع السيارات بجانبها تسير باصات قديمة ومتهرئة مع حمير وبشر. هذا الكوكتيل يوفر قدرة على التعايش والاختلاط.) وقد نختلف مع هذا التفسير، فلا نرى في المشهد القاهري والعربي عموما سوى حالة من

الدوران الحضاري على الذات، أو الارتهان إلى الحلول التلفيقية التي تريد دمج جزء ميت من الماضي بأخر شديد الحيوية من المستقبل غير المتجسد وتلك عملية دوران في حلقة مفرغة وليست دخولا حقيقيا في الحداثة والعالم المعاصر. غير أن الذي لا مراء في صوابيته هو الانحياز الواضح لموضوع وطريقة معالجة وطرح موضوع الكاشف وجمهوره من بائسين ومهمشين يشكلون الأغلبية الساحقة من السكان في مصر وفي غيرها من دولنا العربية والعالمثالثية. ومع ذلك، فالسينما السائدة والتي يسميها بعض الظرفاء سينما "الأكلِ عَيَشِنْ " والتي تدور حول "الباش مهندسين" والأطباء والسندريلات الجميلات وأصحاب الأطيان والعقارات والمصانع حيث الناس "تعيش في سحر براني" كما يقول الكاشف، هذه السينما البراقة لا تقيم اعتبارا أو تهتم بجدية بحياة الأغلبية الساحقة من الناس. السينما السائدة هي التي تخاطب الأغنياء وأبناء الطبقة الوسطى ولا تعترف بالأغلبية المحرومة بل وتقاوم السينما الريادية التي بدأت تهتم بها، ولهذا أطلق ممثلوها على أفلام الكاشف ونظرائه اسم "السينما المتربة" أي الوسخة والتي تغوص في وحل وأتربة الأحياء الشعبية لتهتم بحياة بشر حقيقيين يطحنهم الفقر والبؤس. ففي مصر- يوضح الكاشف - والتي يبلغ عدد سكانها سبعين مليون إنسان تقريبا ، ثمة ٦٩ مليون من المتربين "البائسين"! الأفلام التي قدمها الكاشف للشاشة العربية لم تعجب السينما البراقة إذن، ولكنه يكشف أمرا في غاية الأهمية وهو أن تلك الأفلام التي حوصرت وهوجمت قد حققت مردودية مالية جيدة وخصوصا في دور السينما التي تقع في الأقاليم والمناطق والأحياء الشعبية. أما عن إشكالات

الإنتاج السينمائي فيوضح المخرج الراحل أن المنتج هو المنتج في كل مكان، وهدفه واحد هو البحث عن الأرباح، ولكنه يكشف سراً حين يؤكد أن المنتج الأجنبي ليس بريئاً تماماً بل أن له خططه وشروطه "الخاصة" ويروي أنه حين عرض فلمه "عرق البلح" على شركة فرنسية منتجة تسلم منها بعد فترة تقريراً من ثمان صفحات يحتوي على طلب توضيحات ويقترح إضافات على الفلم فما كان منه إلا أن رفض التعامل مع تلك الشركة الفرنسية.

وداعا رضوان الكاشف..ستبقى حياً بإبداعك الجميل في ضمائر المتربين والبائسين الذين لم تخذلهم قط ولن يخذلوا ذكراك أبدا.

١٦٥- رقة الإيمان :

سكن أحد الفقهاء في بيت سقفه يقرقع في كل وقت. فلما جاء صاحب البيت يطلب الأجرة قال له الفقيه: اصلح السقف فإنه يقرقع. فقال صاحب الدار: لا تخف فإنه يسبح بحمد الله! فقال الفقيه: أخشى أن تدركه رقة الإيمان فيسجد علينا.

١٦٦- كباب الحجاج :

قصد رجل الحجاج الثقفي وحين وقف بين يديه أنشده مادحا:

أبا هشام ببابك قد شمَّ ريح كبابك.

فقال له الحجاج: ويحك فلمَ نصبت الكنية وقلت "أبا هشام"؟ فقال الرجل: الكنية كنيتي فإن شئت رفعتها وإن شئت نصبتها.

١٦٧- عدو الطائفية :

سمع أبن الإعرابي رجلا يقول لناس اجتمعوا عليه يضربونه: أتوسل إليكم بحق علي ومعاوية أن تكفوا عني.

فقال أحدهم وهو يجيد ضربه : لقد جمعت بين الساكنين.

٤٧- جوهرة من التراث.

التراث كالبحر المحيط: شاسع وعميق لا يسبر له غور لسبب بسيط هو أنه صورةُ الحياة وقد عبرت من الحاضر إلى الماضي. وبما أن الحياة شاسعة وعميقة الغور ومعقدة فستكون صورتها مطابقة لها في التصور المفهومي على الأقل وليس في الكيف الإنطولوجي قطعا. والتراثيُّ ليس هو المؤرخ المحترف، فهذا الأخير صاحب حرفة وشروط منهاجية وعلمية، يفشل إن هو أخلَّ بها فغلَّبَ هواه السياسي أو الفكري أو الديني على شروط الاحتراف المهني. أما التراثي وخصوصا التراثي النضالي "الدعاوي/ المؤدْلَج" فهو انتقائي بطبعه ولا علاقة لهذا الأمر بنوع فكره. فالتراثي السلفي كزميله اللدود التراثي التقدمي، انتقائي أيضا. الأول ينتقي من أحداث التراث ونصوصه ما يلائم ويوائم برنامجه وتطلعاته السياسية وجمهوره فيقف إلى جانب البلاط غالبا ضد ثورات الفلاحين وانتفاضات

القرامطة والزنوج، أما الآخر فيعكس الآية ويقف مع الثائرين ضد الظلمة السائدين. هذا على المستوى السياسي التاريخي المباشر، أما على مستوى البحث الإمبريقي والوصفي فيكاد التراثيُّ يتحول إلى لاقط جواهر وجامع أصداف ولآلئ.. وهذا مثال :

كتاب ذائع الصيت هو "نهج البلاغة" جمعت فيه خطب ووصايا وأقوال الخليفة الراشدي الرابع الإمام علي بن أبي طالب، وقد نُظِرَ إلى هذا الكتاب غالبا نظرة أدبية خالصة بخسته قيمته الحقيقية "الحكَموية" الكبرى. وحين ألف الباحث العراقي ميثم الجنابي كتابه المهم "الإمام علي: القوة والمثال" أعاد إلى "نهج البلاغة" ـــ وربما دون أن يخطط أو يعطي الأولوية لهذا المفصل مباشرة ـــ ألقه التاريخي الحقيقي وعمقه الفلسفي مع إنه لا علاقة مباشرة له بالفلسفة بل بالصورة الأولى للحكمة الشرقية المعروكة بشكل معين من الإيمان الرسالي كما عبرت عنه الديانات السماوية الكبرى التي جاء بها الأنبياء الساميون. وقد أفلح الباحث في أن يبرز لنا نحن القراء كثافة النص العلوي في " نهج البلاغة " الإنسانية التي لا مثيل لها من حيث انحيازها للإنسان المتصالح مع ذاته ومع معبوده وشكل علاقته الفردية والضميرية بالمعبود الميتافيزيقي.

ومن تلك الجواهر التراثية الرائعة التي أوردها الجنابي وناقشها برؤية تاريخية وبصيرة ثاقبة تلك الكلمة / الوصية التي قالها الإمام والتي نصها (... غير أن قوما عبدوا الله رغبة، وتلك عبادة التجار، وإن قوما عبدوا الله رهبة، وتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكرا، وتلك عبادة الأحرار. نهج البلاغة/ جزء٤/ص٥٣ وفي كتاب الجنابي ص١٣٨). وإذا ما

قمنا بإجراء تحليل وشرح بطريقة الاستبدال مع المرادفات اللغوية سنكون في حضرة كلام جديد كل الجدة، حكيم كل الحكمة، ثوري ونوراني معا: فالذين عبدوا الله رغبة أي طمعا في جنة أو مضاعفة حسنات مادية فإنهم يعبدون الله عبادة التجار الباحثين عن الأرباح، ومن يبحث عن ربحه فقد أضاع قلبه أو كما قال يسوع المسيح " أينما يكنْ كنزك يكنْ قلبك" ومعروف أن الإمام عليا كان منحازاً وبالمطلق للفقراء والمساكين وكان حربا ضروسا على الظلمة والمستغلين.

النوع الثاني من الناس هم الذين يعبدون الله خوفا من عذاب النار، بمعنى أنهم لولا الخوف من عقابه لما عبدوه، وهذه عبادة العبيد الذين يقيمهم السوط وتقعدهم المقرعة. وعلينا هنا أن ننتبه إلى الفرق النوعي الكبير بين العابد والعبد. فالإمام مع الأول والثاني ولكنه ليس مع الثاني إذا كان قد ارتضى العبودية فتصالح معها و لم يثر عليها.

النوع الثالث والأخير هو إيمان وعبادة ليس الدافع إليهما الرغبة والطموح اللذائذي ولا الخوف والرهبة من نزول الألم أو الحرمان بل هو الشكر كعلاقة وشكل للفعل الإيماني. والشكر ينطوي على الكثير من المعاني التي لا تحط من قدر الكرامة الإنسانية للعابد ولا تفرط في واجب شكر المعبود وهذا هو النوع الذي يميل ويدعو إليه الإمام علي ويأخذ به ويرفع رايته التي هي في خاتمة المطاف كما في بداياته راية الأحرار. وهم أحرار طالما جعلوا الإيمان علاقة إشراقية وضميرية بين المؤمن وموضوع إيمانه.

١٦٨- سبب وجيه :

سأل رجل الخليل بن أحمد الفراهيدي: لَمَ قالوا في تصغير (واصل) (أويصل) ولم يقولوا (ووَيصل)؟ فأجابه الخليل: حتى لا يشبه كلامهم نباح الكلاب.

١٦٩- دعاء أبي نؤاس :

دخل أبو نؤاس كرما فرأى عنقودا مازال حصرما فاستقبل القبلة وانشأ يدعو قائلا : اللهم سود وجهه واقطع حلقه واسقني دمه!!

١٧٠- الفارعة :

قال الجاحظ رأيت امرأة طويلة القامة جدا كانت واقفة ونحن على مائدة الطعام فأردت ممازحتها فقلت لها: انزلي ههنا حتى تأكلي معنا! فقالت : بل اصعد أنت حتى ترى الدنيا!

٤٨-التعجيف

من الظواهر اللافتة في الحياة المعاصرة لمجتمعات الوفرة الاستهلاكية الغربية ظاهرة البدانة والسمنة المفرطة وتكاثر طرق مكافحتها والحدّ منها. ربما كانت هذه الظاهرة أكثر اتساعا في بلد كالولايات المتحدة أو كندا، وأقل بروزا في اليابان حيث مازالت تسود تقاليد تراثية عريقة في تحضير

وتناول الطعام والشراب الصحيين، تقاليد هي الأقرب إلى الطبيعة والأكثر تجاوبا مع متطلبات الجسد الصحية.

ولعل حالة مجتمعات أوربا الغربية هي وسط بين الحالتين الأمريكية واليابانية، فالأوروبيون، والجنوبيون منهم خصوصاً، لا يختلفون في الكثير من عاداتهم الغذائية عن سائر شعوب البحر الأبيض المتوسط، ولكن الحياة الحديثة، ونمط الحياة الأمريكي القائم على السرعة والهشاشة والضوء والصوت أخلّ كثيرا بهارمونية الحياة الأوروبية فبدأت تشيع مطاعم الوجبات السريعة والشبكات الإباحية الجنسية البهيمية والعنف الهمجي وغير ذلك من مظاهر نمط الحياة الأمريكية.

وبالعودة إلى موضوع مكافحة البدانة والحد من انتشارها نعلم من الإحصائيات الرسمية أن الموارد المالية التي تنفق سنويا في الولايات المتحدة على وسائل التخسيس "إنقاص الوزن ومكافحة البدانة" تكفي للقضاء تماما على المجاعة في قارتي آسيا وأفريقيا.

فلنتخيل فقط، أي صنيع فظيع ولا أخلاقي هذا: مليارات الدولارات تنفق على التخلص من الشحوم والكروش المقرفة شمالا، في الوقت الذي تطحن المجاعات والأوبئة والكوارث الطبيعية الملايين من البشر جنوبا، ثم يأتي من يتفاصح علينا بحقوق الإنسان والديموقراطية والتحضر الغربي! ترى أليس من حق الناس التساؤل عن دور الحس الأخلاقي والشعور بالكرامة الإنسانية في مجتمعات تنفق المليارات على مكافحة البدانة وإزالة الشحوم من أبدان أفرادها وفي وقت تتفرج فيه على هياكل عظمية متحركة للبشر الذاوي في بقاع أخرى من "كوكبنا الجميل"؟ قد يرد البعض على هذا التساؤل بتساؤل مضاد مفاده هل حقا

تشعر بمجتمعات متخمة بالضياع واللاجدوى وغارقة في نرجسية جماعية تدفعها إلى التصويت بنسبة ثمانين بالمائة لصالح مشروع تدمير بلد محاصر وشبه أعزل؟ نترك السياسة للسياسيين ونُيممُ وجوهنا شطر اللغويين لنعرف منهم معنى كلمة قريبة من موضوعنا في هذه البسطة ألا وهي "التعجيف". جذر الكلمة هو "عجف" ومعنى التعجيف الأكل دون الشبع بحسب لسان العرب لابن منظور، أما ابن الأعرابي فيعرفه على أنه نقل القوة إلى الغير قبل الشبع. والتعجيف ليس خاصا بالجوع والامتناع عن تناول الكثير من الطعام والشراب بل أن معناه ينصرف أيضا إلى الجانب الأخلاقي فيصبح التعجيف بمعنى (منع النفس عن المقابح)كما يسجل ابن منظور. باختصار: إنه فعل طوعي يقوم الإنسان بمؤداه بتناول نصف طعامه ويترك النصف الآخر لشخص آخر أو ليتناوله هو في وجبة أخرى فيريح بدنه ولا يحرمه من الطعام الكافي. وفي الحقيقة فثمة نقلة معبرة تنتشر في بعض بلدان أوروبا الغربية أو على الأقل في البلد الذي أقيم فيه منذ ستة عشر عاما تقريبا انتشار التقليعة ألا وهي التركيز على التغذي السليم وليس على الأكل وتناول الطعام المتنوع والكثير.شهدت هذا الموضوع في أكثر من وسيلة إعلام وحسبت الأمر مجرد حذلقة يملأ بها الأوروبيون وقتهم وفراغ حياتهم، ولكن ما لبثت أن أدركت عمق النقلة الأقرب إلى الثورة التغذوية التي بدأت تمتد وتنتشر وشعارها أو خلاصة مضمونها تقول يجب أن نتغذى لا أن نأكل. وهم يتكلمون عن أنفسهم طبعا وليس عن سائر البشرية فلنتذكر ذلك!

يفرق القوم إذن بين الأكل وتناول الطعام والشراب دون ضوابط مع كل ما يأتي به من بدانة وضغط دم وانسداد شرايين وبين التغذي الذي

يعني متابعة حاجات الجسد الغذائية وإشباعها بشكل علمي وسليم وممتع. المشكلة هي أن التغذي كما أثبت بعض الباحثين أغلى ثمنا من الأكل التقليدي! ويظل هذان النشاطان بسلبياتهما وإيجابياتهما حلما للجائع الفقير بسبب حكاية الشمال الغني والجنوب الفقير. والحقيقة لو كان الأمر متعلقا بالغنى المادي، أعني الغنى بالثروات الطبيعية، لانقلبت الآية، فبلدان الجنوب أغنى أضعاف المرات بمعادنها ونفوطها وغاباتها من بلدان الشمال. إن بلدا مثل الكونغو أغنى عشرين مرة من البلد الذي استعمرها طويلا أي بلجيكا كما إن أنغولا أغنى أربعين مرة من مستعمرها البرتغالي الفقير، أما الجزائر فقد كانت سلة الخبز الفرنسية لعدة قرون، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن من أسباب غزو الفرنسيين للجزائر واحتلالها لقرن وثلاثين عاما هو حجم الديون الهائلة على فرنسا كثمن للقموح التي كانت تستوردها من هذا البلد فقررت، بدلا من تسديد الديون، أن تبتلع الدائن الجزائري وديونه معا..

ولكن لماذا يجوع الجنوب الغني ومنه الجزائر حتى بعد تحقيق استقلاله وطرد المستعمر؟ سؤال شهي جدا.. صحتين!

١٧١- هدية للخليفة :

دخل أبو دولامة على الخليفة المهدي وبين يديه الوصيف سلمة واقفا وكان من معاني كلمة الوصيف الشاب فقال أبو دلامة: إني قد أهديت إليك يا أمير المؤمنين مهرا ليس لأحد مثله. فأمر الخليفة بإدخال المهر فإذا هو غل محطم أعجف هزيل فقال المهدي: ويحك، أيش هذا؟ ألم تزعم إنه

مهر؟ فقال أبو دلامة: أليس هذا سلمة الوصيف قائما بين يديك وعمره ثمانون عاما وتسميه الوصيف؟

١٧٢- النصب بالفتحة :

عن أبي بكر النقاش قال: كان أحد المؤذنين يقول في الأذان أشهد أن محمدٌ رسول الله. فقيل له لا ترفع اسم النبي عليه الصلاة والسلام بل انصبه وقل: أشهد أن محمدا بالنصب رسول الله ، فأذن الرجل وقال: أشهد أن محمدا بالنصب رسول الله. فسمعه إعرابي فصاح به: ويحك ماذا فعل؟

١٧٣- شيخ الله :

قال القاضي أبو بكر بن أحمد بن كامل: حضرت مجلس أحد المشايخ المغفلين فقال: عن رسول الله "ص" عن جبرائيل عن الله عن رجل. فقلت له: ويحك من هذا الذي يصلح لأن يكون شيخ الله تعالى؟ فنظرنا في الكتاب الذي يروي عنه فإذا المكتوب عنده (عن الله عز وجل) وقد صحفها.

٤٩ - مديح لصبية أوروبية!

عثر قبل بضعة أشهر على جثة فتاة أوروبية مقتولة في ضواحي إحدى المدن الكبرى، وقد اعترف الذئب البشري الذي قتلها خلال

محاكمته أنه اغتصب الفتاة بعد قتلها فسألته القاضية: ولماذا بعد قتلها وليس قبله؟ فقال لأنها دافعت عن نفسها وقاومته بضراوة لبوة شرسة طوال ساعة تقريبا، وتركت آثار جروح ورضوض على جسده، ولم تتركه ينل منها إلا بعد أن سقطت جثة هامدة..

ثمة ما هو خاص في كل ما هو عام، استثنائي فيما هو مألوف، خارق في كل ما هو سائد. غير أن حكاية هذه الصبية الأوروبية القتيلة ليست من غرار ما هو خاص، استثنائي، وخارق. واعتقد أن من شاهدوا أفلاما أوروبية اجتماعية كثيرة أو اطلعوا بشكل واسع على الأدب الروائي والحياة اليومية الأوربية سيفهم هذا الكلام الذي لا يستقيم مع ما هو مألوف في مخيالنا الجمعي نحن الشرقيين، فلقد نظرنا وننظر إلى أوروبا كحالة إباحية مطلقة وفالتة من كل شرط أخلاقي طوال التاريخ، وتلك نظرة ساذجة إلى جوهر الموضوع وقادمة من فهم شرقي للشرف الإنساني كقيمة جنسانية لا يزيد وزنها على وزن غشاء البكارة .

المرأة الأوروبية عاشت ثوراتها الخاصة وساهمت في صنع مفردات حياة مجتمعها وانطلاقا من الصفر التاريخي. بمعنى، أنها لم تسقط من السماء كامرأة متحررة وحائزة على شروط مساواتها. فإذا كانت المرأة الإنجليزية وحتى بدايات القرن الثامن عشر تجر بحبل من رقبتها بيد الزوج لتباع في سوق البهائم، فإنها ـــ ومع نهايات الحرب العالمية "الغربية" الثانية ـــ أمسكت فعلا برقبة مجتمعها وأضحت رقما صعبا لا يمكن القفز عليه في التخطيط والبناء والقيادة. وقد يُصدَم الحداثويون الشرقيون حين يعلمون بأن المرأة لم يسمح لها بالمشاركة في التصويت والترشيح الانتخابي في دول أوروبية عديدة إلا منذ عقود قليلة (وقبل قليل سمعت من القناة

الفرنسية الثانية تقريرا إخباريا حول الانتخابات في تركيا ورد فيه أن المرأة التركية سمح لها بالمشاركة في الانتخابات قبل المرأة الفرنسية / نشرة الأخبار الرئيسة على الساعة الثامنة مساء الأحد ٢٠٠٢/١١/٣/ والخبر مفاجأة حقيقية لم أسمع بها من قبل.. هذه الملاحظة أضيفت للمقالة بعد إرسالها إلى النشر)، لا بل أن التميز على أساس الجنس ولصالح الرجال مازال سائداً في موضوع المرتبات وأجور العمل وفي تحديد سن التقاعد للعمال والموظفين وما زال حضور المرأة في الهيئات القيادية رمزيا لا يتجاوز الخمسة بالمائة في جميع دول الاتحاد الأوروبي.

ومع ذلك فلا أحد يعتبر هذه المظاهر القليلة عارا أو نقيصة مجتمعية بل ربما نظر إليها بوصفها من بقايا المجتمع البطريكي الذكوري السائر في طريق الزوال. وفي خضم هذه النقلة المثيرة والجديدة تاريخيا، تمادت المجتمعات الأوروبية كثيرا في طريق التحرر الشامل الذي بدأ منذ الثورات الجذرية خلال القرن التاسع عشر بل أنه أفضى في بعض سياقاته إلى مآل يعطي الانطباع، بأن تلك المجتمعات تعيش فترة انتقال نحو نمط مجتمعي مختلف كليا وجديد كل الجد. فالزواج التقليدي أو الرسمي بشكليه الديني والمدني في سبيله إلى التلاشي، وشكل الأسرة التقليدية سواء كانت من النوع "البسيط" أو "الممتد" بدأت تزول بدورها لتحل محلها هيئة شبه أسرية بين رجل وامرأة كصديقين قد تدوم بضعة سنوات من الحياة والمعاشرة المشتركة دون إنجاب أو ارتباط رسمي.

ومن مظاهر أو إفرازات هذا النمط وجود ملايين العازبات والعازبين الذين يقطنون شقق صغيرة بمفردهم في المدن الأوروبية الكبرى، وشيوع وانتشار عادات وظواهر وعلاقات إباحية لا تكترث لسمو الجسد

الإنساني ورهافة العلاقة الجنسية، ولعل القارئ سيفاجأ على الرغم من كل ما تقدم من ملاحظات حين نقول بأن المرأة الأوروبية لا تقل عن زميلتها الشرقية في الاعتداد بأنوثتها وكرامتها الإنسانية وشرفها الشخصي، ولكن جوهر تلك الكرامة والشرف الشخصي لا يرتبط لديها ولدى المجتمع الغربي ككل بالفهم الشرقي القائم على القراءة الجنسانية لمسألة الشرف الفردي حيث الشرف يحيل دائما إلى مفهوم العفاف والتأثيم البدني تحديدا. لقد سددت الأوروبية ثمن حريتها من دمها خلال الحروب الأهلية والثورات ففي ثورة كومونة باريس في آذار سنة ١٨٧١ قاتلت حتى الموت عشرات الآلاف من النساء. وفي ضوء هذا الثمن، سنفهم سبب انتصاب قامة المرأة الأوروبية وطلاقة لسانها وصفاء ضحكتها واعتدادها بنفسها وسنفهم في الوقت عينه سبب تقوس ظهر المرأة الشرقية والتصاق عينيها الكسيرتين بالأرض دائما ورعبها التقليدي وانتظارها للمنقذ والمخلص حتى إذا كان ذئبا بشريا سينهش لحمها في أول سانحة.

وبتذكر مأثرة تلك الفتاة الشجاعة القتيلة يتساءل المرء حقا: ترى كم جنرالا من ذوي الشوارب الكثة عندنا مستعد للقتال "كلبوة شرسة" دفاعا عن كرامته الإنسانية وشرفه الشخصي إذا ما حاول زعيمه اغتصابه أي دفعه لإطلاق النار على شعبه؟

١٧٤- بالنحوي :

وقع نحوي في كنيف "مرحاض" فصاح به كناس: أنت على قيد الحياة؟ فأجاب النحوي : ابغَ لي سلماً وثيقاً وامسكه إمساكاً رفيقاً ولا

بأس علي. فقال الكناس: لو كنتَ تركت الفضول لتركه الساعة وأنت في الخـــ.. إلى الحلق!

١٧٥- معلم ظريف :

قال الجاحظ مررت بمعلم وقد كتب لغلام "وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه . يابني لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدون لك كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا" فقلت له ويحك، لقد أدخلت سورة في سورة أخرى! فقال المعلم: وماذا أفعل إذا كان أبوه يدخل راتب الشهر في الشهر الذي يليه؟

١٧٦- الملك لله :

رُميَّ رجل أعور بسهم فأصاب عينه السليمة فقال: أمسينا وأمسى الملك لله!

٥٠- من مآثر جداتنا.

التراث الإنساني عامة مزحوم ببطولات ومآثر الرجال وثمة دائما هامش صغير لنساء اعتبرن في عداد البطلات وصاحبات المآثر وهذا لأن التراث كسائر مساقات الحضارة الذكورية يكتبه الرجال. سأتذكر معك عزيزي القارئ بعض جداتنا الرائعات واللائي قلن كلمة الحق في حضرة سلطان جائر أو حاكم دموي مستبد، وسأبدأ بذكر واحدة منهن ظلمها

الحجاج الثقفي والمؤرخون معا. أما الحجاج فسيأتيك تفصيل حديثه معها بعد قليل وأما المؤرخون فلأنهم سجلوا لنا مأثرتها البطولية و لم يسجلوا اسمها!

يروي المؤرخون أن امرأة من مقاتلات الخوارج أُسرت في إحدى المعارك مع الجيش الأموي في العراق وأدخلت على والي العراق آنذاك والمعروف بدمويته الحجاج بن يوسف الثقفي وهو يتصدر ديوانه. وحين راح يسألها عن جلية أمرها كانت تجيبه دون أن تنظر إليه، وهنا تدخل شرطي من شرطة الحجاج وأمرها بأن تنظر إلى الأمير حين يكلمها أو تكلمه فرفضت أن تفعل وقالت: إنني أستحيي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه. فأمر الحجاج بقتلها فقتلت فورا.

هذه المرأة كانت تعرف من هو الحجاج، ولكنها ربما أرادت أن تموت صبرا "بالإعدام" أفضل لها من أن تموت تحت التعذيب. أو أنها، وقد علمت بأنه قاتلها لا محالة، شاءت أن تترك في ذاكرته تلك الصفعة الضميرية الرنانة.

وأرحم من الحجاج كان سيده الأموي معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية الأولى في بلاد الشام. فعلي الرغم من استبداده وشدته مع معارضيه من مخالفي الملك العضوض ظل معاوية صاحب حِلم ورأفة: يحدثنا التاريخ أن السيدة أروى بنت الحارث وكانت زعيمة عراقية من الموالين للإمام علي بن أبي طالب طالبت معاوية بعد أن استتب له الأمر بجراية سنوية مقررة لها قدرها ستة آلاف دينار فأعطاها المال وقال لها:

والله لو كان علي – في مكاني – ما أمر لك بهذا المال.

فقالت له ببداهة مدهشة:

صدقت، فإن عليا أدى الأمانة، وعمل بأمر الله وأخذ به، وأنت ضيعت أمانتك، وخنت الله في ماله، وأنا ما سألتك من مالك شيئا فتمن به عليَّ، إنما سألتك من حقنا.ثم أنشدت أبياتا جميلة من الشعر ترثي بها إمامها عليا فسكت معاوية و لم يقل لها أو يفعل بها شيئا.

وهذه زعيمة عراقية أخرى واسمها عكرشة بنت الأطرش وكانت تشارك في المعارك في جيش الخلافة ضد التمرد الأموي وتحرض المقاتلين ضده، دخلت على معاوية بعد أن انتصر وآلت إليه الخلافة فقال لها متشفيا:

يا عكرشة! الآن صرتُ أمير المؤمنين. فقالت له: نعم إذ لا علي حي.

ثم طلب منها أن تذكر حاجتها فطالبته بأن يرد عليها وعلى قوما صدقاتهم وجراياتهم المقررة منذ بدايات العهد الراشدي فتحجج معاوية بأن الأموال تذهب إلى أمور الدولة والدفاع عنها وهي أمور لها الأولوية فصاحت به عكرشة وهي ترتعد غضبا:

يا سبحان الله! ما فرض الله لنا حقا جعل فيه ضررا على غيرنا مما جعله لنا، وهو علام الغيوب.

واضح أن عكرشة استخدمت في قولها البليغ هذا المنطق المحبوك إضافة إلى فهمها الفقهي الحصيف فأفحمت معاوية الذي أدرك أنه في حضرة امرأة من طراز مختلف فقال لها اعترافا سيسجله التاريخ:

هيهات يا أهل العراق! لقد فقهكم علي بن أبي طالب فلن تطاقوا بعد الآن!

وهو المضمون ذاته التي ردَّ به معاوية ذاته على سودة بنت عمارة وهي من ذات المعسكر والنوع حين تجرأت عليه، وسودة هي قائلة البيت الشهير في حضرة معاوية ترثي به عليا وتقول:

صلى الإلهُ على جسمٍ تضمنهُ

قبرٌ فأصبحَ فيه العدلُ مدفونا.

قال معاوية إذن لسودة بنت عمارة :

لقد أرضعكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان وبطيئا ما تفطمون.

وذهب معاوية ودالت دولته ومازال اليوم الذي سيفطم فيه هؤلاء الناس ويتخلون عن الجرأة على السلطان الجائر بعيدا وبعيدا جدا.

ويمكن للمستزيد من مآثر جداتنا مراجعة كتاب "بلاغات النساء" للبغدادي.

١٧٧- المتحمس :

أجريت الخيل فطلع منها فرس سابق، فجعل رجل من النظارة يصرخ ويثب ويصيح : الله اكبر، الله أكبر!

فالتفت إليه رجل وسأله: يا فتى هل الفرس لك؟ فقال الرجل المتحمس: لا ولكن لجامها لجار لنا!

١٧٨- مفاجأة الموسم :

وقف رجل على الشاعر البغدادي الضرير والظريف أبو العيناء فأحس به فصاح أبو العيناء به: من هذا؟ فارتبك الرجل وقال: أنا رجل من بني آدم! فقال له أبو العيناء: مرحبا بك، أطال الله بقاءك، أما زلت في الدنيا ظننت أن نسلكم قد انقطع!

١٧٩- الشاهد و الجاحد

قال أبو عثمان : وسمع بعض الحمقى مؤذنا يؤذن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله .. فقال الأحمق ، أشهدها مع كل شاهد وأجحدها مع كل جاحد .

١٨٠- ملس وقرنان :

غضبت امرأة مزبد عليه ذات يوم فشتمته وقالت: يا مفلس يا قرنان "قواد" فقال لها:إن صدقت فالأولى من الله والثانية منك أنت.

١٨١- الحمد لله :

نظر مزبد إلى وجهه في المرآة فرآه شديد القبح فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

١٥- الكوجيكي

الكوجيكي أو (وقائع الأشياء القديمة) هو الكتاب المقدس للديانة الشنتوية وهي الأقدم في اليابان وقد ترجمه إلى اللغة العربية المترجم السوري محمد عضيمة قبل ثلاثة أعوام تقريبا.

إنه كتاب عجيب وطريف حقا، ولو اطلع على نصوصه شخص دون أن يعرف اسمه وموضوعه لظنه كتاب قصص للأطفال أو مجموعة ملاحم وأساطير خيالية. ومع ذلك فهو يشكل العمق الروحي والمنظومة القيمية المتوارثة للأمة اليابانية بل إن الفرد الياباني متشرب تماما بهذا الكتاب.

لقد حكم الإمبراطور اليابان بصفته مقدسا وذا أصل سماوي وهو الأصل نفسه الذي ترجع إليه مجموعة الجزر اليابانية فهي آلهة ولدتها آلهة أخرى بموجب كتاب الكوجيكي.

أن المفردات الدينية القادمة من تراثنا الديني الإبراهيمي تختلف تماما إن لم تكن غير موجودة أصلا بذات الدلالات في اللغة اليابانية، فمفردات مثل الدين والله والمقدس والعبادة لا تعني المحمولات التي نعرفها ذاتها. وأكثر من ذلك فالآلهة الوثنية التي يتكلم عنها الكوجيكي تختلف جذريا حتى عن الآلهة الوثنية في الحضارات السامية القديمة كالبابلية والآشورية وغيرهما، فالأولى لا تتصف بالخلود بل تعيش كالبشر وتشارك في الحروب وتُجرح وقد تُقتل وتموت. إن فكرة الوطن كمعطى مقدس تجد جذورها في كتاب الكوجيكي وفيه نجد أيضا جذور الحكم الإمبراطوري والإمبراطور بوصفه سليل آلهة الكوجيكي علما بأن الإمبراطور الحالي

كيو هيتو يحمل الرتبة الخامسة والعشرين بعد المائة في سلسلة حكام اليابان المقدسين.

ولإعطاء القارئ فكرة عن غرابة كتاب الكوجيكي هذه أدناه خلاصة سريعة لقصته الرئيسية :

يتزوج إيزناكي "الإله الذكر" من إيزانامي "الإلهة الأنثى" وينجبان جزر الأرخبيل الياباني ثم تموت إيزانامي بسبب احتراق عضوها التناسلي بعد ولادتها لإله النار وترحل إلى بلاد الظلمات أو مقر النفوس. يشتاق إيزناكي لرؤية زوجته ويقرر الذهاب لرؤيتها وإقناعها بالعودة إلى الحياة لإكمال عملية الإنجاب فتشترط عليه الآلهة أن يراها كما هي في الجحيم. وحين يرى منظرها المريع يصاب بالذعر والرعب ويهرب منها ثم يفصل بين عالم الموت وعالم الحياة بصخرة كبيرة. يأخذ إيزاناكي بالتطهر فتولد من عينه اليسرى الإلهة "أماتيراس" الشمس. ويطهر عينه اليمنى فيولد منها "تسكي يومي" القمر، ومن أنفه يولد الإله العنيف القوي سسانو وهو رمز الأرض بجميع مشكلاتها. يوزع الأب أولاده ليحكموا العالم ويكون على سسانو أن يحكم عالم البحار ولكنه يشرع بالبكاء لأنه يريد الذهاب إلى أمه في العالم الآخر فيغضب منه أبوه ويقرر نفيه فيذهب إلى أخته أماتيراس فتزلزل الجبال والبحار وترتعد أخته خوفا من قدومه ولكنه يطمئنها إلى أنه لا يطمع بملكها. ولكي تطمئن منه تماما تطلب منه سيفه وحين تأخذ السيف تكسره وتمضغه فيولد لها من السيف خمسة أبناء ثم يشرع سسانو بالعبث والتدمير وتخريب مملكة أخته وتختبئ هي في المغارة السماوية الصخرية وتغضب الآلهة على سسانو ويسود الظلام العالم بعد اختباء أماتيراس "الشمس" التي تسمع قهقهة وضحكات الآلهة فتسأل عن

السبب وتقول لها الإلهة الراقصة "أزميه" أنهم عثروا على إلهة أجمل منها، فتشق أماتيراس باب المغارة قليلا لترى، ولكن إله المرآة يقف في وجهها وبمساعدة الإلهة الحبل وإله ثالث يتمكنون من إخراجها ويعود الضوء إلى العالم ثم يقرر مجمع الآلهة معاقبة سسانو العابث فيقررون قص لحيته وقلع أظافره!

تلك هي القصة الرئيسية لكتاب الكوجيكي ولكنه يحتوي على قصص فرعية كثيرة ومنها مثلا قصة الأرنب الأبيض المشهورة وخلاصتها أن أرنبا أبيض أراد العبور من جزيرة أوكي إلى منطقة جميلة وآمنة فحاول أن يخدع الحيتان ويعبر على ظهورها وحين وصل إلى الجزيرة ضحك من الحيتان وقال أنه خدعها فضربه حوت بذيله وسلخ جلده. ظل الأرنب يبكي فنصحه أحد الآلهة بالنزول إلى البحر ليستعيد جلده، ولكن ماء البحر فعل العكس وتشقق الجلد. نصحه إله آخر هو "أوكني نشي" بالذهاب إلى مصب النهر ليغتسل بالمياه العذبة ثم يتمرغ بغبار الطلع تحت شجرة هناك وفعلا يستعيد الأرنب فراءه الأبيض الجميل ويخبر ناصحه بأنه هو من سيفوز بالأميرة الجميلة ياغامي!

ثمة العديد من القصص الطريفة والممتعة ولكن القوانين والأعراف التي كانت تحكم حياة اليابانيين القدماء لم تكن تخلو من القسوة البالغة أحيانا والتي تصل إلى درجة معاقبة المخالف للقانون مخالفة بسيطة باختطاف أسرته منه أما إذا كانت المخالفة كبيرة فإن أسرته تمحى من الوجود وكذلك أقرباؤه. ومن الطريف أن قصة سسانو المحفورة عميقا في نفوس اليابانيين جعلتهم الشعب الوحيد ربما الذي يفضل فيه الآباء المواليد

الإناث على الذكور وثمة تشنج معروف بين الأبناء الذكور والآباء اليابانيين .

إن التعرف على ديانات الشعوب الأخرى في عصرنا أصبح من بديهيات التعامل والتعارف الثقافي فعلى سبيل المثال يعرف الإنسان العادي في البلدان المتقدمة شيئا رئيسيا عن الديانة الشنتوية وعن الإسلام والبوذية والهندوسية والتاوية أما المثقف في هذه البلدان فيعرف الكثير في هذا الباب. ولكن هل يعرف المثقف في عالمنا العربي شيئا ما عن هذه الديانات الحية؟ ثم ألا تمارس هذه المعرفة تأثيرا إيجابيا على نظرة الإنسان العربي إلى ديانته الخاصة فيزداد احتراما لها وتبجيلا لمنظومة القيم الخيرة والإنسانية في جميع الديانات الحية التي تتقاسم كوكبنا الجميل؟

١٨٢- حديث اللحى :

عن ابن سيرين قال: إذا رأيت الرجل طويل اللحية فاعلم ذلك في عقله.

وقال زياد بن أبيه: ما زادت لحية رجل على قبضة يده إلا كان ما زاد فيها نقصا في عقله.

وقال بعض الحكماء: موضع العقل الدماغ وطريق الروح الانف وموضع الرعونة طول اللحية.

وقال بعض الشعراء :

إذا عرضت للفتى لحية ... وطالت فصارت إلى سرته
فنقصان عقل الفتى عندنا ... بمقدار ما زاد في لحيته.

١٨٣- ابنة أبي هريرة :

رأى أبو هريرة على إصبع ابنته خاتما ذهبا فقال لها: لا تختمي بالذهب فإنه لهب. فبينما هو يحدثهم إذ بدت كفه فإذا فيها خاتم ذهب فقيل له: تنهانا عن لبس الذهب وتلبسه أنت؟ فقال أبو هريرة: أنا لست ابنة أبي هريرة!

١٨٤- فهد للخليفة :

كتب الخليفة المتوكل إلى أحد ولاته يطلب منه فهدا فكتب له الوالي يقول: نجوت عند مقام لا إله إلا الله وصلى الله على سيدنا محمد، فديته إن كان عندي مما طلبته من الفهود وزن دانق ، لا فهد ولا نمر، وتظن يا سيدي أني أبخل عليك بالقليل.

٥٢- العرب والصين.

وثقَّ المؤرخون أول اتصال صيني مع المشرق العربي وأرخوه في سنة ٩٧م حين وصلت بعثة ملكية في عهد أسرة الهان إلى "تياوتيجيه" أي العراق وكان محتلا آنذاك من قبل الفرس الساسانيين. وكان هدف البعثة بعد ذلك الوصول إلى "تاتشن" أي الشام، ولكن هذا الهدف لم يتحقق لأن مضيفيها الرسميين أي المحتلين الفرس ثبطوها عن استكمال رحلتها وزعموا أن الطريق إلى الشام طويل يستغرق عامين أو أكثر فقرر قائد

البعثة وكان اسمه "كان ينغ " عدم الذهاب إلى هناك والعودة بالبعثة إلى الصين.

أما أول اتصال عربي بيلاد الصين فقد حدث في سنة ٢٢٦ م حين وصل تاجر سوري إلى الصين واسمه بالكتابة المقطعية الصينية "تشين لون" وقد استقبل هذا التاجر من قبل الإمبراطور "سون تشوان" المعروف باهتماماته الجغرافية فطلب من ذلك التاجر أن يعرف له بلاده وشعبه ففعل. وقبل عودة التاجر السوري منحه الإمبراطور هدية قد تبدو لنا اليوم غريبة أو مستنكرة وهي عبارة عن جماعة من الأقزام السمر تضم عشرة ذكور وخمس إناث وأرفق معه ضابطا حارسا يدعى "ليوشين" مات قبل الوصول إلى الشام. وبعد زيارة "تشين لون" العربي السوري وربما زيارات أخرى لزملاء آخرين ترسخت بعض الصفات للسوريين في الذاكرة الصينية ، فهم بحسب هذه الذاكرة طوال القامة وصادقون في تعاملهم التجاري ونساؤهم بيض البشرة! ومن الشذرات القليلة المشيرة إلى الصين وأهلها في العهد القبلسلامي "الجاهلي" يمكننا الإشارة إلى استعمالهم كلمة "مي" الصينية ومعناها "جمال" كاسم علم للمرأة ومثالها "مي" حبيبة الشاعر النابغة الذبياني والى استعمالهم للمرآة البرونزية الصافية والتي عرف أهل الصين بصناعتها وذكرها عدد من شعراء العصر الجاهلي.

وقد تطورت الاتصالات في هذا العصر والذي توصل فيه الصينيون في حقبة "سوي ٥٨١ قبل الميلاد" إلى بناء المواخر الكبيرة والتي وصلوا بواسطتها إلى بحار العرب والفرس وبهذا المعنى كتب المؤرخ العربي المشهور المسعودي في كتابه (مروج الذهب: ١٠٣-١٠٤) يقول (وكان

الفرات ينتهي إلى بلاد الحيرة ونهرها بين هذا الوقت وهو ما يعرف بالعتيق وعليه وقعة المسلمين مع رستم وهي وقعة القادسية.) وفي سنة ١٣٤ هـ أي بعد قيام دولة بني العباس بعامين وقعت معركة بين العرب المسلمين بقيادة العباسين هذه المرة الذين يسميهم الصينيون "خي بي تاشي" أي ذوي الملابس السوداء، وبين الجيوش الصينية وأسفرت المعركة عن هزيمة قاسية للصينيين ونصر كبير للمسلمين وقد خسر الصينيون عددا كبيرا من القتلى والأسرى وبعد هذه المعركة أصبحت السيوف العربية التي تمتاز بالحدة والرهافة موضوعا على كل شفة ولسان في الصين حتى أن شاعرا صينيا هو "دو فو" استعملها في تشبيهاته الشعرية فقال في بيت شعري: لا يقاربه في حدته إلا سيوف العرب. (المستطرف الصيني /ص٢٩٧ هادي العلوي / وقد اعتمدناه مصدرا أولا في هذه المقالة)

وفي عهد أبو جعفر المنصور، باني بغداد، وصلت إلى الصين نجدة عسكرية تتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف مقاتل لإنقاذ عرش الإمبراطور "سو تزونغ" ووصلت النجدة سنة ٧٦٢م وقاتلت إلى جانب الحرس الإمبراطوري ودحرت المتمردين نهائيا. في القرن الثامن سنة ٧٨٧ وبعد عام على تولي الرشيد الخلافة نشأ حلف عربي صيني لمواجهة الخطر التبيتي الذي أخذ يهدد غرب الصين وقد تحدث عن هذا الحلف "العربي الصيني" المؤرخ "جوزيف نيدهام ".

وفي أسرة يوان المغولية صار للمسلمين من العرب وغير العرب حضور فاعل ونشاط كبير في الحياة الصينية وكان "قوبلاي خان" قائد المغول الذي احتل الصين قد جعل من رجل مسلم اسمه أحمد كبيرا

لوزرائه كما استعمل المغول التقويم الإسلامي الذي ابتكره فلكي مسلم فارسي يدعى جمال الدين.كما أدخل الفلكيون المسلمون نظام الأسبوع البابلي القديم إلى التقويم الصيني الذي كان زمانه خاليا من الأسبوع. وكان للمسلمين حضور كبير في الميدان العسكري، فإذا كان الصينيون قد اخترعوا البارود فإن عسكريا مسلما في جيشهم هو الذي اخترع المدفع وقذيفته.. ومما يثير الحيرة هنا هو تأخر العرب المسلمين في الأندلس عن الوصول إلى هذا الاختراع المقارب لهم زمنيا وقد كان تسلح الأسبان القوط بالمدافع وعدم وجوده لدي المسلمين من أهم أسباب هزيمة العرب المسلمين هناك فيما يسمى حروب الاسترداد.

زبدة الكلام هي أن العرب المسلمين حين كانوا يصنعون صعودهم الحضاري في عهود العقلانية والتسامح وخصوصا في عهد المنصور والرشيد والمأمون فقد كانوا يصنعون تاريخ العالم أيضا فيرسلون الجيوش لحماية حليفهم إمبراطور الصين، أما حين انكفأوا تحت ركام وظلام الحقبة السلفية العثمانية والمملوكية فقد صارت الجواري وقطاع الطرق والدراويش هم صناع الانحدار الحضاري.

١٨٥- سين وجيم :

سئل إعرابي عن اسمه فقال اسمي عبد الله فقيل ابن من؟ فقال: ابن عبد الله. فقيل ابن من؟ فقال: ابن عبد الرحمن. فقال له السائل: أشهد انك تلوذ بالله تعالى لواذ يتيم جبان.

وسئل آخر عن دينه فقال: ديني أخرقه بالمعاصي وأرقعه بالاستغفار.

١٨٦- معاوية وجارية :

قال معاوية بن أبي سفيان لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على أهلك إذ سموك جارية! فقال له جارية: وما كان أهونك أنت على أهلك إذ سموك معاوية[١٥].

١٨٧- مصالحة من نوع خاص :

وقع بين الأعمش وزوجته وحشة فطلب من أحد أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما. فدخل الفقيه إليها وقال: عن أبا محمد "العمش" شيخ كبير فلا يزهدنك فيه عمش عينيه وضعف ساقيه ودقة ركبتيه ونتن بطنه وبخر فيه "رائحة فمه" وجمود كفيه "بخله" فصاح به الأعمش: قم قبحك الله لقد أريتها من عيوبي ما لم تكن تعلم.

١٨٨- ديك مزبد :

أراد مزبد أن يضحي في العيد فاشترى ديكا لفقره فعلم جيرانه فأرسل له كل واحد منهم شاة حتى اجتمع لديه سبع شياه فقال: ديكي أفضل عند الله من إسحاق لأنه فُدِيٍّ بكبش واحد وديكي فدي بسبع شياه.

---

١٥ ـــ معاوية = الأنثى من الكلاب.

١٨٩- صديق بشار :

زار إبراهيم بن سيابة الشاعر بشار فقال له: ما رأيت أعمى إلا وقد عوض الله عليه بالحفظ أو الذكاء أو حسن الصوت فأي شيء عوضت أنت؟ فقال بشار: عوضت بصديق ثقيل هو أنت.

٥٣- رسالة يوسف

الرسالة المفتوحة التي وجهها المؤرخ العربي الفلسطيني يوسف سامي اليوسف إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جورج بوش الابن، ونشرتها بعض الصحف العربية، تستحق أكثر من قراءة لأهميتها الفائقة. ولكنني سأحاول أن أقدم لها في هذه الفسحة قراءة بعيدة عن السياسة أو للدقة بعيدة: عن السياسة المباشرة!

بعد السلام على من اتبع العقل وحاز مكارم الأخلاق، يعرف المرسل نفسه بالقول بأنه ينتسب (إلى الأرض الجليلة التي أنجبت السيد المسيح وأما أنت فتنتسب إلى الشعب الوحيد الذي ضرب البشر بالأسلحة النووية وذلك سنة ١٩٤٥ وهذه فعلة إجرامية تستهين بقيم الإنسان ولم يفعلها أحد قبلكم ولا بعدكم .)

يمكن أن ينظر بعض المثقفين المعقَمين ضد "التلوثات" السياسية والمحافظين على نمط من الحياد بين السيف والرقبة إلى رسالة هذا المؤرخ والمثقف الشجاع وذي الوجدان الحي بوصفها خوضا في ميدان لم يعد يجدي الخوض فيه "في زمن انهيار الأدلوجات". ولكننا لو دققنا النظر مليا

في الأمر لوجدنا أن هذا لزمن ليس زمن انهيار الأدلوجات والأحزاب بقدر ما هو زمن انهيار شكل تاريخي محدد من العلاقات بين الأدلوجات. بمعنى، إن الذي انهار فعلا هو تلك العلاقة التصارعية "الافتراسية" اللاعقلانية والتي لا تمت بصلة إلى تاريخ الفكر الإنساني على مدى التاريخ. فبدلا من علاقات التفاعل والإخصاب المتبادل بين أقانيم الفكر ساد نوع من الحرب الأدلوجية خلال فترة الحرب الباردة أضرت قبل كل شيء بالطرف الصاعد والمدافع عن التقدم الإنساني.

وبالعودة إلى رسالة يوسف اليوسف، نجد أنها تقيم ذلك الجسر الصحيح بين رؤيتنا نحن ضحايا الإرهاب والظلم الغربي، وهي رؤية متعصبة لنفسها دون ريب، وبغض النظر عن صوابية معطياتها وبين المعطيات الفعلية والمتجسدة على الأرض بفعل حركة المشروع الغربي الساعي إلى الهيمنة المطلقة على الكوكب. يتبدى ذلك الجسر واضحا مثلا في تأكيد المؤرخ على أن (الشرق هو الذي اخترع الإنسان نفسه، وقبلنا لم يكن هنالك سوى الوحش. ثم إننا نحن الذين جعلنا الإنسان كائنا ممكنا في هذا الوجود الذي جلبتم إليه من الشقاء ما لم تجلبه أية قوة تاريخية أخرى دون استثناء المغول التتار.) ولكنه يعترف في الوقت ذاته بأن الولايات المتحدة هي (قوة لا مثيل لها في التاريخ البشري منذ بناء الأهرام إلى اليوم ولكن هذه القوة لا تتمتع بأية رسالة كونية أو إنسانية عامة تستهدف النهوض بالجنس البشري كله بحيث تتوقف الحرب والصراع اللذين يسودان الأرض منذ آلاف السنوات).

إنها مرافعة موثقة وشهمة دفاعا عن البشر وليس عن البشر في الشرق فحسب بل عنهم في كل مكان.. فالبؤس والفقر والاضطهاد

يمكث على حدود الإمبراطورية الأمريكية ذاتها وفي أمريكا اللاتينية التي يسميها أعلامها "الحديقة الخلفية لأمريكا"، وفي عدد من البلدان الأمريكية الجنوبية،كما هي الحال في البرازيل، صار بيع الأعضاء البشرية المقتلعة غصبا من أطفال الشوارع والمشردين بضاعة رائجة وشبه علنية.

يتابع اليوسف حشد ترسانة الإدانة ضد أمريكا، ويحصي عمليات العدوان التي شنتها ضد شعوب العالم، ثم يعرج على نوايا أمريكا العدوانية ضد العراق والتي لا تخلو من التحريض الصهيوني العلني، معيدا هذا التحريض إلى جذوره القديمة أي إلى الثارات التي لا يريد الصهانية نسيانها ضد العراق منذ أيام سركون ونبوخذنصر. ثم يستدرك المرسل فيقول (أنا ميال إلى الظن أنك أمي ثقافيا شأنك شأن معظم الأمريكيين ولهذا فأنا أرتاب بأنك تعرف سركون ونبوخذ نصر). وبعد أن يناقش اليوسف أطروحات الفيلسوف الألماني شبنغلر حول خريف الغرب وعلائم انحطاطه يضيف علامة أخرى لم يذكرها الفيلسوف الألماني وهي أن من يحكم أمريكا والغرب ويهيمن عليهما هي الحركة الصهيونية. ويختم رسالته بالقول (واليوم ها أنتم أولاء تريدون تقسيم العراق إلى ثلاثة أقسام أو أكثر. ترى كم طفلا عراقيا سوف تقتل يا جورج لكي يعيش أطفال الغيتو الصهيوني بأمان؟ إن الصهيوني يحمل قنبلة نووية في كل يد من يديه ومع ذلك فهو يرتعد فرقا من المستقبل ولهذا فهو يحرضكم على العراق ولا تجدون أمامكم من سبيل للتمرد، حتى ولا إلى التفكير بمصالحكم التي قد تتضرر من العدوان المرتقب.)

تلك هي اللغة السياسية غير المعهودة التي يكتب بها المثقف التحرري والمقاوم وهي تختلف كثيرا عن لغة السياسي المحترف والبارع في تزييف

الوعي العام وتلميع الأكاذيب. شيء واحد افتقدناه في رسالة أستاذنا اليوسف ولا مبرر لهذا الفقدان الذي يشيع عادة بين المثقفين العرب أو لدى أغلبهم ألا وهو: التأشير على مأساة العراقيين والاضطهاد الذي يعانون منه على يد نظامهم الحاكم المستبد والذي هو من مصنوعات المرسل إليه بشكل من الأشكال وهي مأساة كما يعلم المرسل لم تبدأ بالأمس القريب بل فاق عمرها الثلاثة عقود.

١٩٠- شاهدان مناسبان :

تقدم إلى أبي صمصامة القاضي رجلان، فادعى أحدهما على الآخر طنبورا فأنكر الآخر فقال القاضي للمدعي: أعندك بينة؟ فقال: لي شاهدان. فأحضر المدعي الشاهدين. فسأل القاضي الشاهد الأول عن صنعته فقال أنه نباذ "صانع وبائع نبيذ" وسأل الثاني فاعترف له بأنه قواد. فصاح القاضي بالمدعى عليه: أتريد أعدل من هذين الشاهدين على طنبور؟ أعطه طنبوره!

١٩١- حصاة تصيح :

سأل رجل الفقيه عمر بن قيس عن الحصاة من حصى المسجد يجدها المصلي في ثوبه أو خفه أو جبته فماذا يفعل بها؟ قال عمر: ارم بها. فقال الرجل: زعموا أن حصاة المسجد تظل تصيح وتصيح حتى تعاد إلى المسجد. فقال عمر : دعها تصيح حتى ينشق حلقها! فسأله الرجل: وهل للحصاة حلق؟ فقال الفقيه: فمن أين تصيح إذن؟

١٩٢- طارت الفرس :

كان بمدينة واسط رجل مغفل، إلى جانب داره إسطبل فقال له أهله: نحن نغسل الثياب في سطح الدار فتطير إلى الإسطبل فلا يردونها إلينا. فقال لهم: وانتم إذا طار لهم لجام، مقود، فرس، فلا تردوه إليهم.

١٩٣- دهقان يتحدى الفرزدق :

روى الأصمعي أن الفرزدق قال: ما أعياني جواب أحد كما أعياني جواب دهقان ذات مرة فقد سألني: أنت الفرزدق الشاعر؟ قلت: نعم. قال: فهل أموت إن أنت هجوتني. قلت: لا قال: وهل تموت عيشونة ابنتي؟ قلت: لا. قال فرجلي إلى عنقي في حر أمك إذن. فقلت له: ولماذا تركت رأسك خارجا؟ قال: حتى انظر أي شيء تصنع بعد ذلك؟

٥٤- الآداب الممنوعة.

لا يبدو أن الاستبداد وشروره بات حكرا على دنيا السياسة في العالم العربي إذ أن مجزرة مشابهة تجري منذ عدة عقود في ميدان الفكر والأدب والثقافة بعامة وبطل هذه المجزرة هو الرقيب الحكومي.

مجلة " الآداب " البيروتية العريقة وبإدارتها الشابة التي يقودها د. سماح إدريس تجرأت على فتح هذا الملف الشائك في دولتين عربيتين مهمتين هما

سورية في عددها لشهري تموز وآب ومصر في عددها الأخير الصادر قبل أيام.

يمكن تسجيل الهيمنة المتفاقمة للحيز الفكري والسياسي على متن هذه المجلة ذات الاسم والانشغالات الأدبية

لقد سلطت مجلة الآداب ضوءا قويا وساطعا عن واحدة من أعتق معاقل الرقابة والقمع المسلط على الإبداع ومدارات اشتغال العقل الإنساني في مصر غير أن اللافت هو أن الزميل معد الملف كان حذرا أكثر مما ينبغي في التصدي لفرع مهم في ماكنة الرقابة والقمع الفكري والإبداعي وهو المؤسسة الدينية ممثلة في الرقابة الأزهرية فلم يجر تناول الرقابة المجتمعية والتي يشكلها حملة الفكر الرجعي والأدلوجة السلفية المهيمنة بدعم من الدولة العربية التابعة للغرب سياسيا واقتصاديا وهو الأمر الذي تطرق إليه المشاركون في ملف الرقابة في سورية بكثير من الجرأة.

ومن طريف أخبار مجلة "الآداب" بعد نشر هذا الملف ومما ورد في رسالة شخصية من رئيس تحريرها د. سماح إدريس إلى كاتب هذه السطور إذ نعلم أن السلطات المصرية التي كانت قد منعت مجلة "الآداب" من التوزيع والتداول في مصر خلال الأعوام الماضية ألغت قرارها وسمحت بتوزيع المجلة.

الخبر الأكثر طرافة. من هذا الذي حملته رسالة د. سماح إدريس هو أن دولتين عربيتين منعتا المجلة من التوزيع بعد أن كانت توزع وهما الأردن والكويت. ويمكن للمرء أن يتساءل: هل يكمن سبب قرار المنع

في هاتين الدولتين في الخوف من أن تكون الحلقة القادمة من ملف الرقابة مخصصة لواحدة منهما فاتخذا ما يمكن وصفه بالإجراء الوقائي ضد النور، أم أننا نجد السبب في زيادة جرعة العداء الفكري والسياسي في ما تنشر هذه المجلة للهيمنة الأمريكية وللإرهاب الصهيوني؟ أم أن قرار المنع يكمن في كلا السببين وفي أسباب أخرى؟

كانت المجلة قد ذكرت في افتتاحية عددها لشهري تموز وآب أنها تعرضت إلى المصادرة والإتلاف في دولتين عربيتين حيث أتلفت السلطات المتخصصة خمسمائة نسخة في كل دولة منهما ودون أن تذكر اسمي الدولتين.

ومن الطبيعي أن يتساءل المبدعون العراقيون: ترى هل سيحين موعد فتح ملف الرقابة في العراق قريبا؟ يعتقد كاتب هذه السطور أن فتح ذلك الملف عراقيا سيكون أمراً ترفياً واستهلاكياً ولا فائدة منه سوى تسجيل إدانة مسجلة أصلا وبالدم المبدع فالرقابة على الفكر والإبداع لا وجود لها في العراق تقريبا!! ليس بسبب "ديموقراطية" النظام بل لأن الغالبية الساحقة من المبدعين والمفكرين والفنانين والكوادر العلمية قد غادروا العراق بسبب القمع والاستبداد الداخلي والحصار الغربي، ولهذا فحين يكون المستهدف في العراق هو اللحم البشري الحي، فتقطع ألسنة الناس وأنوفهم وآذانهم ويطلق عليهم الرصاص لشتى التهم الباطلة ليطالب ذويهم، من ثم، بتسديد ثمن ذلك الرصاص سيكون فتح ملف الرقابة على الفكر والأدب في العراق والحديث عنها أقرب إلى المزحة الثقيلة منه إلى الشأن الثقافي الجاد.

١٩٤- الشامي والعراقي :

عن ابن المزربان قال: أخبرني بعض الأدباء أن رجلا من العراق اختصم مع رجل من الشام فقال العراقي للشامي في كلام جرى بينهما: حلق الله لحيتك. فرد عليه الشامي: في مكة عن شاء الله!

١٩٥- عيسى ومعاوية :

وعن المزربان أيضا قال: سئل خطيب: أي أفضل معاوية بن سفيان أم عيسى بن مريم؟ فقال الخطيب: لا إله إلا الله، أتقيس كاتب الوحي معاوية بنبي النصارى؟

١٩٦- فوائد الأذن :

يحكى أن جماعة من أهل مدينة حمص تذاكروا في فوائد الأعضاء ومنافعها فقالوا: الأنف للشم والفم للأكل واللسان للكلام فما فائدة الأذنين؟ فلم يتوصلوا إلى جواب فأجمعوا على قصد القاضي ليسألوه عن ذلك فوجدوه في شغل فجلسوا على باب داره ينتظرون فراغه من شغله فنظروا إلى دكان خياط مقابلهم وإذا بالخياط قد فتل خيوطا ووضعها على أذنه فقالوا: لقد أتانا الله بما جئنا نسأل القاضي عنه، إنما خلق الأذنان لوضع فتائل الخيوط عليها.

١٩٧- اللقيط يحتج :

دخل شاب على المنصور فسأله عن وفاة أبيه، فقال: مات رحمه الله يوم كذا وكان مرضه رضي الله عنه كذا وكذا وترك من المال عفا الله عنه كذا وكذا فانتهره الربيع - وكان لقيطا - وقال له: أبين يدي أمير المؤمنين توالي الدعاء لأبيك؟ فقال الشاب: لا ألومك يا هذا فأنت لم تعرف حلاوة الأبوة. فضحك المنصور ضحكا لم يسمعه منه أحد من قبل.

٥٥- ليكن انتقام العراقيين تسامحا!

حين دخلت قوات الحركة الساندينية العاصمة النيكاراغوية "ماناغوا" ظافرة ألقى قائد الحركة دانيال أورتيغا والذي أعدم الدكتاتور المطاح به سوموزا عددا من أشقائه وأقاربه خطاباً في الثوار المنتصرين، وفي جماهير الناس التي ذاقت الويل بسبب قمع سوموزا ومضاعفات الحرب الأهلية فقال ضمن ما قال جملة ظلت تردد طويلا في مسامع الجميع، منتصرين ومهزومين، أسياد الأمس وأسياد اليوم، قال: ليكن انتقامنا الغفران!

لقد كان بوسع هذا القائد وفي اقتداره أن ينظم حمام دماء رهيب وسهل لبقايا ورموز النظام المنهار، وكان بوسعه وفي اقتداره أن يفكر بعقلية ثأرية فينتقم لأشقائه وأقاربه وأبناء شعبه الذين قتلوا ظلما وعدوانا على يد الدكتاتور وزبانيته فيقتص من عدوه المهزوم ويروي غليل المهضومين وهو في صدارتهم! لكنه اختار الطريق الأصعب والذي لا يلجه سوى ذوي الأرواح العظيمة والحساسية العالية تجاه الحياة ونسغها

السري ألا وهو طريق العفو والغفران عمن ظلم واستبد من قبل المنتصر المقتدر.

شيء كهذا حدث على ما يروي الرواة حين دخلت قوات الثوار العاصمة الكوبية بقيادة تشي جيفارا وفيدال كاسترو بعد اندحار قوات الطاغية باتيستا ويومها قدم قائد الجهاز الأمني للحركة الثورية قائمة طويلة بأسماء رجال العهد المباد وعناصره القمعية التي تم اعتقالها إلى تشي جيفارا مقترحا محاكمة هؤلاء علنا أمام الجماهير وإعدامهم، فما كان من جيفارا إلا أن جَعْلَكَ ورقة القائمة ورماها جانبا وهو يقول لرفيقه عبارته الذهبية :

يكفي ما في كوبا من أرامل وأيتام!

أمثلة كثيرة تزين تاريخ الشعوب كالمجوهرات التي تخطف الأبصار والألباب والتي تحيلنا إلى الجانب المضيء في تاريخ البشر بعامة فتجعل اجتراح البطولات الحقيقية ليس في كسر قوى الخصم أو إبادته عن طريق إلقاء قنبلة نووية – كما فعل الأمريكي ترومان – على مئات الآلاف من الناس الأبرياء، دون تفريق بين عسكري ومدني أو بين رجل كهل وطفل رضيع لا يعرف للحياة والوجود معنى، بل جعل ميدان البطولة الأنبل والأسمى في ميدان التسامح وثقافة اللاعنف والحوار العقلاني وجعل الرحمة فوق العدل إن لم تكن صنوه وشرطه المندغم به .

غير أن الغريب في الموضوع هو أن أمثلة هذه البطولات تغيب عن أذهان الناس، ولا يمكث في الذاكرة الجمعية غير مشاهد الدمار والألم والدماء، فهم ينسون بسرعة معجزة تفكيك النظام العنصري الدموي في جنوب أفريقيا الذي دام عدة قرون وكان مسلحا بالقنابل النووية

والاقتصاد المتين فتم تفكيكه بشكل سلمي وسلس وإنساني. وهم ينسون الثورة "القرنفلية" في البرتغال أو الثورة "المخملية" في جمهورية جيكوسلوفاكيا وفي العديد من دول أوربا الشرقية ذات الأنظمة الستالينية. وأسمح لنفسي هنا بأن أفتح قوسا وأسجل احترامي، على الرغم من مواقفي الشديدة النقدية للتجربة الستالينية، لقادة تلك الأنظمة وللطريقة التي تصرفوا بها بمنتهى النبل والتحضر والإنسانية وبشهادة حتى أعدائهم الرأسماليين وفي اليمين المتطرف خصوصا، ربما باستثناء الحالة الملتبسة والدموية في رومانيا، فانسحبوا من السلطة بهدوء وذهب من ذهب منهم إلى المنفى، وانتحر البعض، وبدأ البعض الآخر يؤسس لتجربة جديدة عادت به إلى السلطة قبل أن ينصرم عقد واحد على هزيمته المدوية. لقد كان بمقدور هؤلاء -كما قال أحدهم وهو هونيكر رئيس ألمانيا الشرقية – ارتكاب حمام من دم في قلب أوروبا ولكنهم رفضوا ذلك الخيار رفضا قاطعا وسلموا المفاتيح بشجاعة لأعدائهم المنتصرين!

وقد استمعت قبل عدة أيام إلى الدبلوماسي العربي في الأمم المتحدة الأخضر الإبراهيمي وهو يدلي بمداخلة في برنامج تلفزي حول أفغانستان، فروى أنه تحادث ذات مرة مع بعض رموز المعارضة التشيلية خلال فترة تنحي الدكتاتور بينوشيت عن السلطة، وناقشهم حول قرارهم بالدخول في مفاوضات مع النظام الاستبدادي والتخلي عن طريق التغيير بواسطة العنف المسلح. يقول الإبراهيمي سألتهم عن الدافع الأساسي لاتخاذهم هذا القرار فقالوا:

كنا نناضل في الماضي من أجل العدالة والسلام ثم وصلنا، وبعد عشرين عاما من القتال ضد نظام بينوشيت، إلى درجة اقتنعنا فيها بأننا من الممكن أن نربح السلام أما العدالة فليس الآن على الأقل!

لعمري تلك هي طريقة تفكير الأحرار إذا ما اتفقنا على أن الإنسان الحر ليس هو من يرفض أن يقع عليه ظلم الآخر بل هو أيضا، وفي الآن ذاته، من يرفض أن يوقع الظلم على الآخر.

١٩٨- اسمه مجرم :

صلى إعرابي خلف أحد الأئمة في الصف الأول وكان اسمه مجرما فقرأ الإمام "والمرسلات... إلى قوله تعالى (ألم نهلك الأولين..) فتأخر الإعرابي إلى الصف التالي فقرأ الإمام: ثم نتبعهم بالآخرين. فرجع الإعرابي إلى الصف الأوسط. وحين قرأ الإمام "كذلك نفعل بالمجرمين" ولى الإعرابي هاربا وهو يقول: أنا المطلوب لا غيري!

١٩٩- املأ الفراغات :

كان رجل كثير المخاصمة لامرأته وله جار يعاتبه على ذلك، فلما كان في بعض الليالي خاصمها خصومة شديدة وضربها فدخل عليه جاره وقال له: يا هذا اعمل معها كما قال الله تعالى: إما إمساك أيش اسمه أو تسريح ما أدري أيش..

وهو يقصد الآية الكريمة "إما إمساك بإحسان أو تسريح بمعروف"

٢٠٠ - الوالي المثقف:

أنشد الوالي عبد اله بن فضلويه والي قرميسين في مجلسه والمجلس غاص بالناس بيتا من الشعر يقول :

يوم القيامة يوم لا دواء له إلا الطلاء وإلا اللهو والطرب.

فقال له أحد الحضور: إنما هو يوم الحجامة..وليس القيامة.

فقال الوالي:

اعذروني فأنا لا أحسن النحو.

٢٠١- خاتم السفاح :

كان أبو العباس السفاح يوما مشرفا على دار له ومعه زوجته أم سلمة فعبثت بخاتمها فسقط في صحن الدار فألقى السفاح خاتمه أيضا فقالت زوجته: ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: خشيت أن يستوحش خاتمك فآنسته بخاتمي غيرة عليه لانفراده.

٥٦- الحب، الخوف، أم المعرفة؟

لو طرحنا السؤال التالي (أيهما أكثر فائدة وإيجابية في حياة البشر الحب أم الخوف؟) لوجدنا أن أغلبية كاسحة من الأجوبة ستميل إلى جانب الحب. الأسباب وراء ذلك ليست عويصة تماما، وبعضها يتعلق

بآراء مسبقة ونتاج تربية واعتياد وتقاليد مجتمعية متراكمة جعلت من الحب هو الجذر المشترك لكل ما هو إيجابي ونبيل ومقدس وجميل .. الخ. وأصارح القارئ بأنني كنت سأميل مع الأغلبية المصوتة لصالح الحب لو لم أطلع على وجهة نظر مخالفة أقنعتني بصوابها جزئيا .

وجهة النظر هذه تعود للكاتب والفنان الأمريكي المتمرد بول بولز الذي قضى شطرا مهما من حياته في مدينة طنجة المغربية. وقد كتب عنه الروائي المغربي محمد شكري صاحب "الخبز الحافي" كتابا صغيرا وكثيفا وممتعا رغم لغته الشبيه بلغة الترجمات الفقيرة إلى السلاسة بعنوان "بول بولز وعزلة طنجة"، وهو الكتاب الثالث من هذا الغرار لشكري إذ سبق له وأن كتب عن الفرنسي جان جنيه وعن الأمريكي تنسي وليمز في طنجة. بالعودة إلى وجهة نظر بول بولز حول الحب والخوف وتأثيرهما على الحياة الإنسانية يقول هذا الأخير ما معناه أن التأثير المباشر للحب هو تكاثري فقط، فبه يضمن الجنس البشري وجودة وانتشاره وتناسله العددي لا أكثر ولا أقل، أما الخوف فهو السبب المباشر والقوي خلف جميع الإنجازات العظيمة التي حققها البشر على امتداد تاريخهم.

يمكننا أن نمدد هذه الفكرة الثاقبة ونكسوها بلحم الأمثلة فنقول أن خوف الإنسان مثلا من الفيضانات هو ما دعاه لبناء السدود والخزانات والقلاع الشاهقة فولدت الهندسة وخوفه من الأمراض ومعاناة آلامها هو ما جعله يبحث عن الأدوية وأساليب العلاج فولد الطب. الخوف، إذن، شعور فطري يعتري الإنسان فيدفعه إلى البحث عن وسائل دفاعية يتجنب بواسطتها المعاناة والألم، فيتفادى الموت مؤقتا وتنتصر الحياة لديه

وبهذا فهو يرتقي إلى درجة أعلى في سلم التطور الإنساني ويكتسب منعة أشد قوة.

للوهلة الأولى تبدو فكرة بولز سديدة لا سبيل إلى إنكار منطقيتها وعقلانيتها على ما فيها من قسوة جعلته يعطي الأفضلية للخوف والرعب وليس للحب، ولكن هذه الفكرة تصطدم بأسئلة محرجة تجعلها أكثر نسبية، فإذا كان بوسع المرء المتفق معها الإتيان بالأمثلة المؤيدة والمتعلقة بالدواء والسدود.. الخ ، فليس بوسعه تفسير إنجازات أخرى لم يكن الدافع إليها الخوف. وفي هذا السياق يمكننا الكلام عن اختراع الكتابة مثلا فمن الصعب الاعتقاد أن الخوف هو السبب الرئيس خلف الوصول إليها.

غير أن بولز وفي مطرح آخر من كتاب شكري عنه، يتكلم عن موضوع قريب من هذا وهو عن علاقة الخوف بالمعرفة. فهو ينظر إلى الخوف هنا كموضوع سلبي أو كمعطى معيق ينبغي تجاوزه والانتصار عليه بواسطة المعرفة. ونضرب لذلك المثال التالي: كان بولز يعيش في طنجة خلال ما يسميه الإعلام "حرب الخليج الثانية" أي العدوان الشامل لتدمير العراق سنة ١٩٩١، وقد راقب بولز عن كثب تصرفات السكان المحليين المغاربة الذين تضامنوا مع العراقيين وتعاطفوا معهم ضد العدوان الغربي الذي رأوا فيه حربا دينية. يقول بولز (لقد أثارت الحرب حفيظتهم لأنهم مسلمون فهناك مسيحيون يقتلون مسلمين وبالطبع فإن مثل هذا الأمر لم يكن يعجبهم، لكنهم نسوا أن ملكهم قد أرسل جنودا من أجل قتل المسلمين، وفي النهاية نسي الجميع كلٍ هذا، وأنه لأمر طيب. إنني أكره الحرب، وأعتقد أن هناك قليلا جداً من أناس يحبونها، فالحرب

تعطيهم الشعور بالقوة والعظمة وفي العمق فهذا هو ما يبحثون عنه. نحن لا نخاف الذين نعرفهم ولا نشعر بالتهديد سوى من الأشخاص أو الأشياء التي نخاف منها. "المعرفة" فقط هي التي يمكنها الانتصار على الخوف..)

معذرة لهذا الاقتباس الطويل بعض الشيء لضرورته ولنحاول الآن تسجيل الخلاصات المهمة لهذا التحليل الخارج من ذهن فنان وأديب متمرد ولكنه عالي الحساسية الوجدانية وليس من عقل عالم متخصص أو سياسي محترف..

نلاحظ أن بولز نظر إلى الخوف ليس كباعث أو محفز إيجابي بل كطريق نحو الجهل المسبب للخراب الذي تقنع بقناع الحرب.. ووضع الكاتب يده على العلاج فكانت "المعرفة" هي الماء الدافق الذي يطفئ الحرائق التي يشعلها الجلادون وأهل الحرب. لقد فعل بولز كل ذلك بحركة انسيابية راقية ودون حذلقات فرسم خطا على رمال الوجود بين :

الخوف الإيجابي المثمر والمحفز أي كفعل عمودي صاعد.

والخوف السلبي المسبب للعمى السياسي والأخلاقي والمؤدي إلى الحروب أي كفعل عمودي نازل.

والحب كعامل تكاثر وتناسل أي كفعل أفقي مديد تبرق فيه الإنجازات الفنية والجمالية.

ثم جعل المعرفة بمثابة النقيض المقاتل ضد جيوش القتلة من دعاة الحروب والعنف.

٢٠٢ - يحتضر بالنحوي :

عن أبي العيناء، عن عطوي الشاعر انه دخل إلى رجل عندنا بالبصرة وهو يجود بنفسه "يحتضر" فقال له: يافلان قل لا إله إلا الله وإن شئت فقل لا إله إلا الله والولى أحب إلى سيبويه. وحين انتهى العطوي من قوله قال أبو العيناء للحاضرين:

سمعتم ابن الفاعلة يعرض أقوال النحويين على رجل يموت.

٢٠٣- المتحدي :

دخل رجل على أبي يعقوب وهو يجود بنفسه فأراد أن يذكره بالشهادة والخوف من الله فقال له: يا أبا يعقوب الدنيا حياة وموت فقل لا إله الله..

فأنشد أبو يعقوب :

أ مثلي يروعُ بالنائبات ويخشى حوادثَ صرفِ الزمن

أذلني الله ذلّ الحمار وأدخلني حَرَّ أمي إذن[١٦].

---

١٦ ــ حرُّ أمي - فَرْجَ أمي

٢٠٤- هنيئا مرئيا :

عن المروزي قال: اشترى أبو عبد الحميد سمكة وأعطاها لزوجته لتطهوها ونام إلى أن تستوي. فأكلت زوجته ونساء معها السمكة ثم مسحت شفتي وأصابع زوجها بزيت السمكة وحين أفاق الزوج ودعا بالغداء وقال هاتوا السمكة قالت الزوجة: يامخبل ألست قد أكلتها ونمت ولم تغسل يدك؟ فشم يده وقال:

آ.. صحيح ما رأيت أمرأ وألذ من هذه السمكة وقد جعت فهيئوا لي الغداء..

٥٧- إتلاف الإتلاف.

... والإتلاف هو الاسم القديم في العراق لعقوبة الإعدام فحين تأسست الدولة العراقية الحديثة في بداية العشرينات، بعد أن أغرق البريطانيون الثورة الشعبية في الجنوب والفرات وبعض جهات الشمال في حمامات من الدماء، وأسسوا دولة ملكية صنيعة لهم شاعت هذه الكلمة فكان قارئ الصحف يقرأ أن الشخص الفلاني حكم عليه بعقوبة الإتلاف! ومفردة "الإتلاف" العراقية أدق كثيرا وكثيرا جدا من مفردة "الإعدام" التي شاعت فيما بعد في اللغة الجزائية والقضائية المصرية ومنها انتقلت إلى العراق والشام.. الخ ، فانسحبت المفردة العراقية الصحيحة وسادت بديلتها الأقل دقة. لماذا نقول أن مفردة "الإتلاف" أكثر دقة من "الإعدام "؟ السبب بسيط، فعلميا يمكن القول أن الإعدام أي الإحالة من

الوجود إلى العدم هو فعل مستحيل عمليا ونظريا، وقد أشار إلى ذلك قدماء الحكماء والفلاسفة لأنه يشبه الإيجاد من العدم وهذا فعل خاص بالخالق الميتافيزيقي وليس بالبشر، ولكن "الإتلاف" أي إلحاق الضرر بالجسد الحي حتى درجة إزهاق الروح مع بقاء الجسد الإنساني للمعدوم هو الفعل الممكن والمقصود.

وكما خرجت كلمة "الإتلاف" من بلاد الرافدين ثم طمست، تخرج اليوم من هذا البلد أو للدقة من أبنائه الأحرار في خارجه، دعوات لإلغاء هذه العقوبة القاسية والتي لا تفسير ولا فائدة منها فالجرائم في الدول التي تأخذ وتطبق هذه العقوبة ليست أقل إن لم تكن أكثر من الدول التي فارقتها وألغتها نهائيا. إنما دعوات خجولة ولكنها متبصرة، واهنة لكنها نامية بإصرار. نقرأها في الصحف وعلى مواقع الإنترنيت بأقلام عراقيين ذاقوا مرارة القمع ومعاناة الغربة فرست بهم سفن الوجدان إلى هذا الميناء الحزين الجميل .

ومن الأمور التي يثيرها هذا الموضوع، موضوع إلغاء عقوبة الإعدام، والتي ينبغي التأكيد عليها والدفاع عن جوهرها ما يلي:

- إن الإغراء المتمثل بأن وجود هذه العقوبة يشكل رادعا مهما للمجرمين أو لمشاريع المجرمين خاطئ ومدحوض تماما وبالأرقام، فهذه العقوبة المطبقة بقسوة في الولايات المتحدة مثلا لم تخفض أبدا نسبة الجرائم الحادثة هناك إلى مستوى الجرائم الحادثة في فرنسا التي لا تطبق هذه العقوبة، وربما توصلنا بعد دراسة الإحصائيات إلى العكس. وإن نسبة الجرائم لم تقل وربما تصاعدت بحدة في العديد من الدول التي تأخذ بهذه العقوبة وتطبقها بذات القسوة المطبقة في الولايات المتحدة.

ـــ إن هذه الدعوة لا تتناقض مع التعاليم السماوية التي وإن كانت أقرت تلك العقوبة في فترة من تاريخ البشر لكنها فضلت عقوبة أخرى غير الإعدام عليها في نص الآية ١٧٨ من سورة البقرة (يا أيها الناس كتب عليكم القصاص في القتلى... فمن عفيَ له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) والمعنى واضح فبديل الإعدام لا يصل إلى السجن المؤبد بل هو الأداء أو الديَّة يدفعها القاتل لذوي القتيل فالقرآن هنا أكثر رحمة من "المتقرأنيين"! أما الآية الأربعون من سورة الشورى فواضحة أيضا وتقول ذات المعنى تقريبا (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله..)

ثمة خصوصية عراقية تجعلنا نتوقع تصاعد الأصوات والدعوات المنادية بإلغاء هذه العقوبة واستبدالها بعقوبة أخرى كالسجن المؤبد في العراق تحديدا لأنه البلد العربي والشرقي الذي سفكت فيه الدماء بغزارة وأزهقت في الأرواح على امتداد أكثر من سبعين عاما في حركة تفترس فيها الدولة المسلحة والمدعومة من الخارج المجتمع الذي جرده البريطانيون من السلاح خلال التجربة الملكية القصيرة. وقد أشار إلى هذه الحقيقة فيصل الأول في مذكراته وتشكى من أن لدى العراقيين من أبناء القبائل من السلاح ثلاثة أضعاف ما لدى الدولة. ومعلوم أن ذروة هذه العملية الافتراسية تصعد اليوم أمام أنظارنا من ركام الجثث البشرية والدمار والخراب الشامل بسبب قمع النظام الشمولي المتخلف والحصار الغربي والعربي الهمجي.

وأخيرا، فقد كان كاتب هذه السطور وعدد من أصدقائه من المثقفين العراقيين قد شرعوا في الثمانينات من القرن الماضي ومن الجزائر التي لجأوا

إليها للعمل في ميدان التعليم وهربا من قمع الحكم في بلادهم في تشكيل جمعية ثقافية اسمها "جمعية إتلاف الإتلاف". وكانت تقوم على المطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام من قانون العقوبات العراقي ونشطوا لفترة بهدف تجسيد هذه الفكرة، ثم جاءت حروب أخرى، وحلت مآس جديدة وتفرق الأصدقاء من الجزائر العزيزة أيدي سبأ، ولكن الفكرة الصحيحة لا يقتلها الزمن بل الكسل والاستقالة من الحياة. الفكرة الصحيحة كالنجم البعيد يتألق ويعلن حضوره حتى وإن لم يومئ إليه أحد.. فهل هناك من يريد أن يتألق بهذه الفكرة دفاعا عن الحياة؟

٢٠٥- بالتفصيل الممل :

عن أبي الفضل الهمذاني قال: جاءت امرأة إلى القاضي وذكرت أن زوجها طلقها فقال القاضي: لك بينه "عندك دليل"؟ فقالت: نعم جار لنا. وحضر الجار فسأله القاضي: أسمعت طلاق هذه المرأة؟ فقال الجار: يا سيدي أنا خرجت إلى السوق فاشتريت لحما وخبزا ودبسا وزعفرانا... فقاطعه القاضي: ما سألتك عن هذا ولكن هل سمعت طلاق هذه المرأة؟ فقال الرجل: ثم تركته في البيت وعدت فاشتريت حطبا وخلا.. فقال القاضي: دع عنك هذا وأجب على سؤالي. فقال الرجل: ما أحسن الحديث من أوله! ثم جلت في الدار يا سيدي القاضي فسمعت زعقاتهم وسمعت الطلاق بالثلاث فما أدري أهي طلقته أم هو طلقها؟

٢٠٦- صلاة الجمعة في الثلاثاء :

قال حمزة بن بيض لغلام له: في أي يوم صلينا الجمعة في الرصافة؟ ففكر الغلام ساعة ثم قال: يوم الثلاثاء يا سيدي!

٢٠٧- اسم على مسمى :

قال غندور سمعت أبي يقول: قال لي الخليفة المأمون ك اختر اسما أسمي به جاريتي هذه.. فقلت يا أمير المؤمنين سمّها "مسجد دمشق" فإنه أحسن شيء.

٢٠٨- شاهدة وفقيهة :

كان أحد قضاة الحنفية إذا ارتاب بالشهود فرقهم عن بعضهم وسألهم كل على حده. فشهدت عنده امرأتان فأراد أن يفرق بينهما على عادته فقالت له إحداهما: لقد أخطأت أيها القاضي لأن الله تعالى قال في كتابه الكريم (فتذكر إحداهما الأخرى..) فإذا فرقت بيننا زال المعنى الذي قصده الشرع فأمسك القاضي واعترف بصحة ما قالت.

٥٨- تحية للآنسة إيمان!

ممثلة مصرية شابة هي إيمان سليمان ــ كما روت صحف قاهرة المعز ــ أحبت فن التشخيص (التمثيل) فدرسته، ثم جاءت لتجرب حظها

عمليا أمام الكاميرا. وحين التقت مخرجاً تلفزيونياً أعجب بجمالها وموهبتها فقدمها إلى السيد المنتج ذي الكرش الأنيق والملايين الوفيرة ثم وافق هذا الأخير علي إسناد دور البطولة إلى الفنانة الشابة مقابل أن تقدم له رشوة (معينة) تتنازل له بموجبها عن عفتها بطريقة ابتزازية. طلبت الفتاة من (الوسيط)؟ الذي قام بدوره المخرج مهلة للتفكير، واتصلت بعد ذلك مباشرة بهيئة الرقابة الإدارية وأبلغت المسؤولين فيها بما حدث فطلبوا منها مجاراة المخرج والمنتج لضبطهما بالجرم المشهود وفعلا تمكنت الفتاة من تسجيل عدة أحاديث هاتفية معهما بعد أخذ موافقة النيابة العامة. وقد ألقي القبض على الرجلين وقدما إلى المحاكمة فحكم علي الأول بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة ثلاثة أعوام وعلي المخرج (الوسيط) بخمسة أعوام مع الأشغال الشاقة.

وفي تفسيرها لقسوة الحكم الصادر بحق المخرج، قالت المحكمة إن الأخير تعدى جريمة (التوسط) والتي يعرف القارئ لها اسما آخر غير التوسط، إلى المساعدة والاتفاق مع المنتج حتى تتم العملية، إضافة إلى طلبه من الفتاة أن تحضر له فتاة أخرى في مكتبه للغرض نفسه. هذه القصة القصيرة، والواقعية تماما، نشرتها الصحافة المصرية قبل بضعة أيام وهي تصلح لتكون مناسبة يمكن التوقف عندها للتأشير علي عدد من الأمور والملاحظات ذات العلاقة المباشرة بحياتنا اليومية المعاصرة والملوثة بالقاذورات من كل حدب وصوب، من ذلك مثلا أن قصصا من هذا النوع لم تعد حكرا علي مهنة معينة أو مدينة معينة أو بلاد معينة. وهي لم تكن جديدة في بابها، بل سبقتها المئات إن لم تكن الآلاف من القصص والحوادث التي نجحت في أغلبها الذئاب البشرية من ملحنين ومخرجين

ومدربي كرة قدم ورؤساء تحرير وأصحاب شركات (للتصدير والاستيراد) من الإفلات من العقوبة العادلة بعد أن ارتكبت جرائمها بحق الإنسان والمرأة بوجه خاص فأسلمت الضحية إلى العذاب النفسي طويل الأمد أو إلى الانتقال إلى أقدم مهنة في التاريخ، مهنة بيع الجسد، ثم لتختم مسيرة حياتها بالاعتزال والحجاب.

إن هذه الآنسة الشجاعة، التي دافعت عن جسدها وعفافها في وجه وحوش تسللت إلى ميدان الفن بقوة ملايينها وعلاقاتها المريبة، فاغتالت من اغتالت، وردمت من ردمت، هذه الآنسة (إيمان) تستأهل التحية ولكنها أيضا تستأهل الشكر. لماذا؟ لأنها أولا قرعت جرس الإنذار من داخل مؤسسة الفن صانعة الفرح والمرح والارتقاء بالذوق الإنساني، تلك المؤسسة التي يبدو أنها تحولت في أيامنا هذه، أيام (الكليب) والفرق الخاصة إلى ما يشبه الماخور العلني والمشروع. لقد تحقق كل ذلك تحت بصر الدولة التابعة وفاقدة السيادة الحقيقية والبعيدة عن المثقف الحقيقي والفنان المبدع بفعل شبكات الدعارة السرية الواسعة النفوذ والتي يقودها أحيانا فنانون (لامعون) وفنانات (شبه كاسيات). لقد أعلنت هذه المؤسسة الذئبية بأحدوثتها الرائجة اليوم أن سمكة الفن العربية السائدة (خابجة) من رأسها. ولأن انتفاضة الفتاة (إيمان) كشفت لنا ثانيا نحن الجمهور الساذج العريض عن رأس جبل الجليد فقط وتركتنا نتساءل: تري كم من (إيمان) مسكينة أخري سبقتها إلى مكتب السيد المنتج ليوسخ عفتها وإنسانيتها ووجدت نفسها مجبرة علي الصمت والانسحاق؟ وكم واحدة من النجمات الشهيرات، ممن لا علاقة لهن بالفن، عبرت إلى الشهرة من خلال مكتب السيد المنتج؟ سيدي القاضي،

نشكرك من أعماق القلب علي الرغم من أن العقوبة التي أصدرتها لم تكن قاسية قسوة الجريمة المرتكبة بحق الجمال والأنوثة! وكم نتمنى سيدي القاضي أن نعرف رأيك القضائي في الحدوتة التالية: في زمن مات فيه الشيخ إمام عيسى مطرب الفقراء والفدائيين من الجوع والأمراض المزمنة نشرت الصحافة أن مطربا لبنانيا أنفق قبل شهرين خمسين ألف دولار علي حفل زواج قطته.. نعم.. قطته.. (بزونته.. قطوسته.. هز كات).. أيها القاضي (هز كات) **His cat** !

٢٠٩- فرخ البط :

كان لأحد الأدباء ابن أحمق. وكان مع ذلك كثير الكلام ، فقال له أبوه ذات يوم: يا بني لو اختصرت كلامك إذا كنت لست تأتي بالصواب. فقال الابن : نعم يا أبي. فأتاه يوما فسأله أبوه: من أين أتيت؟ فقال: من سوقال. قال الأب: قدم اللف واللام فقال الابن: من الألف واللام سوق.

٢١٠- جباعة :

وقال ذلك الابن لأبيه يوما: ياأبت اشتر لي جباعة ألبسها. فقال الأب وما الجباعة؟ فقال الابن: ألست قلت لي اختصر في الكلام. جباعة تعني جبة ودراعة!

٢١١- طلبات ابن الخليفة:

كتب أحد أبناء الخلفاء إلى أحد أصحابه: أستوهب الله المكاره فيك برحمته. وأنا وحق جدي رسول الله الذي لا إله إلا هو أحبك أشد من جدي المتوكل، وقد بلغني إنه قد جاءك من النبيذ شيء كثير كثير شطرا، وأنا أحبه شديد شديد شطرا آخر، فبحياتي عليك ألا بعثت لي دستجة أو خمس دبات أو ستة أو سبعة أو أكثر جياد بالغة وإلا فثلاث خماسيات ولا تردني فأحرد، موفقا إن شاء الله.

٥٩ - مربد الموتى ومربد الأحياء!

يبدو أنني سأحتفل سنويا، وعلى طريقتي الخاصة، بمناسبة مهرجان المربد (للشعر الحكومي/ بكسر الشين أو فتحها لا فرق) في العراق. هذا ما فعلته في السنة الماضية في هذا الركن بالذات وهذا ما سأفعله اليوم مستمدا أخباري من شاعر عربي نحترمه شاعرا وكاتبا وصحفيا هو شوقي بغدادي والذي نرجو أن يتسع صدره لعتبنا القادم من قيعان الخذلان، ممزوجا بعويل الكارثة المحدقة، والتي لا يسلم من تحمل مسئولية حدوثها من نصبوا خيمة للزعيق الشعري مع احترامنا لشعراء العراق الحقيقيين والذين لاذوا بالعتمة حفاظا على ذهب الضمير وكرامة الشعر في خراب اسمه العراق فيما اقتسمت المقابر ومنها مقبرة الغرباء في دمشق الشام

وشوارع المنافي شعراء العراق وكتابه وفنانيه وعلماءه بعد أن جردت بعضهم الحكومة ذات المرابد من كل شيء بدءا من الوطن وحق الدفن فيه وحق حيازة وثيقة باسمه تسمى "الجنسية" ثم جمعت تلك الحكومة المصفقين لها ولشعارها من كل حدب وصوب وراحت تردح بشعارات تحرير الكرة الأرضية من الهيمنة الأمريكية في الوقت الذي يعجز رموزها الكبار عن الخروج من العاصمة وزيارة محافظة عراقية مجاورة لها.

كنا سنسكت و "نمسحها بلحانا" كما يقول أشقاؤنا الشوام، إكراما لشعر ابيضّ أو لمكانة إبداعية ترسخت لو أن الأستاذ بغدادي ذهب إلى خيمة الشعر الحكومي في المربد وعاد مكتفيا بتذوق ثمار مغامرته الشخصية تلك، والتي لن يعدم لقيامه بها سببا أو سلة أسباب أجزم بأنها نظيفة وحميمية لما عرفناه عن بحر الحب الذي يحتويه أغلب الشعراء العرب للعراق وأهله، ولكنه للأسف ما أن عاد من سفره حتى راح يزايد على الإعلام الحكومي في العراق ويقرع شعراء المغرب ومصر الذين قاطعوا المربد هذا العالم! ترى، أليس من حق زملائه العراقيين تحديدا، والذي قالوا ما لم يقله مالك في الخمرة بحق هذا المربد، وبذلوا جهودا مضنية لتوضيح طبيعته لزملائهم من شعرا مصر والمغرب وطالبوهم باسم الزمالة وكرامة الشعر والشعراء أن يتضامنوا معهم عبر مقاطعة ذلك المهرجان الذي أقيم على توابيت تجاربهم وبقصد دفنهم وهم أحياء؟ أليس من حقهم أن يقولوا للزميل بغدادي لقد تجاوزت على حقنا ورأينا ووقفت ضدنا صراحة هذه المرة؟ لقد بادر بغدادي إلى المشاركة في حفلة هذا السنة شخصيا، ولم يمنعه سنه من الانضمام إلى قافلة من شعراء سوريا بلغ عددها سبعين كاتبا وشاعرا لبوا دعوة إدارة المهرجان فترك

خلفه قبور شعراء ومفكري العراق في مقبرة الغرباء وذهب هو إلى هناك، فهل يمكننا أن نسمي هذا الفعل تضامنا وزمالة؟

صحيح أن من لم يطل عن قرب على تفاصيل الجرح العراقي ومعاناة العراقيين كشعب ذاق الويل على يد الدولة القمعية طوال أكثر من ثلاثين عاما سيعتقد بأنهم مبالغون، متطرفون، مندفعون. وصحيح أيضا أن بعض العراقيين أو لنقل غالبية كبيرة منهم خارج العراق يخطئون أيضا فيعتبرون كل من لم يبد تضامنا أو تعاطفا معهم بمثابة العدو لا بل أنهم يطلبون من "العرب" أحيانا أكثر مما يطلبون من العراقيين، ولكن من الصحيح أيضا أن مَن تضامن مع جراحاتهم في ما مضى من الزمان أو ما هو راهن منه قلة قليلة. وكما أن على العراقيين أن لا يخلطوا بين من يرتزق باسم الشعر وعلى جثث العراقيين وبين صاحب وجهة نظر يريد أن يفهم واقع الحال، فإن على غير العراقيين من العرب وغير العرب أن لا يخلطوا بين من يرتزق من العراقيين باسم الجراح فيصطف مع شارون ودولته، ويجعل من راية "السوريالية" التي يمتح منها شهرته مجرد خرقة لمسح طاولات الجناح الإسرائيلي في معارض الكتب والتظاهرات الثقافية العالمية وهم نفر معروف التوجهات والأسماء لا يتعدون أصابع اليد وبين الكيان الإبداعي العراقي الشاسع ورموزه الفاعلة والمقاومة للاستبداد الداخلي وللعدوان الخارجي.

وأخيرا، هل يمكنني أن أروج لحلم يعدل الصورة ويبث في حنايا العتاب شعاعا أخضر يرى الشاعر بغدادي نفسه فيه وهو يرافقنا من دمشق الشام إلى بغداد المجد ونحن نصطحب معنا عظام شعرائنا ومفكرينا إلى مربد آخر، مربد للأحياء هذه المرة، في عراق حي؟

٢١٢- العراقيات والخمر :

حكى الأصمعي أن عجوزا من الأعراب جلست في الطريق إلى مكة إلى فتيان عراقيين يشربون النبيذ فسقوها قدحا فطابت نفسا وتبسمت فسقوها آخر فاحمر وجهها وضحكت فسقوها ثالثا فقالت: خبروني عن نسائكم بالعراق أيشربن الخمر؟ قالوا لها: نعم يشربن. فقالت العجوز: والله إن صدقتم فكلكم أولاد زنا!

٢١٣- تمليح الموتى :

ذهب رجل فقير إلى جاره وكان غنيا وقال له: أنا جارك وقد مات أخي فَمُرْ لي بكفن له. فقال الجار: لا والله ما عندي اليوم شيء ولكن تعال بعد أيام فسيكون لك ما تحب. فقال الرجل: أصلحك الله يا جار.. فمر لنا بشيء من الملح فنملح الميت إلى أن يتيسر عندكم شيء!

٢١٤- وعظ وإرشاد :

كان أبو سالم القصاص يقص يوما فأراد أن يعظ الناس يوما فقال: يابن آدم يابن الزانية أما تستحي من الخالق الجليل حتى تقدم على العمل القبيح.

٢١٥- بيت الله :

وعن أبي سالم أيضا انه جاء ذات يوم إلى باب المسجد وقلعه فقالوا له: ماذا فعلت؟ فقال: قلعت هذا الباب لأن صاحبه يعلم من قلع باب داري.

٢١٦-التزوير الفني :

حدثنا أبو الحسن بن عباس لقاضي قال: رأيت صديقا على أحد زوارق الجسر ببغداد في يوم ريح شديد وهو يكتب رقعة فقلت له: ويحك وهل هذا موضع الكتابة فقال: تعمدت الكتابة هنا لأني أريد أن أزور على رجل مرتعش اليدين عسى يأتي خطي مرتعشا كخطه بسبب الموج والريح.

٦٠-رفيق شرف.. وداعا!

لم أعد أتذكر كيف سقط عليَّ وأنا في زاوية قصية عند بوابة الصحراء الأفريقية الكبرى في سنة ١٩٨٠ كتاب رفيق شرف الذي يتألف اسمه من الكلمات ذاتها (كتاب رفيق شرف ١٩٧٨-١٩٧٩) ربما جاءتني به سحابة نادرة من سحب الرجالِ الزرق "توارك" أو انبجس من كثيب رمل ناعس يحلم بقطرة سلسبيل. ومع أن قصتي مع هذا الكتاب لا تهم أحدا سواي ولكنني شعرت بأنني مقصود ومستهدف بالرحيل

المباغت لصاحبه قبل أيام قليلة. قلت مباغت مع أنه رحيل طبيعي جدا في شتاء العمر غير الطبيعي جدا.

لم أقرأ شيئا آخر لرفيق سوى كتابه ذاك، وكان مزينا بعدد من تخطيطاته اللافتة والذي ما زالت نسختي منه بحالة ممتازة وكأنني اشتريته لتوي وليس قبل أكثر عشرين عاما الأمر الذي لا يفسره شيء البتة فقد كان بمثابة "كتاب الوسادة" بنسبة لي طوال سنوات وحدتي الصحراوية أو إقامتي المستمرة عند أقدام جبال الألب المهيبة.

لقد سبق الشاعر الفرنسي الأشهر "آرثر رامبو" الراحل رفيق شرف بمأثرة الكتاب الواحد، وإذا كان الفتى الفرنسي قد أمسك بالشعر الفرنسي والعالمي من أذنه وجره خلفه إلى جحيم الجمال فخرج الجمال شعرا وغاب الشاعر كما يغيب ضوء القمر في قطرة دم بريء فإن كتاب فتانا ابن الحداد البعلبكي قد ترك بصمة لا تمحى على سمت القبح الوالغ في العادية والسأم وفقدان المعنى الذي جاءت به الحرب الأهلية اللبنانية. كتاب واحد للشاعر الفرنسي فعل كل تلك الثورة وما زال يفعل، وربما ساعد في حدوثها وبذلك العمق والزخم وامتداد أن آرثر ولد في "شارلفيل" الفرنسية وليس في بعلبك اللبنانية والأسماء لا تشير إلى المسميات بحيادية، شيء من هذا القبيل كتبته سنية صالح سنة ١٩٧٣ عن مأساة محمد الماغوط الذي ولد في "غرفة مسدلة الستائر اسمها الشرق الأوسط" وكانت سنية دقيقة الوصف دقة أتراح الماغوط.

في كتابه ذاك رأيت إلى رفيق شرف بعيون كثيرة، وكانت أكثرها رسوخا وصفاء هي العين المازجة للجنون بالحزن بالتمرد المرادف لانبجاس حَب الشباب وغلواء البدن والروح. والتمرد هنا لا يعني تلك

الحركة الاستعراضية البلهاء والتي يثقلها من الافتعال ما هو أكثر قتامة من الواقع المتمَرَّد عليه بل يعني التواصل الضدي والمخلص مع نسغ الحياة والاصطلام بتفاصيلها ومحاولة إعادة تشكيل تلك التفاصيل وإلقاء القبض على ما هو جوهري، فاتن، مقلق، معمِّق، محيل إلى الأمام والخلف وجميع الاتجاهات.

ما استوقفني وشدني في كتابات شرف هو ذلك الكوكتيل المعقد من السخرية السوداء واللاجدوى والتمرد والمضمور بسكونية خاصة تحاول استجداء البقاء على قيد الحياة لا لشيء إلا للضحك منها وعليها.

وحين استعيد قراءاتي السابقة لما كتبه شرف في إحدى الصحف البيروتية الكبرى خلال أشد سنوات الحرب الأهلية ضراوة ووحشية، متذكرا كيف كنت أحاول مواصلة القراء بعينين مغرورقتين بالدمع الناتج عن هستيريا الضحك، حتى إذا ما انتهت القراءة تضاءلت الدنيا والمصائر في العينين والروح وأشعر بقلبي وقد عاد إلى النبض بعد أن نسيته زمانا طويلا. لم يضحكني من نفسي ومن الوجود كتاب كما فعل رفيق شرف وكما سيفعل بعد عدة سنوات الكولومبي غاريثيا ماركيز خصوصا في "خريف البطريك" و"ليس للكولونيل من يراسله" وأيضا وبشكل أشد في سلسلة مقالاته التي نشرت في كتاب صغير ترجم إلى العربية قبل بضعة أعوام بعنوان "كيف تكتب رواية". الفارق نوعي وواضح بين الضحك الفكاهي الخفيف الظل عند ماركيز وبين الآخر القاتم المتشائم المرير عند شرف.

لقد كانت تجربة الكتابة وربما الرسم لدى رفيق شرف محاولة جديدة لتأسيس أخلاقية تشاؤمية عميقة وغير عدوانية تتحصن بالسخرية واللعب مع الجنون لتقدم بصمتها الفريدة على سمحت القبح قبح الحرب الأهلية.

أقول وداعا لمبدع عربي مهم وأنا أكرر عناوين بعض كتاباته هامسا بها لشخص يشبهني ومنها :

ــ دجاجة هذا الزمن مستطيلة إذن.

ــ -كوكو تقول أن محمود لم يكن هناك تلك اللحظة.

ــ صالح ويوسف إلى الجحيم واجمل التحيات من أخيكما.

ــ وجه عجيب ذو نقطتين صغيرتين.

ــ استفقت كثيبا على صياح الديك أفكر أن أقوم وأن لا أقوم.

ــ وصاروا يشيرون إلي: هو ذا زوج سعيد وفاهم في الثقافة.

وداعا.. أيها المبدع..

٢١٧- نبي على العمود :

قال خلف بن خليفة: ادعى رجل النبوة في زمن خالد القسري وعارض القرآن فأُتِيَ به فقال خالد: ما تقول؟ فقال الرجل: عارضت في القرآن ما يقوله الله تعالى (إنّا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إنّ شانئك هو الأبتر..) فقلت أنا ما هو أحسن من ذلك قلت (إنا اعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر ولا تطع كل ساحر وكافر..) فأمر به

القسري فضرب عنقه وصلب على عمود من الخشب فمر به الشاعر خلف بن خليفة فخاطبه وهو مصلوب قائلا:

إنا أعطيناك العمود.. فصل لربك على العود.. وأنا ضامن لك أن لا تعود!

٢١٨- دعاء الإعرابي :

عن الأصمعي أنه قال: حج إعرابي فدخل مكة قبل الناس وتعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم اغفر لي قبل أن يدهمك الناس!

٢١٩- عصيدة الفردوس :

قيل لسيفويه: لو اشتهى أهل الجنة عصيدة فماذا يفعلون؟ فقال: يرسل الله تعالى لهم أنهار دبس ودقيق وأرز ويقال لهم اعملوا وكلوا واعذرونا..

٢٢٠- يماني أم مضري :

خرج ابن أحمد المدني أذربيجان أيام الصراع بين العرب اليمانية والمضرية فيها فلقيه ركب من الفرسان وسألوه: يا فتى من أنت؟ فخاف أن يكونوا يمانية وهو يقول أنه مضري فيقتلوه أو يماني وهم مضرية فيقتلوه أيضا فحسم أمره وأجاب: أنا ابن زنا عافاكم الله!

٢٢١- بخيل في الكساء :

قيل لأحد غلمان محمد بن يحيى: ما يكسوك محمد بن يحيى؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إبرا وجاء يعقوب ومعه جميع الأنبياء شفعاء ضمناء ليستعيروا منه إبرة ليخيطوا بها قميص يوسف الذي قد من دبر ما أعارهم إياها، فكيف يكسوني؟

٦١- يجب وأخواتها!

تقرأ أحيانا نصا أدبيا من نصوص هذه الأيام وتتوقع منه أن يريح أعصابك وينقلك من مزاج أثقلته السياسة وعاثت فيه الشعارات والصراخ الأدلوجي فسادا وعنفا ولكنك تحصد العكس فتجد نفسك وقد وقعت في قبضة من هو أكثر جدية من ستالين وأعلى ضجيجا من هتلر وأكثر خبثا من شارون. تقرأ بعض النصوص الفنية أو الأدبية فيمطرك الأديب أو الفنان أو حتى الباحث المتخصص في أنواع الزهور أو المجوهرات بعبارات فولاذية المادة، مسننة النهايات، عامرة بكلمات آمرة وأخرى ناهية وثالثة موبخة ورابعة تنذرك بشر مستطير عذاب شديد وبئس المصير ما لم تفعل كذا وتقل كيت وكيت. وتنتهي من القراءة وأنت في حالة عصبية متوترة وقد أخذت منك "يجب وأخواتها" كل مأخذ وتركتك تعاني من دوار ارتفاع ضغط الدم وارتفاع نسبة السكر في قهوتك.

أقلت يجب وأخواتها؟ نعم.. وعلى الرغم من أن كتب النحو والإعراب والصرف لم تحدثنا عن هذا الموضوع ولكنك لابد مطلع عليه

في قراءاتك في الصحافة والكتب حيث يكثر الكتاب في نصوصهم من استعمال: يجب وينبغي ويلزم ولا بد ولا مناص ولا محيص ولا مندوحة ولا مهرب إضافة إلى أدوات الجزم المعنوي والإطلاق ودون أدنى شك ودون ريب. وقد يقول قائل أن هذه الكلمات وجدت لتكتب لا لتوضع على رف الذاكرة أو في جوارير اللسان وهذا حق ولكننا نتحدث عن الإفراط والتطرف في استعمالها حتى ليبدو النص أحيانا وكأنه محضر عسكري أو تقرير من وكالة تجسسية إلى عملائها.

ربما يعكس هذا المأخذ الحالة التاريخية التي تعيشها مجتمعاتنا المخنوقة بأنظمة سياسية "ثقيلة الوطأة" وعقلية استبدادية لا تعرف من أنماط التفكير والكلام إلا الأمر والنهي ونشر واستيلاد الممنوعات والمحرمات حتى يتضاءل الإنسان ويتحول إلى ذات منفعلة ومسكينة تستقبل تلك الأوامر والنواهي وتقضي عمرها في التطبيق والعبودية المعنوية، ومعروف علميا أن مساوئ كهذه تنتقل بمرور الزمن وتوالي الكوارث والمصائب السياسية إلى العقل الجمعي والذاكرة العامة ومنها عقل وذاكرة كاتب النص.

ويقودنا هذا التفسير ـــ إن صح ـــ إلى (إلقاء القبض) على الجزء الاستبدادي الكامن في عقل ونفسية الكاتب والذي تسلل إليه كما تتسلل صفات الجلاد الصغيرة إلى وجدان الضحية. وكمثال على ذلك يمكننا أن نعثر على منظومة متكاملة من الأخلاقيات والمسلكيات التي تسم السلطات الاستبدادية في نصوص أغلب إن لم يكن عامة الكتاب المعاصرين. فالسلطة المستبدة تبرر، وتتهم، وتؤول كلام خصومها، وتلف وتدور وتكذب على شعبها، وتدعي ما ليس فيها، وتكتم وتخفي

ما فيها، والكاتب المعاصر والمنسجم مع السلطة يفعل ذلك كله وفوقه حبة هيل / هال. السلطة المستبدة تأمر وتنهى وتمطر على الناس يجب وينبغي ويلزم ولا بد، والكاتب يتحول إلى ظل لها يكرر تقنيات خطابها ويعيد إنتاج القلم الاستبدادي مرات بعد مرات .

قبل أيام قليلة فتحت مجلة ملونة من تلك المجلات التي تلاحق التافهين من الزعاقين والزعاقات الذين يسموهم تجاوزا "المطربين والمطربات" ورحت أقرأ لقاء صحافي مع واحدة منهن عرفت بصوتها الحاد والذي يخيل إليك أنه قادم من كعبها وليس من حنجرتها مع أنها صاحبة وجه مليح وقوام رشيق ولكن ما علاقة القوام والملاحة بالغناء والطرب يا مولانا؟ وإجابة على سؤال وجه لهذه الزعاقة يقول: هل تهتمين بكلمات أغنياتك وكيف تفضلينها وتختارينها؟ قالت: يجب أن تكون الكلمات حارة وملهلبة إذا كانت الأغنية وطنية، أما إذا كانت غزلية وعاطفية فيجب أن تكون الكلمات زي القشطة بالعسل!! وعلى العموم (تضيف هذه الفلتة النقدية في علم الجمال) فأنا نادراً ما أتدخل في شغل الشاعر ولكنني أحيانا أتفق مع الملحن على إيقاع ما أو نغمة أو لازمة موسيقية تأتي بالصدفة ثم يذهب الملحن إلى أحد الشعراء ويعطي له القالب الذي يجب أن يعمل عليه الكلام!!

ولئلا يذهب الظن بالقارئ أن الأمر يتعلق بشغل من قبيل صنع حذاء أو سلخ بقرة أو بناء حائط نكرر أنه يدور عن الشعر والأنغام، أي عن الأدب والفن معا و(حته وحدة!) فماذا تبقى للأدباء والفنانين، هل "يجب" عليهم أن ينتحروا، أم "ينبغي" أن يبحثوا عن كوكب آخر لاوجود فيه للزعاقين والزعاقات ؟

٢٢٢- من الوزن الثقيل :

أتى رجل أبا محمد النوباري وقال له: غني وضعت رأسي في حجر امرأتي فقالت: ما أثقل رأسك! فقلت لها: أنتِ طالق إن كان رأسي أثقل من رأسك. فما رأيك يا أبا محمد، هل زوجتي طالق؟ فقال النوباري: إنها طالق لأن القصابين أجمعوا على أن رأس الثور أثقل من رأس البقرة!

٢٢٣- حاسوب بغدادي:

شوهد مؤذن في بغداد وهو يؤذن من رقعة في يده فقيل له: أما تحفظ الأذان؟ فقال: سلوا القاضي! فذهبوا إلى القاضي وقالوا حين دخلوا عليه: السلام عليكم. فأخرج القاضي دفترا من جارور أمامه وتصفحه ثم قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!

٢٢٤- لقى نحوي رجلا من أهل الأدب واراد ان يسأله عن أخيه فخاف أن يخطئ في النحو فقال له: أخوك، أخاك، أخيك، في الدار؟

فأجابه الأديب : لا ، لو ، لأي..

٢٢٥- العلامة :

قال أصحاب محمد بن الجهم له: إنما نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت تستحسن فيه انصرافنا. فقال لهم: علامة ذلك أن تسمعوني أقول يا غلام هات الطعام!

٢٢٦- بخور البخيل :

دخل رجل على ابن الأشرف وبين يديه فراريج مشوية فغطى الطبق بمنديله ثم أدخل رأسه في شق ثوبه وقال للداخل: انتظرني في الحجرة الأخرى حتى أفرغ من بخوري.

٢٢٧- لقمتان بركعتين :

قال رجل لأحد البخلاء: لم لا تدعوني إلى طعامك؟ فقال البخيل: لأنك جيد المضغ سريع البلع، إذا أكلت لقمة هيأت أخرى. فقال الرجل / وهل تريدني إذا أكلت عندك لقمتين صليت بعدهما ركعتين؟

٦٢- السفر والقراءة.

يدلل بعض الناس غالبا على صحة ما يقولونه من أخبار، أو ما يعتقدون به من أفكار بالقول: لقد قرأت ذلك الخبر في الجريدة الفلانية!

أو بقول قريب من هذا هو: وللعلم فهذه الفكرة موجودة في كتاب اسمه كذا لمؤلفه فلان!

ربما تكون هناك أسباب عميقة تتعلق بمكانة النص المكتوب شبه المقدسة في المجتمعات الشرقية عموما والعربية على جهة الحصر. وعلى

هذا يمكننا تفسير وفهم الضراوة والشراسة التي يجابه بها ذوو العقليات النقدية من الكتاب القراء والذين يترعون دوما إلى منهجية الشك والتفكيك بدرجاتهما البسيطة فالأكثر عمقا بحثا عن الحقيقة أو عن وجه آخر من أوجهها المتباينة.

القراءة أشبه بالسفر الطويل، وكما أن هناك مسافرون يقضون سفرهم في النوم حتى يصلون إلى بغيتهم فيخرجون من شرط المسافرين إلى حالة المنتقلين، فثمة قراء يقرأون بعيونهم لا بعقولهم فيظلون عند حدود القشرة السطحية للنص والتي لا تحوي نفعا كثيرا في معظم الأحيان. وعلى ذكر السفر، فليس كل انتقال من بلد إلى آخر أو من مدينة إلى أخرى يسمى ويعتبر سفرا. السفر هو الاكتشاف والمعرفة والمتعة والتعرف على الآخر وتذوق ثقافته وأمزجته وعاداته وغذائه وشرابه، وعلى هذا فالسفر من باريس إلى مصيف سياحي في فيتنام والإقامة فيه لشهر كامل لا يمكن اعتباره سفرا بل مجرد انتقال من بلد إلى آخر والعيش في أجواء أوروبية معدة خصيصا للسياح القادمين من أوروبا إلى جنوب شرقي آسيا، أما السفر على الراحلة أو بالسفينة من بغداد إلى البصرة فقد كان يعتبر قبل ألف عام سفرا وأي سفر! وتجربة خصبة فقد تثمر عن كتاب أو ديوان شعر.. و ها قد عدنا إلى عالم الكتب والقراءة!

يلح علي سؤال مقلق كلما قاربت موضوع القراءة وهو: هل تراجعت مكانة الكتاب والقراءة التي كانت فنا قائما بذاته أم تراها تقدمت قياسا إلى ما كانت عليه قبل بضعة عقود؟ جميع المؤشرات تقول أنها تقدمت بل ومرت بما يشبه ثورة حقيقية لا من حيث عدد القراء

والمنتج من الكتب بل ومن حيث النوعية والكثافة ولكنني لست مقتنعا في العمق بهذه المؤشرات. ولدي من معطيات ما يجعلني أفكر بالعكس من ذلك ففي وسط عربي يعد بعشرات الملايين من القراء لا تنتج الدول العربية جميعا نصف ما تنتجه دولة عالمثالثية واحدة هي المكسيك! وإن رواية جديدة صدرت قبل شهرين لكاتبة عربية مرموقة لم توزع منها أكثر من ألفي نسخة علما بأن الدار التي أصدرتها لها علاقات بأكثر أسواق الكتاب في العالم العربي. أكثر من هذا وذاك، فإن المكتبات العربية في العالم العربي أو في خارجه في طريقها إلى الانقراض بل هي تعيش اليوم على مبيعاتها من أشرطة التسجيل وأفلام الفيديو والمجلات البراقة عديمة القيمة وليس على مبيعاتها من الكتب والمجلات العلمية والقيمة.

وكما أن القراءة فن تلزمه دربة وحذق وأخلاق فإن السفر فن هو الآخر يلزمه ما يلزم القراءة أما إذا جمع الإنسان بين الاثنين فقد أدخل نفسه جامعة حضارية لن يتخرج منها بورقة مختومة ورأس مشوش بل بفكر ثاقب وعقل نقدي وروح شفافة حساسة تعرف ماذا تعني كلمة الحياة.

وأخيرا، فالقراءة كما السفر يتطلب عينين مفتوحتين وعقل يدور كفنار السفن الدوار على شاطئ البحر، وحياد مسبق وانشداد صادق إلى الحقيقة والمتعة والفرح. فهل يمكننا التفريق على أساس ما تقدم بين القراءة والتصفح وبين السفر والانتقال؟ وهل يمكننا أن نتفاءل بمصير أفضل للقراءة والسفر في هذا المناخ العابق برائحة الحروب العدوانية والقمع الاستبدادي الداخلي في عالمنا العربي.

٢٢٨- شاعر مبتدئ :

كان لمحمد بن الحسن ابن فقال الابن له ذات يوم: يا أبت إني قد قلت شعرا. فقال محمد: انشدنيه. فقال الابن: فإن أجدت قول الشعر فهل ستهبني جارية أو غلاما؟ فقال محمد سأهبك جارية وغلاما معا. فأنشد الابن :

إن الديار طيفا　　　هيجن حزنا قد غفا
أبكينني لشقاوتي　　　وجعلن رأسي كالقفا

فقال محمد : يا بني والله ما تستأهل جارية ولا غلاما، ولكن أمك طالق ثلاثا إن ولدت لي ولدا مثلك!

٢٢٩- أخس موضع :

قال رجل لأبي عبد الله الجماز: أنا وجع من دمل فيَّ. فسأله أبو عبد الله: أين؟ فقال الرجل: في أخس موضع من جسدي. فنظر الجماز إليه طويلا وقال: كذبت إني لا أرى شيئا في وجهك.

٢٣٠- وعن أبي عبد الله الجماز أيضا انه أصبح ذات يوم ومزاجه سيئ والطقس مطير فالسماء ملبدة داكنة فسألته زوجته: أي شيء يطيب فعله في صباح كهذا؟ فقال لها: الطلاق بالثلاث!

٢٣١- حب الوطن للفأر:

خاصمت امرأة زوجها البخيل فقالت له: والله لا يقيم الفأر في دار إلا بسبب حب الوطن وإلا فهو يسترزق من بيوت الجيران.

٢٣٢- أسباب الحزم :

قال بخيل لغلامه: يا غلام هات الطعام وأغلق الباب. فقال الغلام: يا مولاي هذا خطأ إنما الصحيح أن نقول أغلق الباب أولا ثم هات الطعام. فقال الرجل: اذهب فأنت حر لعلمك بأسباب الحزم والتدبير.

٦٣- هل للسجال أصول؟

(...) وجذر كلمة السجال في اللغة "سجل"، ومن معانيه الحرب، ويروي ابن منظور في "لسان العرب" حديث أبي سفيان حين سأله هرقل ملك الروم عن الحرب بين قريش والنبي العربي الكريم فقال: الحرب بيننا سجال وإنا نُدال عليه مرة ويُدال علينا أخرى.

وقد استقرت الكلمة في عصرنا الحاضر على معنى المحاججة والمناقشة الفكرية فقيل ساجل فلان فلانا، وهذه مساجلة ثرية بين المفكرين وتلك مهزلة سقيمة بين ثرثارين.

والمساجلة تعني ضمن ما تعني التوضيح، والدفاع عن وجهة نظر ما ضد أخرى يراد دحضها وتفنيدها. وتتنوع المساجلة أو السجال من حيث العمق والكثافة والوضوح، ولها فنون وأساليب بعضها قد لا يرضي عامة الناس، غير أن السجال في جميع الأحوال دليل على الحيوية الفكرية والبحث عن الحقيقة أو وجه آخر ومن أوجهها المتباينة.

ومن الأساليب غير اللائقة التي يلجأ إليها المساجلون أحيانا حرف موضوع السجال وتفريغ ما يقوله الطرف المقابل من المضمون ومحاولة الإيحاء بأنه يسيء عن قصد إليهم وأنه سيئ الخلق وشتام لا يشق له غبار، ولكي يدللوا على صدق دعواهم مثلا تراهم يلجأون إلى التأويل والتحريف فيقولون مثلا لقد قال الطرف المقابل عنا (إننا جماعة ينعتون أنفسهم بالباحثين والعلماء والأساتذة الجامعيين لأنه يحتقر كفاءاتنا ولأنه محروم منها) لو دقق القارئ جيدا في العبارة لما وجد فيها أية إساءة لهم، فهم فعلا نعتوا أنفسهم بتلك النعوت، ولم يقل المساجل مثلا (أنهم يزعمون أنهم كذا..) أو (إنهم يتباهون بأنهم كيت..). وحين تبحث عن فكرة خلاقة في بعض الردود السجالية فلا تجد، وتبحث عن رد لاتهام رئيسي أو فرعي فلا تجد، فلو اتهم طرف في سجال طرفا آخر مثلا بأنه من المؤيدين للحرب ضد وطنه وشعبه والداعين لتدمير هذا الوطن أو ذاك لتحقيق بعض الطموحات السياسية فلن تجد ردا على هذا الاتهام أو تحليلا أو دفاعا عنه بل يلجأ الطرف المقابل إلى تكتيك تحريف الموضوع وتغيير الميل الرئيسي باتجاه لا علاقة له بموضوع الحرب والسلام. وهناك أسلوب آخر هو التقويل، وقد قالت العرب قديما: فلان وضع في فم فلان كلاما، أي قوله ما لم يقل، ومثال ذلك أنك لو

وصف شخصا بأنه كان عراباً أو راعياً لمشروع سياسي معين وهو فعلا كان كذلك لقيل بأنك تشتمه بأقذع الأقوال وتسيء إليه مع أن الأمر لا يتعلق بالسباب بل بتسجيل واقعة حقيقية.

هذه الأساليب وغيرها رائجة جدا هذه الأيام في الصحافة وعلى صفحات الإنترنيت ولكنها تكون أقل نسبيا في السجالات التلفزية المباشرة وخصوصا إذا وجدنا مديرا نزيها للحوار ومذيعا قديرا في البرنامج السجالي وللأسف فبعض المذيعين أصبحوا يتفننون في الإثارة والتحريض النفسي والاستعداء لتحقيق أعلى مستوى من الصراخ والعويل والضربات تحت الحزام وكأنهم من أصحاب ديكة المصارعة.

نلخص فنتساءل: هل للسجال الفكري والسياسي أصول ما أو قواعد عامة؟ لا يمكن القطع وتقديم جواب محدد بل يمكن القول أن المساجل يقدم في مساهماته نوع الفكر الذي يعتنقه، فإن كان لديه بضاعة فكرية جيدة قدمها للقراء والطرف المقابل، وإن كان فقير البضاعة أو معدومها سكت عن موضوع السجال سكوتا مطبقا فلا هو دافع عن فكره أو مشروعه السياسي المؤيد للحرب "مثلا"، ولا هو نفى تهمة أو اعتذر عنها ولا هو فند أو دحض شيئا بل تراه يجتر دون ملل أنه (لن يهبط إلى مستوى الخصم غير الكفء ولن يرد على لغته المتهالكة وأخلاقه التي لا تليق بالجنسية الفلانية) ويعرف كل من يجيد القراءة والكتابة أن هذا السطر فقط يحتوي أربعة شتائم من العيار الثقيل فيا للتناقض!

ومع ذلك، سيظل السجال الفكري والسياسي في أيامنا هذه أفضل طريق لدحض الخرافات السياسية، والميول المعادية للسلام والديموقراطية

والتعددية والاختلاف بمعنى انه سيظل بمثابة الكاشف الباهر عن العَفَن الذي يتراكم بين ثنايا وطيات الحركات السياسية في كل زمان ومكان، ولكنه يسجل أيضا كشهادة لا ترد على أن انفراد الشر ورجاله بالميدان لم يعد ممكنا وسهلا فثمة من يبادر إلى الرد والتوضيح والدحض والتساؤل فالحرب بين الحق والسلام من جهة والباطل والحروب العدوانية سجال وستظل كهذا على امتداد التاريخ..

٢٣٣- مخطوبة لأسد :

طلب ثمامة العوفي امرأة للزواج فسألت عن حرفته فكتب إليها شعرا قال فيه :

وسائلةٌ عن حرفتي قلتُ حرفتي مقارعةَ الأبطالِ في كلِّ بارقِ
وضربي طلى الأبطالِ بالسيفِ معلما إذا زحفَ الجمعانِ تحتَ الخوافقِ

فلما قرأت المخطوبة شعره قالت لرسوله: قل له فديتك أنت أسد فاخطب لك لبوة أما أنا فظبية وأحتاج غزالا!

٢٣٤- بخيل :

شاهد رجل جاره يستغفر الله ذات صباح ويدعو الله أن يدخله الجنة وكان الجار قبيح الوجه بشع السحنة فقال له الرجل: ليس من حقك أن تبخل على جهنم بهذا الوجه يا جار!

٢٣٥- نبي صيرفي :

ادعى رجل من أهل الكوفة النبوة فأدخل على واليها فسأله الوالي: ما صنعتك يا هذا؟ فقال المتنبي: أنا حائك. فقال الوالي: حائك وتدعي النبوة؟! فقال الرجل: وهل تريد نبيا صيرفيا؟

٦٤- مشاريع هدايا جديدة!

تحدثت قبل أسبوعين في هذا الركن الهادئ، عن موضوع القراءة والسفر، ومرقت سريعا على مشكلة الكتاب كسلعة بدأت تبور، وعلى الأزمة الشاملة التي يعيشها الكتاب والكاتب والمكتبة العربية. ولما كان الكاتب في محيط القراء كما السمكة في محيط الماء فإن أية شحة ونقص في "الماء" يؤدي إلى جنوح السمكة ومن ثم خروجها من الحياة.

والكتاب ليس وسيلة وثمرة الثقافة الوحيدة التي تعاني من الانزواء والبوار بل ثمة عزوف شامل ومتزايد عن قراءة الصحف والمجلات الأدبية والعلمية وشراء الموسوعات اللغوية والعلمية والتراثية المسجلة على الأقراص الإلكترونية "السي دي روم" مع أن أسعارها في بلدان المنشأ زهيدة جدا قياسا إلى الدخل الفردي للمقيمين في أوروبا ولكن الأسعار تنط إلى فوق الفوق متى ما بلغ الكتاب أجواء باريس ولندن. لا حاجة بنا إلى العودة إلى شرح أسباب العزوف الشحة وانزواء الكتاب ومشتقاته فهي كثيرة ومتداخلة فيها أصابع للسياسة وأخرى للاقتصاد وثالثة للدين ورابعة للمزاج الشخصي .. الخ! ولكن لم لا نحاول طرح بعض

الاقتراحات العملية على القراء بهدف إنقاذ السمكة المعرفية أي الكتاب والمجلة؟

أسجل بداية أن جذر هذه الفكرة ليست لي تماما، بل إنني أحاول تطويرها وتوسيع مداها فهي في حقيقة الأمر تعود لصديقة كانت مسافرة إلى بيروت قبل عدة أشهر، ثم تذكرت أن عيد ميلاد خطيبها سيكون بعد غد، فما كان منها إلا أن قررت أن تشتري له هدية جديدة وبيروتية في تلك المناسبة. وبعد عدة أيام وصلت على عنوان الخطيب مجموعة رائعة من الكتب حديثة الصدور، واشتراك سنوي في مجلتين أدبيتين معروفتين وعريقتين! في وقت كان السيد الخطيب يهدر وقته الثمن في محلات بيع المجوهرات وأدوات الزينة والتجميل بحثا عن هدية "معقولة" لخطيبته التي ستفاجئه حتما وتلقنه درسا "حبيبا" في موضوع الذكورة والأنوثة!

يمكن لنا أن نجمل ميزات هدية كهذه في العديد من النقاط ولعل من أهمها إنها ستظل حية طوال عام كامل هو فترة الاشتراك في المجلة المعنية، وهي تظل جديدة طالما ظلت أعداد المجلة تحمل جديدا كل شهر، ويمكن أن نحسب على ميزان الإيجابيات إنقاذ هذه المجلة أو تلك من الإفلاس أو الخضوع لمؤسسات وأنظمة لا تفهم من الثقافة والأدب والفن أكثر من فهمها لصفات خيول السباق وأنواع المجوهرات وأسماء وأنواع السيارات الحديثة... الخ، دع عنك أن اتساع رقعة القراء يمثل بحد ذاته توسيعا لرقعة الضوء الحضاري في مناخات الخرافة والعتمة والتخلف. سأختتم وقفتي هذه بمجموعة من الاقتراحات التي تهدف لترويج الكتاب وتطوير فعل القراءة مذكرا بما قاله باحث أردني وأستاذ جامعي في الفلسفة نسيت اسمه للأسف من أن الإنسان المعاصر نوعان إنسان يقرأ وآخر لا يقرأ..فمن هو

المتحضر والذي يعيش في القرن الحادي والعشرين منهما؟ اقترح إذن على القارئ والكاتب:

إذا أهديت كتابا أعجبك لصديق من بلد ما فأرسل نسخة إضافية واترك صديقك المهدى إليه يهديها بدوره لمن يحب.

إذا كنت كاتبا وأهديت نسخة من كتابك الجديد لشخص آخر و لم يكلف هذا الشخص نفسه عناء توجيه كلمة شكر لك فاحذف اسمه من قائمة المهدى إليهم في المرة القادمة وقدم نسخته لأي شخص يصادفك في الطريق.

لتكن هداياك لأطفالك وأطفال معارفك بمناسبة عيد الميلاد أو غيره مما له علاقة بالثقافة والكتابة كالكتب والمجلات وأدوات الكتابة.

لتكن هداياك للبالغين من معارفك من ذات النوع المذكور في الاقتراح السابق.

أكتب ملاحظاتك ورأيك بأي كتاب تقرأه وحاول إيصال تلك الملاحظات إلى الكاتب عينه فهذا مما يشعره بذاته المبدعة ويشجعه على التجديد وتلافي الأخطاء والهفوات إضافة إلى ما تقدمه فعلتك هذه من حميمية إنسانية عالية للكاتب.

أحرص على زيارة معارض الكتب واستفد من الحسومات والتخفيضات التي يعلن عنها على أسعار الكتب المعروضة وشجع معارفك على زيارتها أيضا.

أحرص على أن يرافقك كتاب خفيف في سفرك وتنقلاتك عبر وسائل النقل العامة فحضور الكتاب في هذه الأماكن خير وسيلة لترويج القراءة والكتاب.. والحضارة.

٢٣٦- مناصفة :

عن المرزبان قال : أخبرني بعض أصحابنا قال : قال رجل لرجل في يوم بارد ، أصب عليك جرة ماء وأعطيك درهما ! فتلكأ ، فقال له الآخر " صاحب الاقتراح " افعل ذلك عليَّ والدرهم بيني وبينك مناصفة !

٢٣٧- واستاه.. واستاه :

ماتت قرينة لأبي منصور بن الفرج وكان رئيسا لجماعته فاجتمع الناس على اختلاف طبقاتهم لقضاء حقه. وخرجت الجنازة وجعل النساء يلطمن ويقلن: واستاه، واستاه. على ما جرت العادة، فأنكر زوج المرأة هذا وقال: كفى، ما هذا الكلام؟ لا ست إلا الله تعالى!

٢٣٨- تكذيب عملي :

مر مسكين بجماعة من البخلاء فقال لهم: السلام على البخلاء. فقال له: كذبت فلسنا ببخلاء فقال لهم: كذبوني بكسيرة خبز إذن!

٢٣٩- فرخ البط :

قال أحدهم: دخلت الكوفة فرأيت صبياً واقفاً عند شق حائط ومعه خبز وهو يكسر منه اللقمة ويدسها في شق الحائط ثم يأكلها فجاء أبوه وسأله: أيش تصنع؟ فقال: يا أبتِ، رأيت هؤلاء الناس طبخوا سكباجة (لحم بالخل والتوابل) ويأتي النسيم بريحها فأغمس فيه خبزي وآكله. فلطمه أبوه وقال: تتعود من صغرك أن لا تأكل خبزا إلا بإدام!

٦٥- أرض السواد

لم يثر اسم بلد ما أثاره اسم العراق من خلاف وتعدد وتنوع في وجهات النظر قديما وحديثا. فلنلق نظرة على آراء الأقدمين المتنوعة لنعلم من "لسان العرب" وغيره من موسوعات اللغة والمعاجم أن العراق – بكسر العين – هو شاطئ الماء، وقد سمي العراق بذلك لأنه شاطئ دجلة. وقيل أيضا: سمي عراق لقربه من البحر، وأهل الحجاز يسمون ما كان قريبا من البحر عراقا. وهذه وجهة نظر ضعيفة؛ إلا إذا أخذنا بكلمة البحر كتسمية للنهر كما يقول المصريون اليوم في لهجتهم المحكية، وثانيا فهي تفترض أن التسمية قادمة من الحجاز ولا يوجد مسوغ معقول لذلك. وقيل سمي العراق لأنه استكف أرض العرب أي أنه كفها وصار منتهاها، وقيل سمي العراق لتواشج عروق الشجر والنخل. وقيل سمي به تعريبا عن تسمية فارسية هي "إيران شهر" والتي تعني كثير النخل فعُرِبَ فقيل عراق. قال شاعر يدعى أبو زبيد :

ما ينعي باحة العراقِ من الناسِ

بجردٍ تغدو كمثلِ الأسود.

أما ابن بري فيقول بأن اسم العراق جاء من فناء الدار وهو قول غامض، وقال آخر هو من عراق المزادة، والمزادة هي الجلدة التي تجعل على ملتقى الجلد إذا خرز في سفلها لأن العراق بين الريف والبر، وهذا رأي لا يقل غموضا وضعفا عن سابقه، ونحن نورده على سبيل الاطلاع، أما الرأي الجدير بالانتباه والذي شكل لي مفاجأة كبرى فهو ذلك الذي أورده ابن منظور ويقول فيه حرفيا (العراق معرب وأصله إيراق فعربته العرب فقالوا عراق) هذا الرأي يتاخم رأي علماء فقه اللغة والصوتيات المعاصرين والذين يعتقدون بأن اسم العراق جاء من اسم مدينة عراقية قديمة هي أوروك السومرية الجنوبية التي مرت بأطوار من تبديل وتحريف ونحت فانقلبت الهمزة عينا واستحالت الواو ألفا وهكذا تحولت إلى أوروك، إيراك، إيراق، عورق، عوراق واستقرت أخيرا عراق. أقول إذن، ثمة لهذا التفسير الحديث مسوغ قوي نجده فيما رواه ابن منظور.

ومن الكلمات القريبة من العراق بكسر العين "عِراق" وهو بقيا نبتة الحمض، ويقال إبل عراقية أي ترعى بقايا الحمض. والعُراق ـــ بضم العين ـــ هو المطر الغزير وهو العظم من غير لحم، وأعرق القوم إذا ما توجهوا أو دخلوا أرض العراق ومعنى كلمة "العراقان" الكوفة والبصرة.

ومن الأسماء الأخرى للعراق أرض السواد ويحلله علماء فقه اللغة بتحليل تواشج عروق الشجر والنخل القديم ذاته لقرب اللون الأخضر والقاتم منه خصوصا من الأسود. ويميل العراقيون المعاصرون من أدباء ونخبة مثقفة إلى الجمع بين أحزان أهل العراق العريقة والمتأتية من الظلم

والقهر وبين هذا الاسم الحزين. ومن أروع الأعمال الأدبية الروائية تحديدا تلك الرواية الفذة التي أصدرها الروائي العربي عبد الرحمن منيف قبل بضعة أعوام وتحمل الاسم ذاته "أرض السواد" وعبد الرحمن حجازيُّ الأبِ عراقيُّ الأم ويتقن اللهجة البغدادية الجميلة والتي يصفها بأنها (لهجة مليئة بالكثافة والظلال) إتقاناً عجيباً وأكثر من كاتب هذه السطور العراقي الجنوبي بل إنني توقفت مطولا عند عبارات عديدة من هذه اللهجة التي كتب منيف الحوار بها لأنني لم أفهم معناها على الرغم من أني أكملت دراستي الجامعية في بغداد ذاتها ولكن لهجتي لم تتبغد بشكل جيد كما يبدو.

واختتم بأسوأ تفسير لاسم العراق أورده كاتب عراقي معاصر أعد قبل بضعة أعوام كتابا جميلا ربما كان الأول من نوعه ويضم مئات الصور الفوتوغرافية القديمة والحديثة عن العراق، فقال معد الكتاب "الإلبوم" ما معناه أن اسم العراق معرب من كلمتين فارسيتين تعنيان (البلاد البعيدة) وقد وصفت هذا التفسير بأسوأ التفاسير ليس لأنه يشير إلى مطامع عنصرية فارسية معروفة في العراق وحسب بل لأنه يحيل مرجعية الاسم إلى الجار الإيراني الذي أطلق اسما على بلاد يخيل للقارئ أنها دون اسم فوصفها بأنها (البلاد البعيدة) والسؤال الذي يجعل من هذا التفسير بائسا وعديم القيمة هو لماذا أطلق الفرس القدماء هذا الاسم على العراق الذي يجاورهم وأقرب إلى بلادهم من حبل الوريد ولم يطلقوه على الصين البعيدة مثلا؟

سؤال أخير لمعشر الحربية أي المؤيدين للحرب ضد العراق: ترى هل سينطبق الاسم "أرض السواد" على المسمى "العراق" بعد أن تقع الحرب؟ أم أنه سينطبق أيضا على الوجوه فتقول الأجيال القادمة: وجوه السواد أيدت الحرب على أرض السواد!

٢٤٠- ضعف الإسناد :

اجتمع محدث "راوية أحاديث" ونصراني في سفينة، فصب النصراني من ركوة[١٧] كانت معه قليلا من الخمر في مشربه وشربه ثم صب وعرض على المحدث فتناولها الأخير من غير فكر ولا مبالاة فقال النصراني: جعلت فداك هذا خمر فقال المحدث: من أين علمت انها خمر. قال النصراني: اشتراها غلامي من خمار يهودي وحلف إنها خمر عتيق فشربها المحدث بالعجلة وقال للنصراني: أنت أحمق، نحن المحدثين نروي عن الصحابة والتابعين فهل نصدق نصرانيا عن غلامه عن يهودي؟ والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد!

٢٤١- معادلة كيمياوية :

قال رجل لإياس بن معاوية القاضي: لو أكلت تمرا هل تجلدني؟ قال لا. قال ولو شربت ماء هل تجلدني؟ قال لا. قال الرجل: نبيذ التمر أخلاط من التمر والماء فكيف يكون حراما وتجلدني بسببه؟ فقال إياس:

---

١٧ ــ الركوة = وعاء من الجلد لحفظ السوائل.

لو رميتك بالتراب فهل يوجعك؟ قال لا. قال ولو صببت عليك قدرا من الماء أينكسر منك عضو؟ قال لا. قال لو صنعت من التراب والماء طوبا فجف في الشمس فضربت به رأسك فكيف يكون الأمر؟ قال الرجل: ينكسر رأسي. فقال إياس: فهذا مثل ذاك!

٢٤٢- اقتصاد السوق :

سرق رجل قميصا وبعثه مع ابنه ليبيعه في السوق وفي الطريق سرق القميص من الابن فلما رجع إلى البيت سأله أبوه: بعت القميص؟ قال نعم فسأله: بكم بعته؟ قال الابن: بعته برأس ماله فقط!

٢٤٣ــ بشرى غير سارة: بشرت امرأة زوجها بأن أسنان ابنهما الصغير قد بدأت بالظهور فقال :

أتبشرينني بظهور عدو خبزي؟ اذهبي إلى اهلك.

٢٤٤- يحرق القلب :

دخل أحدهم على صاحبه وكان بخيلا وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل وكان البخيل قد رفع الخبز وتأخر في رفع العسل فظن أن صاحبه لا يأكل العسل دون خبز فقال له: هل تأكل عسلا دون خبز؟ قال: نعم. وأخذ يلعق العسل بشراهة فقال البخيل: مهلا يا صاحبي فالعسل دون خبز يحرق القلب. فقال الرجل: نعم ولكنه قلبك لا قلبي.

٢٤٥- سين وصاد :

مر مبارك التركي المعروف بأبي أيوب المكي وهو واقف بباب الجسر فقال: يا أبا أيوب، كيف ترى هذا الفرص ؟ فقال: أصيلا. ثم مروا بمنارة السعودي فقال له أبو أيوب: من أين أقبلت يا منارة؟ فقال السعودي: من القسر، أ لك حاجة يا أبا أيوب؟ فقال: نعم الحق بمبارك التركي فتعطيه السين وتأخذ منه الصاد!

٦٦-زوجها خطف أطفالها!

خلال شهر آذار/ مارس الجاري بثت إحدى الإذاعات العربية العاملة في العاصمة الفرنسية، باريس، برنامجا حواريا على الهواء بمناسبة عيد المرأة. وقد مضى البرنامج هادئا وعاديا بين تمنيات من هنا، وحذلقات من هناك، حتى حانت تلك اللحظة التي اتصلت فيها سيدة تونسية وروت قصتها الحزينة للمستمعين فتحول البرنامج إلى مناحة مؤلمة ومناسبة تضامنية ندر مثيلها شارك فيها العديد من السيدات العربيات والسادة العرب. وهاك – عزيزي القارئ – زبدة الموضوع:

فهمنا من خلال العبرات والنشيج والنواح أن هذه السيدة أحبت شابا من الجزائر وبعد الزواج مباشرة استقرت العائلة الصغيرة في فرنسا بين ظهراني عدة ملايين من المهاجرين المغاربيين، وقد رزقت تلك العائلة

بثلاثة أطفال. وكأية عائلة لا يخلو يومها من المشاكل والخيبات المتوقعة بعد الزواج عانت هذه العائلة من الكثير إضافة إلى شظف العيش الذي تعاني منه أسر المهاجرين والمغتربين الباحثين عن لقمة العيش الشريفة في البلدان "الإستعمارية". وعوضا عن حل تلك المشاكل بين الزوجين الشابين بالحسنى وروح القرابة والجيرة التي رسختها التقاليد العربية والإسلامية المشتركة والتي تجعل من شعوب المغرب العربي وخصوصا في الجزائر وتونس والمغرب شعب واحد في عدة دول، عوضا عن الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان، بادر الأب "الشجاع" إلى حل المشكلة على طريقته الخاصة فخطف الأطفال الثلاثة وسافر معهم إلى بلده بعد أن حضر -كما يبدو - للأمر بسرية وكتمان ودون علم الأم المسكينة التي أصبحت فجأة وحيدة مجروحة ودون أطفال أو زوج في بلاد الغربة.

وحين حاولت الأم الاتصال بزوجها وخاطف أطفالها لإبلاغه أنها لا تريد سوى رؤية الأطفال في الزمان والمكان الذي يحدده هو، أرسل لها الزوج تهديدا صريحا بالقتل إن هي حاولت اللحاق به أو تقديم شكوى ضده.

لقد كان اتصال هذه السيدة مؤثرا وصادما جدا ومع أن المذيع الذي كان يشرف على البرنامج وهو الأستاذ شربل سلامة إعلامي كفء من الناحية المهنية ومحبوب جماهيريا ولبق غاية اللباقة ولكنه تأثر بدوره لهول مأساة هذه الإنسانية تأثرا واضحا.

لقد توالت المداخلات الهاتفية وكلها تعلن عن تعاطفها مع هذه السيدة وتستنكر فعلة الزوج التي لا تتسق مع تقاليد وأعراف الشعب الجزائري وتسيء إلى سمعته وشخصيته المعنوية بذات القدر الذي أساءت

إليه جرائم الإرهاب السياسي السلفي، باستثناء تدخل واحد من إحدى السيدات من المغرب إذ لامت هذه المتدخلة المتحذلقة الأم المسكينة لوما عنيفا لأنها طرحت مأساتها الشخصية على الرأي العام طالبة منها أن تفكر بالأمهات الفلسطينيات والعراقيات اللاتي يعانين المصائب والكوارث أكثر منها! ولحسن الحظ تدخلت سيدة عراقية بعدها فأعلنت عن تضامنها مع الأم المفجوعة ورفضت هذه التبريرات التي تتستر على جرائم الأقربين بحجة أن العدو الخارجي يقوم بما هو أشنع منها. والواضح أن هذه السيدة العراقية قد فهمت دروس المأساة العراقية فهما عميقا حيث يُلحِقُ ابن البيت أحيانا بأهله من الأذى والضرر والدمار أضعاف ما يلحقه بهم العدو الخارجي!

وكان أكثر التدخلات أهمية وشهامة هو ذاك الذي قام به محام عربي يقيم في باريس حيث أكد انه على معرفة بقوانين الأحوال المدنية في فرنسا ودول المغرب العربي وان ما فعله الزوج أمر مرفوض ولا يقره قانون أو عرف وأنه يعرض خدماته على السيدة ويتعهد لها بأنه سيبذل كل جهد ممكن من أجل أن تتمكن من رؤية أولادها الثلاثة وأنه سيبقى على اتصال بالإذاعة لكي يحصل على التفاصيل الدقيقة من السيدة الأم صاحبة المشكلة.

كانت مناحة ذات طابع شخصي فعلا وفي مناسبة عامة هي عيد الأم ولكنها كشفت لمن استمع إليها عن رأس جبل الجليد، جليد الفضائح والتخلف والنكوص الحضاري الغاطس في مجتمعاتنا العربية المعاصرة. واتضحت تلك المجتمعات على حقيقتها ككيانات منخورة داخليا بكل الآفات الاجتماعية الممكن تصورها وغير الممكن والتي تتألق قشرتها

الخارجية فقط بالتقى والورع وروح المحافظة فيما هي تعج بالأدران من كل صنف ولون.

لقد كشفت تلك المأساة الشخصية والعائلية عن حالة بائسة هي صورة مصغرة لواقعنا العربي العام، فالمجتمع العربي ينتحر ببطء على مشنقة الانفجار السكاني المتصاعد، وتناقص الموارد الاقتصادية، والخنوع للحكم المطلق، والتصفيق للغزاة الأجانب أو التفرج عليهم بهدوء. فهل كان ما سمعناه من تلك الإذاعة برنامجا إذاعيا عن عيد الأم أو يوم المرأة أم إنه موجز للقيامة العربية التي بدأت فعلا حيث لم يبقَ للإنسان العربي من حل آخر غير الوقوف في طوابير طالبي تأشيرات "النجاة" من السفارات الأجنبية؟

٢٤٦- دعاء شريف مكة :

عن المرزبان ، قال : دعا رجل من الأشراف بمكة فقال : اللهم إن كنت ما تعرفني فأنا فلان بن فلان ، وأني مررت بعبدك فلان وهو يقول شيئا فيه فحش ، فرفسته فانبطح يفحص برجليه ميتا ، اللهم قد أقررتُ لك الآن فاغفر لي كما تريد !

٢٤٧- سرقوه بالمصحف :

سرق أحد اللصوص خرجا لرجل فقيل للرجل: لو أنك كتبت عليه آية من القرآن ما سرقوه. فقال: لقد كان فيه المصحف كاملا!

٢٤٨- كما تحب :

مر أبو العيناء بباب عبد الله بن منصور وهو مريض وقد شفي من مرضه فسأل أبو العيناء غلام عبد الله عن صحته فقال الغلام: كما تحب. فقال أبو العيناء: إذا كان كما أحب فمالي لا أسمع العويل والنواح عليه؟

٢٤٩- رزقكم في السماء :

سمع أحد الحمقى قارئا يقرأ قوله تعالى (وفي السماء رزقكم وما توعدون) فقال له : ومن أين لنا بسلم لننال رزقنا ذاك؟

٢٥٠- إلى النار يا مولانا :

دخل أبو شهاب الصعلوكي على الفقيه القاضي أبي الحسن في يوم بادر والنار تتوقد بين يديه فأراد إكرامه فقال: أيها القاضي الفقيه إلى النار! فرد عليه أبو الحسن: أنت أولى بها صليا!

٢٥١- الفقه والحجامة :

دخل رجل أحمق على الفقيه الشعبي فقال له: غني أجد في قفاي حكة فهل ترى لي أن أحتجم؟ فقال الشعبي: الحمد الله الذي نقلني من الفقه إلى الحجامة!

٢٥٢ – صديق ثقيل :

مرض الشعبي فعاده أحدهم وكان ثقيلا فأطال الجلوس ثم سأله: ما أشد ما مر عليك في مرضك؟ فقال الشعبي:

قعودك عندي.

٢٥٣– المجوسي :

أسلم مجوسي في شهر رمضان فصام فثقل عليه الصيام فنزل إلى سرداب في داره وجلس يأكل فسمع ابنه حسه فقال: من هناك. فقال الأب: هذا أبوك الشقي يأكل خبزه ويفزع من الناس.

٢٥٤– مديح خاص جدا :

قدم الشاعر علي بن الجهم وكان بدويا جافيا على المتوكل فأنشده مادحا :

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب
أنت كالدلو لا عدمنا دلوا من كبار الدلا كثير الذّنوب

والذنوب هو الماء. فعلم المتوكل رقة قصده وخشونة لفظه فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة والجسر منها قريب فأقام ستة أشهر في بغداد يخالط الناس والأدباء ويشاهد الجواري الحسان وبعد ستة أشهر

استدعاه الخليفة فحضر وأنشد البيت الأكثر رقة في الشعر العربي والذي يقول :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

فقال المتوكل : لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة.

٢٥٥- يده سبقته :

جاء رجل إلى فقيه فقال: أفطرت يوما في رمضان. فقال له: صم يوما مكانه. قال: صمت وأتيت أهلي وقد طبخوا مأمونية فسبقتني يدي إليها وأكلت منها فأفطرت. فقال الفقيه: فصم يوما آخر. قال: فعلت وأتيت أهلي فوجدهم قد عملوا هريسة فسبقتني يدي وأكلت منها فقال الفقيه: أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك.

٢٥٦- الجروح قصاص :

جاءت جارية إلى أبي ضمضم وقالت له: هذا الشاب قبلني عنوة. فقال أبو ضمضم للشاب: يا فتى أذعن لها بحقها، هيا قبليه عافاك الله كما قبلك فإن الله يقول (والجروح قصاص).

٢٥٧- تقدم رجلان إلى أبي العطوف قاضي حران فقال أحدهما: أصلح الله القاضي هذا الرجل ذبح ديكي فخذ لي منه حقي.

فقال القاضي: اذهبا إلى صاحب الشرطة فهو من ينظر في قضايا الدماء!

٢٥٨- الشاطر :

تزوج رجل بامرأة فولدت له ولدا بعد خمسة أشهر فقط فقالت لزوجها: سمه. فقال: أسميه شاطر. فسألته لماذا؟ قال: لأنه قطع مسافة تسعة أشهر في خمسة.

٢٥٩- قارورة زنبق :

استودع رجل عند إمام مسجد محلته قارورة زنبق فجحدها عليه وأنكر أنه أعطاه إياها وقام الإمام يصلي ذات يوم وقرأ (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون؟) فهتف به الرجل: قارورة زنبق.

٢٦٠- قال المتوكل لأبي العيناء: إن إبراهيم بن نوح النصراني غاضب منك فلماذا؟ فقرأ أبو العيناء: (ولن ترضى عليك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم..)

٢٦١- بستان أم دابة :

جاء رجل إلى أبي ضمضم يستدعي على رجل في دابة اشتراها منه، وظهر بها عيب، فقال أبو ضمضم: وما عيبها؟ فقال الرجل: في ذنبها ورم

مثل الرمانة وفي ظهرها مثل التفاحة وفي عجيزتها مثل الجوزة وفي بطنها مثل الموزة وفي حلقها مثل الأترجة. فقال له أبو ضمضم: مرَّ عنا يا بارد، هذا بستان وليس دابة!

٦٧-مذاق الخراب !

إن خطاب وزير الخارجية الفرنسي والشاعر "دوفيبان" في مجلس الأمن الداعي إلى إشراك بلاده في عملية إعادة تعمير العراق قبل أن يتم تهديمه وخطاب رئيسه "شيراك" صباح يوم العدوان هما- لشديد الأسف - دليلان لا يدحضان على أن فرنسا الدولة الاستعمارية التي خبرناها في الجزائر وسوريا هي من ذات الطينة السياسية والأخلاقية التي صنعت منها جارتها بريطانيا وحليفتها الولايات المتحدة، وإنها في موقفها السياسي المعادي شكليا لشن الحرب لا تستهدف البتة، وبالدليل المتقدم، الدفاع عن الشعب العراقي بل تستهدف أولا وقبل كل شيء حماية مصالحها بوسائل خسيسة وتريد للنظام الاستبدادي أن يستمر في الوجود ولو أدى ذلك إلى انقراض الشعب العراقي عن بكرة أبيه! حقا، لقد كان وزير الخارجية البريطاني الخبيث جاك سترو مؤدبا لمرة واحدة في حياته حين قال ما قال بحق الحكم الفرنسي ونفاقه مع إنه لا يقل نفاقا عنهم!

أما المطالبة الفرنسية بضمان حصتها من أرباح عملية إعادة التعمير حتى قبل أن يبدأ تهديم وتدمير العراق على أيدي الأمريكان فقد ذكرتني بواقعة جرت خلال حرب "عاصفة الصحراء" إذ زار وزير بريطاني أمير الكويت في منفاه السعودي خلال الحرب وقدم له قائمة بالمشاريع التي تنوي بريطانيا الإشراف على إعادة تعميرها في الكويت وكان ضمن

القائمة اسم محطة الكهرباء المركزية في الكويت فتعجب الأمير وقال: ولكن هذه المحطة سليمة يا سيدي الوزير ولم تدمر! فرد عليه الوزير البريطاني: هذا صحيح حتى الآن، ولكنها ستدمر بعد قليل!

من الأشياء التي حدثت خلال اليوم الأول من العدوان وتستحق التسجيل في هذه اليوميات الحزينة ما يلي :

بثت قناة أم بي سي قبل ساعات من الضربة الصاروخية على بغداد فيلما سينمائيا مصريا بعنوان غريب وعجيب هو "القتل اللذيذ"! هل يتعلق الأمر بمصادفة بريئة؟ ماذا إذن بخصوص براءة الصواريخ إذن ؟

من المواقع المدنية التي استهدفتها الضربة الصاروخية الأمريكية محلة شعبية في منطقة "الدورة" ببغداد وكان كاتب هذه السطور قد قال في نص شعري كتبه قبل شهر تقريبا بعنوان "فلنكتب قصيدة عن هذا الكرسي " وورد فيها ما نصه :

تعالوا لنكتبَ قصيدةً
عن هذا الكرسيِّ الحزين
هذا الكرسيِّ البغداديِّ الحزين
حيثُ كانت تجلسُ أمي
وتحدقُ بصمت
في الطائراتِ الأمريكيةِ الأنيقة

وهي تنهشُ مصفى الدورة
والأحياءَ المحيطةَ به
كما تحيطُ الحمى بقلبِ صبيٍّ محصوب.

فهل هذه مصادفة بريئة أخرى بخصوص محلة "الدورة "؟ وماذا عن "براءة" القاتل الذي أمر بقصفها إذن؟

وأخيرا اختم بهذه المقاطع المنتقاة من قصيدة شهيرة للشاعر اليوناني ومواطن الاسكندرية المصرية قسطنطين كفافي كان قد ترجمها الشاعر العراقي سعدي يوسف سنة ١٩٧٩ لما لها من علاقة وشيجة إلى درجة مذهلة بالراهن المعاش :

مقاطع من "بانتظار البرابرة"

قسطنطين كفافي

ما الذي ننتظره مزدحمين؟
البرابرة سيصلون اليوم.
و لَم مجلس الشيوخ معطل؟
الشيوخ لا يشترعون القوانين
فلمَ هم جالسون هناك إذن؟
لأن البرابرة يصلون اليوم.

لم يستيقظ إمبراطورنا، مبكرا هكذا؟

و لم يجلس الآن معتليا عرشه، معتمرا تاجه
عند البوابة الكبرى للمدنية؟
لأن البرابرة يصلون اليوم.
والإمبراطور ينتظر استقبال قائدهم.
لَم هذا الضيق المفاجئ، والاضطراب؟
لَم غدت عابسة وجوه القوم؟
لَم تخلو الشوارع والساحات، سريعا؟
والكل يعود إلى داره، غارقا في الفكر؟
لأن الليل قد هبط، و لم يأت البرابرة.
ولأن أناسا قدموا من الحدود
وقالوا أن ليس ثمة برابرة.

والآن... ماذا نفعل بدون برابرة؟
لقد كان هؤلاء نوعا من الحل.

٦٨- شهادات من أرض الدم .

من الكثير من مشاهد وشهادات الموت والدمار على أرض الرافدين توقفت عند النماذج القليلة التالية للعبرة والاعتبار ومحاولة فهم ما يجري لمن لم يفهم بعد :

- رأيت ضابطا بريطانيا في جيش الغزاة على إحدى الفضائيات العربية اسمه العقيد جون فايرز.. لم يقل سوى بضع كلمات أنصف فيها

المقاتل العراقي رغم ظروف الحصار الشامل لمدة ثلاثة عشر عاما ورغم القمع والاستبداد الدموي لنظام الحكم، قال العقيد فايرز مبتسما (نحن لم نقلل من شأن المقاتلين العراقيين، فقد قاتلوا بشجاعة خيبت آمالنا في إحراز النصر سريعا..) هذا مقاتل حقيقي واجب الاحترام لصدقه مع انه عدو. ولكنني رأيت وسمعت ما قاله اللواء المصري عبد المنعم كاتو على شاشة تلفزيون الكويت، ففي رده على احتجاج المذيع الكويتي والذي احتج على أن بعض الإعلاميين العرب رفضوا عرض التلفزيون الكويتي مشاهد لمجموعة من الأطفال العراقيين وهم يأخذون الحلوى من جنود المارينز الأمريكان الذين دخلوا منطقة صفوان فماذا في ذلك؟ إن سيادة اللواء "كاتو" وبعكس العديدين من المحللين العسكريين المصريين الشرفاء والذين تابعنا تحليلاتهم الرصينة، يبدو وكأنه يغلي بالعار والشنار من أداء الجيش العراقي الملحمي في مواجهة الغزاة فقد رد على المذيع وقال حرفيا (إن تلك المشاهد هي أقصى درجات الاضمحلال المعنوي لشعب!!)

ـــ يبدو أن الفروق الأدلوجية بين السياسيين العراقيين المؤدين للحرب قد زالت فتساوى العلماني مع الإسلامي وهاكم هاتين الشهادتين: من الإسلاميين يرد اسم الشيخ مصطفى القزويني المقيم في الولايات المتحدة الأمريكية والذي شارك في برنامج حواري على إحدى الفضائيات وطالب الجيش العراقي علنا بالاستسلام ووضع السلاح وكرر طلبه وبإلحاح مريب ثلاث مرات! أما من العلمانيين فقد فاجأ كنعان مكية العالم حين كتب مقالة في جريدة نيوريبوبلك يقول (إن أصوات

القذائف المتساقطة على بغداد أعذب من أجمل موسيقى سمعتها أذناي، بل هي كقرع أجراس الحرية تؤذّن لفجر جديد للعراق.) المؤلم في الأمر أن هذا الكلام المستفز والمرفوض لم يستثر أية ردة فعل عراقية، لا من الرافضين ولا من المؤيدين للمقتلة الأمريكية بحق شعبنا، مع أن جريدة "السفير" البيروتية أعادت نشر كلام مكية وعلق عليه أحد كتابها بمقالة في عدد يوم أمس الجمعة. أليس هذا الكلام دعوة علنية للقتل لم يتجرأ حتى مجرم حرب مثل شارون على إطلاقها مثيلتها؟ أي عار ألحقه هذا الشخص بنفسه وبمن دافع عنه ووضع توقيعه إلى جانب توقيعه في بيانات الدعوة لتأييد العدوان على العراق تحت مسمى "حرب التحرير"؟ إنني أتفهم وأتأمل وجهات نظر حتى أشد العراقيين المعارضين للنظام ممن يؤيدون هذه الحرب، أتفهم هؤلاء الأخوة مع إنني أرفض وجهة نظرهم، فهؤلاء اعتقدوا أو ظنوا بأن الحرب الأمريكية ربما تكون وسيلة لخلاص الشعب من الاستبداد، وأكثر من هذا فأنا أتحسس مقدارا معتبرا من جدية المبررات التي يسوقونها فيما يخص ممارسات النظام طوال أكثر من ثلاثين عاما، خصوصا وإنني من ضحايا هذا النظام مثلهم. لقد تفهمت مواقف الذين أيدوا الحرب "كعملية جراحية ماهرة ونظيفة" للقضاء على رأس النظام دون الإضرار بالشعب، ولكن ما ارتكبه الغزاة حتى الآن من مجازر بحق الأبرياء أزال الغشاوة عن أعين هؤلاء الأخوة ولا أعتقد بأنهم مازالوا في موقعهم المؤيد للحرب والمجازر القادمة ستكون أفظع وأكثر دموية فهؤلاء الغزاة أمريكان، هل نسيتم ماذا فعلوا بالهنود الحمر والفيتناميين؟. لقد تفهمت حتى من أيد الحرب، واعتبر سقوط بعض الضحايا ثمنا لما اعتبروه تحريرا للبلاد من حكم شمولي.. قلت أتفهم، ولم أقل أوافق على هذه الآراء بمعنى إنني أجد لهم أعذارا قوية، ولكنها مرفوضة من قبلي ومن قبل جميع الرافضين لهذه المجزرة

القذرة بحق شعبنا، ولهذا أحافظ وسأظل محافظا على موقفي المعارض والرافض للنظام المستبد، وفي نفس الوقت أعتبر أن غزو العراق وارتكاب المجازر بحق شعبه وآخرها بمجزرة حي الكادحين في "الشعلة" عدوان همجي يجب التصدي له وقبره في أرض العراق. ولكني، ومع تفهمي لكل تلك الآراء، لا أستطيع أن أفهم ولا أتفهم كلام كنعان مكية المستلذ بالحرائق التي يشعلها الغزاة الإنكلوساكسون في العراق الحبيب والمستمتع بموسيقي القنابل وبروائح الشواء البشري المتصاعدة من هناك.

٦٩ -كلب جميل من البصرة!

لم أسمع يوما بكاتب حاول التدليل على صواب فكرة سياسية يتبناها بما فعله حيوان! ومع ذلك فليس أمامي سوى أن أكون أنا هو ذلك الكاتب. سأوضح فكرتي السياسية أولا ثم أعود لضيفي الكلب: ليست لدي أيما أوهام حول نهاية هذه الحرب العدوانية، فمن الناحية العسكرية البحتة سيتمكن الغزاة من دخول بغداد بعد تدميرها تدميرا تاما والقيام بمجزرة كبرى فيها باستعمال الأسلحة الحديثة، فإن لم يفعلوا ذلك وبقي النظام قائماً ستكون تلك سقطتهم الاستراتيجية المدوية والتي تؤذن بغروب الهيمنة الأمريكية على مستوى الكوكب فيتنفس العالم الصعداء بانتهاء كابوس الإرهاب الإنكلوسكسوني. ومع ذلك يمكننا أن نعتقد منذ الآن أن الغزاة خسروا هذه الحرب سياسيا، وسيظلون خاسرين حتى إذا

تمكنوا من إسقاط النظام لأن ما سوف يواجهونه سيكون رهيبا ويكرر فصول ثورة العشرين التي حدثت بعد أقل من ثلاثة أعوام على سقوط بغداد بيد البريطانيين سنة ١٩١٧. لماذا خسروا الحرب سياسيا؟ لأنهم بعد النصر العسكري سيواجهون شعبا متحررا من الاستبداد أولا ومجروحا بعمق من المجازر التي ارتكبوها ثانيا ولأن آليات اشتغال النزعة الوطنية العراقية ستبدأ العمل بذات الجذرية التي اشتغلت بها عند ما اشتعلت ثورة العشرين الكبرى ثالثا. هذه الآليات الاجتماعية النفسية الاقتصادية السياسية، تنبع من خصوصيات المجتمع العراقي الرافضة لأي شكل من أشكال الاحتلال الأجنبي سواء كان مباشرا أو غير مباشر. وبكلام أدبي، يمكن القول أن كل قرية عراقية وكل أحدوثة تاريخية مازالت حية، تمثل شاهدا نابضا على تلك الخصوصية لدرجة أن الكلام عن مقاومة شاملة قد لا تستثني الشجر والحجر.. لا بل إنه قد لا يستثني الحيوانات الليفة كالكلاب وها قد عدت إلى الضيف ودونكم حكايته المعبرة دليلا على ما أقول: رأيت قبل قليل تحقيقا صحفيا بثته القناة الفرنسية الأولى ضمن نشرتها الإخبارية في الساعة الثامنة مساء الاثنين ٣١ /٣ والتي قرأها المذيع المعروف "دوبوافر" وهذا توثيق لا يمكن لأي كان تكذيبه. وفي هذا التحقيق توقف المراسل والمصور عند مشهد مجموعة من الجنود الغزاة الأمريكان وهم يتقدمون مذعورين في ضواحي مدينة البصرة، وفجأة اندفع باتجاههم كلب.. كلب عراقي عادي، جميل العينين، تروي عظامه البارزة وهزال جسده قصة الحصار وقلة الطعام.. لا يمكنني أن أصف هجومه الشرس ونباحه الحاد والهستيري وهو يندفع نحو

الجنود الغزاة .. تراجع جنود المقدمة قليلا، صرخوا به.. هددوه بتوجيه فوهات بنادقهم الأم ١٦، ولكنه واصل قراءة خطابه المقاوم واستمر يتقدم نحوهم.. ثم انتهى المشهد دون أن نعرف نهاية المواجهة وأبرزت الكامرة مشهدا آخر.. كيف كانت نهاية ذلك الكلب العراقي الحقيقي؟ شخصيا، شعرت بحرج عميق أمام هذا المشهد فحين سيسألني أحفادي بعد عقود ماذا كنت أفعل، وأين كنت أقيم، حين حدث العدوان فبماذا سأجيب؟ هل أقول إنني كنت أقيم في أوروبا وأكتب المقالات والقصائد ضد الغزاة والنظام المستبد؟ وماذا لو شاهد الأحفاد بسالة هذا الكلب الشجاع وقارنوه بي؟ حين رويت مأثرة هذا الكلب للصديق الكاتب عبد الأمير الركابي رد عليَّ بهدوء وقال: "نعم، هذا كلب ابن ولاية" ابن بلد وقد شم رائحة الغزاة الكريهة فثار!

و أقول: مجدا لك أيها الحيوان الجميل..
يا حامل المعاني..
يا سليل كلب آخر
فعل ما فعلته أنت اليوم سنة ١٩١٤
مجدا لك حيا كنت أم ممزقا بالرصاص..

٧٠- سقوط الصنم!

اليوم هو التاسع من نيسان، وقد ذكرني أحد الأصدقاء قبل قليل بأن هذا اليوم يصادف ذكرى ارتكاب النظام الشمولي الدموي لجريمته القذرة، جريمة إعدام المفكر الإسلامي العراقي الشهيد محمد باقر الصدر وشقيقته الأديبة بنت الهدى، كما سوف يسجل هذا التاريخ بوصفه اليوم الذي سلم فيه الطاغية صدام حسين العاصمة العراقية للقوات الأمريكية المهاجمة التي سارعت إلى التموضع في أماكن عديدة من العاصمة وأهمها ساحة الفردوس. وفي هذه الساحة تجمهر عدد من المواطنين العراقيين وراحوا يضربون صنما ضخما للطاغية بالأحذية وحاول بعضهم تحطيمه بالمطارق الثقيلة ثم تدخلت إحدى الآليات الأمريكية وحطمت الصنم بعد أن رفعت عليه العلم الأمريكي، وقد بادر شاب عراقي ورفع العلم العراقي ذا النجوم الثلاث على الصنم. هذه الأحداث شاهدها الجميع وما ثمة داع للاستفاضة فيها، فقط أود الإشارة إلى إصرار المحتفلين بسقوط الطاغية على رفع العلم العراقي بعد أن شاهدوا الجنود الأمريكان وهم يرفعون العلم الأمريكي. في هذه الحادثة الصغيرة دلالة هامة على أن البهجة التي غمرت المواطنين ببداية انهيار النظام لم تنسهم أو تجعلهم يهملون ولاءهم لوطنهم و لم تجعلهم يسكتون على الإهمال الأمريكي لرمز من رموز السيادة العراقية ألا وهو العلم والنسخة القديمة منه تحديدا. يمكن لمن يشاء أن يقارن هذه البادرة

العميقة ببادرات أخرى كثيرة قام بها المعارضون العراقيون في المنفى.. فليقارن من شاء المقارنة بين رقاب بعض المعارضين العراقيين المنحنية لمادلين أولبرات بقامة الشاب العراقي الشامخة الذي بادر إلى رفع علم بلاده في وجوه الأمريكيين بعد أن رفعوا علمهم بدقائق قليلة على وجه الصنم الذي خنق وذبح العراقيين طوال سنين!

حديث المصادفات هذا الذي بلغ ذروته اليوم حيث توافقت ذكرى استشهاد الصدر وشقيقته مع دخول الغزاة إلى العاصمة دخول الفاتحين دون مقاومة تذكر، هذا الحديث ليس غريبا علي تاريخ العراق والشرق بعامة، ولكن أن تتصادف ذكرى اغتيال الشهيد الصدر وشقيقته مع ذكرى دخول الغزاة إلى العاصمة فهي مصادفة تبعث على الحزن، فقد كان المأمول أن يثأر الشعب العراقي وطلائعه المكافحة ويقتص من قتلة الصدر وجميع شهداء العراق لا أن يقوم الأجانب بذلك وهذا ما يترك مذاقا مرا في الشعور بالفرح لزوال وانهيار النظام الفاشي الذي أرعب العراقيين طوال أكثر من أربعة وثلاثين عاما. لا يملك الإنسان وقد حدث ما حدث إلا أن يبتهج أيضا إلى أن المجزرة الرهيبة التي توقعها الكثيرون لم تحدث في بغداد، مع أن ذلك لن يبرئ القتلة من دماء آلاف الضحايا العراقيين الذين قتلوا أو جرحوا أو فقدوا .

إن الخشية كبيرة من أن دماء أخرى ستسفك، فالتسليم السهل لبغداد واختفاء القوات النظامية يشي بأن وراء الأكمة ما وراءها وأن هناك أحداث خطيرة ستحدث. وهناك أيضا خشية من أن يبادر

المهزومون إلى طرح خيار تقسيم العراق وأن يبادر انتهازيون آخرون إلى ترويج النزعة الطائفية، وترتكب مذابح ثأرية واسعة النطاق. إن هذه المخاوف كلها تستدعي من جميع المعارضين العراقيين المخلصين، التأكيد على الثوابت الوطنية، وترويج روح التسامح ومداواة الجروح، ومكافحة النزعات الطائفية والثأرية، والاستعداد لمرحلة جديدة وإنهاء الوجود الأجنبي بكل الوسائل المتاحة وإقامة حكم عراقي منتخب بشكل ديموقراطي تحت إشراف الأمم المتحدة.

ولكن ماذا عن الغموض الذي يسود الآن؟ أين ذهبت القوات الحكومية والسلطة المركزية؟ أين ذهب صدام حسين نفسه؟ أسئلة كثيرة يثيرها الغموض السائد ولكن هذا الغموض لن ينفي حقيقتين: الأولى مبهجة وباعثة على الأمل وهي حقيقة بداية انهيار النظام الدموي وفقدانه السيطرة على العاصمة، والحقيقة الثانية وهي تعطي للشعور بالبهجة مذاقا حزينا وهي أن الأمريكيين يحتلون الآن قلب العراق وعاصمته بغداد بدباباتهم ومدافعهم فهل سيتمكنون من احتلال قلوب العراقيين الغارقين في دمائهم ودموعهم غدا ؟

أهنئك يا شعبي من القلب.. وفي القلب غصة!*

* على سبيل الخاتمة :

بعد نشر المقالة ما قبل الأخيرة (سقوط الصنم) في جريدة الزمان بشكل محرف وبعد انحياز الجريدة انحيازا تاما إلى خيار الحرب واحتلال العراق وتبنيها لوجهات نظر أقل ما يقال عنها إنها مريبة ومتواطئة مع الخطاب السياسي للاحتلال الأمريكي قررت التوقف عن النشر في تلك الجريدة وقطع العلاقة بهيئة تحريرها وقد نشرت تفاصيل ما حدث على عدد من المواقع العراقية على شبكة الانترنيت وفي كتابي (يوميات المجزرة الديموقراطية) على الصفحة ١٤٠ و ١٥٤. وهكذا توقفت عن كتابة سلسلة المقالات القصيرة تلك وانتهت هذه التجربة الصحافية المتواضعة والتي أردت أن أشرك القارئ فيها فأقدمها له على هيئة كتاب خفيف هدفه الإمتاع والإفادة.

صدر للمؤلف :

١ ــ نصوص مضادة دفاعا عن العراق (مقالات ودراسات)
٢ ــ كتابات ضد التيار (مقالات و دراسات)
٣ ــ نقد المثلث الأسود (مقالات ودراسات)
٤ ــ ثلاث مسرحيات (نصوص مسرحية)
٥ ــ إيجابيات الطاعون ومسرحيات أخرى (نصوص مسرحية)
٦ ــ بغداد ترتقي الجلجلة ومسرحيات أخرى (نصوص مسرحية)
٧ ــ دليل التنشيز (مجموعة شعرية)
٨ ــ سيرة اليمامة البابلية (مجموعة شعرية)
٩ ــ الورد والنار (قصص قصيرة)
١٠ ــ قصائد حب باتجاه البحر (شعر مترجم إلى العربية)
١١ ــ يوميات المجزرة الديموقراطية في العراق (يوميات ومقالات قصيرة)

المسرد

٦٣- ذكي بعلم المساحة : ٦٦



هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب أكثر من مائتين وخمسين نكتة ونادرة من التراث العربي القديم، مصاغة بلغة بسيطة ومفهومة، إضافة إلى سبعين مقالة صحافية خفيفة تناقش عددا من المواضيع والمظاهر المتعلقة بالحياة العربية المعاصرة كقضايا التراث والأدب والفن والمرأة والسياسة والعادات والتقاليد وبرامج القنوات الفضائية والتجارب التاريخية المثيرة للاهتمام والحوادث النادرة والطريفة. هذا الكتاب هو خلاصة تجربتين صحافيتين خاضهما المؤلف: الأولى حين واظب على تحرير ركن خاص بالطرائف التراثية في جريدة عراقية ساخرة هي "المجرشة" والثانية هي تحريره لمقالة أسبوعية في ركن خاص في الصفحة الأخيرة من جريدة عربية تصدر في لندن هي "الزمان". هذا الكتاب الطريف هو خلاصة لهاتين التجربتين المتواضعتين ودعوة للاستمتاع والاستفادة منهما، إنه واحة ظليلة وهادئة يقترحها المؤلف على المسافر بين محطات نهارات حياتنا المعاصرة الصاخبة .

الناشر